الاسلام في الصين

الكتب الاسلامية في الصين

GIFTS OF 2000

THE EMBASSY OF THE
PEOPLE REPUBLIC OF
CHINA - CAIRO

الاسلام فى الصين

تأليف : ابراهيم فنغ جين يوان
تعريب : محمود يوسف لى هوا ين

دار النشر باللغات الاجنبية
بكين

الطبعة الاولى .... عام ١٩٩١

٢٤ شارع باى وان تشوانغ
بكين — الصين
الرمز البريدى ١٠٠٠٣٧

ISBN 7—119—01309—2

طبع فى جمهورية الصين الشعبية

الفهرس

مقدمة

لقد جاءت رسالة الاسلام هدى للعالمين ، فلا غرو ان ينتشر المسلمون فى مشارق الارض ومغاربها ، وان ينتشروا كذلك فى كافة انحاء الصين .

دخل الاسلام من جزيرة العرب الى الصين منذ اكثر من ١٣٠٠ سنة . ولما ضرب اطنابه فيها انتشر على نطاق واسع ، وشهد تطورا مطردا ، كما تأثر بالظروف الاجتماعية الصينية . وان من ضمن الـ ٥٦ قومية صينية ١٠ اقليات قومية اسلامية هى هوى والويغور والقازاق والاوزبك والقرغيز والتتار والطاجيك ودونغشيانغ وباوآن وسالار . ويزيد عدد المسلمين فى الصين على ١٧ مليون نسمة ، كما يزيد عدد المساجد على ٢٤٫٠٠٠ مسجد وهى تنتشر فى المدن والقرى من ادنى الصين الى اقصاها انتشار البيادق على لوحة الشطرنج .

وبفضل تطبيق الصين سياسة الانفتاح على الخارج وتنشيط الاقتصاد فى الداخل ازدادت التبادلات الاقتصادية والثقافية بينها وبين البلدان الاخرى . وفى ظل هذا الوضع اجتاحت امواج الدراسات الاسلامية المؤسسات العلمية داخل الصين وخارجها بدافع من رغبة المسلمين ومن يهمهم الامر فى معرفة احوال المسلمين الصينيين وتاريخ الاسلام وتطوره ومزاياه فى الصين . هذا وقد قدم عدد غير قليل من دارسى الاديان الصينيين معلومات مفيدة للدراسات الاسلامية ، مما ترك اثرا جيدا فى التبادلات الثقافية والصداقة بين المسلمين الصينيين واخوتهم من المسلمين فيما وراء البحار .

وقد امضى ابراهيم فنغ جين يوان — مؤلف هذا الكتاب — سنوات

فى الدراسات الاسلامية حصل خلالها على كميات كبيرة من المعلومات المعنية ، وقام بترتيبها بالتعاون مع السيد لى شينغ هوا . وانتهى به الامر الى اصدار كتاب بعنوان « مختارات من المعلومات الخاصة بالاسلام فى الصين » . وعلى هذا الاساس تم له تأليف هذا الكتاب الذى يعرف ، بصورة شاملة ووجيزة ، بتاريخ انتشار الاسلام فى الصين وتطوره فيها وبالحضارة الاسلامية والتعليم الاسلامى ومبانى المساجد ومزايا الاسلام فى الصين وعادات المسلمين الصينيين . وتتمثل مزايا هذا الكتاب فى ان معلوماته غنية ومحتوياته واقعية ولغته مبسطة وسهلة الفهم ، زد على ذلك انه قد خصص كثيرا من الصفحات للتعريف بأحوال تطور المسلمين فى منطقة شينجيانغ الويغورية الذاتية الحكم وتاريخهم وعاداتهم وحضارتهم . وهذا الكتاب ، اذ يحدثنا عن تطور الاسلام فى الصين ، يقوم كذلك بتمجيد الصداقة والتبادلات الثقافية بين الصين وبلاد العرب . وجملة القول ان هذا الكتاب هو الجيد من نوعه بين الكتب المنشورة فى غضون السنوات القليلة الماضية . وعلى الرغم من ان بعض الفصول والفقرات من هذا الكتاب ما يزال ينشد الكمال ، الا انه يظل جديرا بأن يعتبر كتابا معرفا بالاسلام فى الصين بصورة مبرمجة وشاملة . . ونافذة للمسلمين فيما وراء البحار تطل على وضع الاسلام وملامح المسلمين فى الصين . ولذلك يسرنى ان اهنئ المؤلف على هذا الكتاب . وانى لأرجو منه ومن زملائه من المسلمين وبنى وطنهم من غير المسلمين ان يسهموا بقسط اكبر فى هذا الحقل .

صالح آن شى وى

بكين – اغسطس ١٩٨٨

نبذة عامة

نظرا الى ان الاسلام كان معروفا فى الصين باسم "دين هوى" فقد خيل الى بعض الصينيين ان كلمة "الاسلام" هى كلمة مرادفة لـ "هوى". والحقيقة ان "هوى" هو اسم مختصر لقومية "هوى هوى" (وهى من القوميات المسلمة فى الصين) بينما الاسلام دين معروف فى مشارق العالم ومغاربه. فلا يجوز خلط مفهوم "الاسلام" مع مفهوم "هوى" فى اى حال من الاحوال.

ان فى الصين ٥٦ قومية ، من ضمنها ١٠ قوميات مسلمة هى قومية هوى والويغور والقازاق والقرغيز والطاجيك والاوزبك والتتار وسالار ودونغشيانغ وباوآن. زد على ذلك ان عددا من ابناء قوميات المنغول والتبت وداى وباى قد اهتدوا بالاسلام ايضا.

والخلط بين "الاسلام" و"هوى" يرجع الى سببين احدهما ان ابناء تسع قوميات من القوميات المسلمة العشر فى الصين ينحصرون فى شينجيانغ وقانسو وتشينغهاى فى شمال غربى الصين ، بينما تنتشر قومية هوى التى "يتبعثر ابناؤها من حيث الكل ويتمركزون من حيث الجزء" من ادنى الصين الى اقصاها. او بالاحرى تتوزع فى كل مقاطعة وبلدية ومنطقة ذاتية الحكم. ولما كان عامة الصينيين غير المسلمين لا يعرفون ان هناك مسلمين من غير الهويين ، فقد نسبوا الاسلام اليهم فقط. اما السبب الثانى فنظرا الى ان الاسلام كان معروفا بـ "دين هوى" فى الصين فى فترة من الفترات فقد

سبق لعدد من المسلمين فى عهد جمهورية الصين (١٩١٢ — ١٩٤٩) ان استفادوا من وسائل الاعلام فى الدعاية لـ " قومية دين هوى" . وهم لا يعتبرون المسلمين الصينيين — على اختلاف قومياتهم — من " قومية دين هوى" فحسب ، بل ينسبون جميع المسلمين فى العالم الى هذه القومية . وفى عهد اسرة تشينغ (١٦٤٤ — ١٩١١) اطلق اسم " هوى من المعممين " على قومية الويغور ، واسم " هوى من سالار" على قومية سالار ، واسم " هوى من قومية دونغشيانغ" على قومية دونغشيانغ ، واسم " هوى من الناطقين بلغة هان " على قومية هوى . وعليه فما من احد اسلم الا اعتبر من الهويين بصرف النظر عن انتمائه القومى . وكان لوجهة النظر هذه تأثيرات اجتماعية كبيرة فى الصين .

وبالاضافة الى تسمية الاسلام " هوى" فى الصين فقد كان قدامى الصينيين يطلقون اسم " دا شى" و" تيان فانغ" على جزيرة العرب ، واسم " المنطقة الغربية " على المنطقة الواسعة الممتدة من حدود الصين شرقا الى ساحل البحر الأبيض المتوسط غربا ، بما فى ذلك جزيرة العرب ، واسم " اقطار هوى هوى" على البلدان الاسلامية فى هذه المنطقة . كما كانوا يسمون الاسلام " قانون دا شى" و" دين تيان فانغ" و" دين تيان فانغ النبوى" و" دين المنطقة الغربية " و" دين هوى هوى" و" دين النظافة " و" دين الحق " و" دين الصفاء والنظافة " و" دين الصفاء والحق " و" دين السلام " . وكان هناك عدد من العلماء الهويين يسمون الاسلام فى مؤلفاتهم " الدين النبوى" او " الدين الحنيف" . وفى عهد جمهورية الصين لجأ عدد من الهويين الى تسمية ابناء قومية هان " اصحاب الدين الكبير" (لكثرة عددهم فى الصين) وتسمية انفسهم " اصحاب الدين الصغير" (لقلة عددهم فى البلاد) . وبالاضافة الى ذلك كان هناك عدد من المثقفين يسمون الاسلام

” الدين المحمدى“ متأثرين بعلماء الفرنجة . ولكن اسم الاسلام الاكثر شيوعا فى الصين منذ استيلاء المنغول على السلطة فى الصين سنة ١٢٧١ حتى تأسيس الصين الجديدة سنة ١٩٤٩ هو ” دين هوى“ . ولما اصدر مجلس الدولة للصينى « اشعار حول اسم الاسلام » بتاريخ ٢ يونيو ١٩٥٦ استعاد الاسلام اسمه الاصلى فى الصين . فلم تعد اسماؤه غير الصحيحة فى الصين مستعملة .

لم يكن قبل سنة ١٩٤٩ احصاء دقيق لعدد المسلمين الصينيين . وكان بعض الناس يقول بأن عددهم يبلغ ٨٠ مليون نسمة ، وبعضهم الآخر يقول بأنه يبلغ ٥٠ مليون نسمة . والحقيقة ان هذه المقولة او تلك ليس لها اساس من الصحة . ويفيدنا الاحصاء العام الرابع الخاص بعدد سكان الصين والذى اجرى سنة ١٩٩٠ بأن عدد ابناء القوميات المسلمة فى الصين يربو على ١٧ مليون و٥٩٧ الف نسمة ، ينتمى ٨ ملايين و٦٠٣ آلاف نسمة منهم الى قومية هوى ، و٧ ملايين و٢١٤ الف نسمة منهم الى قومية الويغور ، ومليون و١١١ الف نسمة منهم الى قومية القازاق ، و٣٧٤ الف نسمة منهم الى قومية دونغشيانغ ، و١٤٢ الف منهم الى قومية القرغيز ، و٨٨ الف نسمة منهم الى قومية سالار ، و٣٤ الف نسمة منهم الى قومية الطاجيك ، و١٥ الف نسمة الى قومية الاوزبك ، و١٢ الف نسمة الى قومية باوآن ، الى جانب ٥ آلاف نسمة الى قومية التتار .

ونعرف من « حولية بريطانيا العظمى» لسنة ١٩٨٠ ان عدد المسلمين الاجمالى فى العالم يبلغ خمسمائة و٨٧ مليون وثلاثمائة و٣٥ الف واربعمائة نسمة* ، منهم ٣١٧٫٢٠٠ امريكى شمالى ، و٢٥١٫٥٠٠ امريكى جنوبى ،

* راجع « احصاء عدد المؤمنين بالاديان الرئيسية فى العالم » — وهو الملحق الرابع لكتاب « موجز احوال الاديان فى العالم » الذى نشرته دار النشر الصينية

و٠٠٠ر١٤٥ر١٤ اوربى ، و٠٠٠ر٢٦٦ر٤٢٧ آسيوى ، و٧٠٠ر٢١٤ر١٤٥ افريقى ، و٠٠٠ر٨٧ استرالى . ومعنى ذلك ان عدد المسلمين الصينيين اكثر من اخوتهم المسلمين فى كل من امريكا الشمالية وامريكا الجنوبية واستراليا ، ويمثل ١ر٤ بالمائة من المسلمين الآسيويين ، و٩ر٢ بالمائة من المسلمين فى العالم كله . فجاز لنا القول بأن المسلمين الصينيين يشكلون جزءا هاما من سكان العالم الاسلامى .

وعلى مدار اكثر من الف سنة احتجبت تأثيرات الديانات الكثيرة مثل المانوية والنسطورية والزرادشتية واليهودية عن الانظار فى الصين التى كانت تسودها الكونفوشية باعتبارها ايديولوجية حنيفة لها ، فلم تترك سوى قلة قليلة من الآثار التاريخية مثل "نصب انتشار النسطورية فى الصين" وامثاله والقبور المتبقية من قديم الزمان ، وهى شاهد عيان على انتشار تلك الديانات فى الصين فى فترة من الفترات ومقصد للمؤرخين والباحثين ليس غير . اما المسلمون الصينيون من مختلف القوميات فعلى الرغم من انهم كانوا يعانون من وطأة الاضطهاد والظلم والذبح على يد الحكام فى العصور المتعاقبة ، ومن وطأة الكوارث الطبيعية والآدمية المتنوعة ، الا انهم ظلوا يتمسكون بأصول دينهم تمسكا قويا ، بل طوروه الى حد ما وهم يعيشون فى محيط غير اسلامى

للعلوم الاجتماعية فى سبتمبر ١٩٨٤ لأول مرة . ومما يستحق الذكر ان عدد المسلمين (٤٠٠ر٣٣٥ر٥٨٧) الوارد ذكره فى هذا الاحصاء اكثر من مجموع عدد المسلمين فى مختلف القارات (حسب ما ورد فى نفس المصدر) بـ ٠٠٠ر٥٤ نسمة . معنى ذلك ان مجموع عددهم يجب ان يكون ٤٠٠ر٢٨١ر٥٨٧ نسمة . ولكن ظهرت هناك احصائيات جديدة فيما يختص بعدد المسلمين فى العالم ، يشير بعضها الى ان عددهم ٧٥٠ مليون نسمة ، بينما يفيدنا بعضها الآخر بأنه يبلغ ٩٠٠ مليون ، وهم يمثلون سدس سكان العالم .

وسط ابناء قومية هان وقوميات اخرى . وقد ازداد عدد المسلمين فى الصين قليلا عن ذى قبل ، وتم لهم تأسيس الجمعية الاسلامية الصينية والجمعيات الاسلامية المحلية على مختلف المستويات وتأسيس مجلتهم الدينية . ولو ذهبت الى اى منطقة مأهولة بالمسلمين فى الصين ، لترامى الى سمعك صوت " الله اكبر" فى اوقات الصلوات الخمس . ولو توقفت فى اى معهد اسلامى او مدرسة دينية ، لوجدت الطلبة هناك منهمكين فى دراسة القرآن الكريم وعلوم الدين الاخرى . ولا تفوتنا الاشارة الى ان عدد الحجاج الصينيين يزداد سنة بعد سنة ، والمساجد الجديدة تظهر الى حيز الوجود من حين لآخر . واذا حل العيدان الاسلاميان المباركان ، رأيت المسلمين يتدفقون الى المساجد جماعات جماعات يرتدون افضل ملابسهم ويعتمرون الطواقى البيضاء ليؤدوا صلاة العيد وليعايد بعضهم بعضا بسرور وابتهاج . ومنذ الثمانينات شهد الاسلام تطورا جديدا فى الصين .

بعد ان تطور الاسلام فى الصين ردحا طويلا من الزمن ضرب جذوره فى تربتها . وعلى مدار اكثر من الف سنة ظل المسلمون الصينيون يشاركون ابناء قومية هان والقوميات الاخرى فى السراء والضراء ، ويكافحون معهم جنبا الى جنب فى نضالهم ضد العدو المشترك ومن اجل بناء الوطن الام . وفى الفترة الطويلة التى كان المسلمون الصينيون يشاركون فيها بنى وطنهم من سائر القوميات فى الحياة والعمل والكفاح استفادوا منهم بصورة واعية او عفوية ، فتأثروا بالحضارة التقليدية الصينية وحضارات الاقليات القومية ، الامر الذى اضفى سمات صينية على الحضارة الاسلامية الصينية التى شكلت بدورها جزءا هاما من حضارة الامة الصينية . ولذلك فان الوقوف على السمات الصينية المضافة الى الحضارة الاسلامية هو الطريق الموصل الى معرفة وضع الاسلام فى الصين، ومعرفة المسيرة التاريخية للمسلمين الصينيين من مختلف القوميات حق المعرفة .

الباب الاول
دخول الاسلام الى الصين

الفصل الاول
آراء مختلفة حول تاريخ دخول الاسلام الى الصين

١ ــ اسطورتان حول دخول الاسلام الى الصين

تقول الاولى بأن الامبراطور ون دى (٥٨٩ ــ ٦٠٤) لأسرة سوى رأى فى احدى الامسيات نجمة متألقة فوق العادة ، فسأل وزيره المسؤول عن شؤون العرافة عن سبب بزوغ تلك النجمة . فكان جوابه كالآتى : انها رمز الى ظهور شخص عظيم فى " الداشى " (اى جزيرة العرب) . فقرر الامبراطور ون دى ايفاد مبعوث الى هناك للتحقق من الامر . وبعد ان تجشم مبعوثه هذا مشقات السفر مدة سنة وصل الى وجهته سالما ، حيث قابل النبى محمد عليه الصلاة والسلام ودعاه الى زيارة الصين . ولكنه اختار بعد ان رفض طلبه هذا رفضا جميلا ٤ رجال من صحابته لكى يذهبوا مع القادم الى الصين . وكان من بين مبعوثى النبى الاربعة سعد بن ابى وقاص . ولما عاد المبعوث الصينى الى بلده قدم صورة رسمها للنبى (ص) فى الخفاء الى الامبراطور ون دى ، كما قدم اليه مبعوثى النبى الاربعة .

سر الامبراطور ون دى ايما سرور برؤية صورة النبى (ص) ، وما لبث ان امر بتعليقها على جدار قصره . ولما رآه سعد بن ابى وقاص يعبدها منعه من ذلك قائلا : " لقد نهانا النبى عليه السلام عن عبادة اى نوع من التماثيل والصور ، بل امرنا بعبادة الله الذى لا اله الا هو الرحمن الرحيم " . فكال الامبراطور آيات المديح لأصول الاسلام الخالية من كل الشوائب . ولم يكتف هذا الامبراطور بالتوقف عن عبادة صورة النبى (ص) ، بل عفى سعدا وزملاءه من تحيته بالركوع والسجود ، وبنى لهم مسجدا فى مدينة قوانغتشو سماه " هوايشنغ " (الحنين الى النبى) تعبيرا عن حنينهم الى النبى عليه السلام . وظل سعد بن ابى وقاص الملقب بـ " الحكيم الاول " ينشر الاسلام فى قوانغتشو حتى وافته المنية ودفن فيها . اما صاحبه الثانى الملقب بـ " الحكيم الثانى " فقد توجه الى مدينة يانغتشو لنشر الاسلام فيها ، وقد توفى ودفن هناك . واما الباقيان الملقبان بـ " الحكيم الثالث " و " الحكيم الرابع " فقد اتخذ كل منهما على حدة مدينة تشيوانتشو (مدينة الزيتون) قاعدة لنشر الاسلام ، واستمرا الى ان توفيا ودفنا فيها .

اما الاسطورة الثانية فتأثيراتها اشد من تأثيرات مثيلتها الاولى . ولنوجز ما ورد فيها فيما يلى : رأى الامبراطور تاى تسونغ (٦٢٧ — ٦٤٩) لأسرة تانغ فى اضغاث احلامه عفريتا ينقض عليه . وبينما هو يعانى من هذا الكابوس الشديد ظهر شيخ فى جبة خضراء وعلى رأسه عمامة بيضاء وبيده مسبحة ، وطرد ذلك العفريت اللعين ، وانقذ الامبراطور من الخطر المحدق به . فحشد الامبراطور وزراءه وحاشيته من المدنيين والعسكريين فى اليوم التالى داعيا اياهم الى تأويل رؤياه ، فقال له احد الوزراء بأن العفريت الذى رآه فى منامه انما يرمز الى وجود متآمرين على البلاط الامبراطورى ، بينما الشيخ المعمم هو النبى الذى بزغ نجمه فى جزيرة العرب . ومعنى ذلك ان رؤيا صاحب

الجلالة توحي الينا بأن بلادنا ليس لها سبيل الى السلام الدائم ما لم تتمتع بفضل النبي السالف الذكر .

فأوفد الامبراطور مبعوثه الى جزيرة العرب ليطلب من النبي عليه السلام ايفاد اصحابه الى الصين لنشر الاسلام فيها . وتلبية لهذا الطلب اختار النبي عليه السلام ثلاثة من اصحابه للذهاب الى الصين مع مبعوث الامبراطور . وكان من سوء الحظ ان مات اثنان من هؤلاء المبعوثين فى منتصف الطريق . اما سعد بن ابي وقاص فقد تابع ابحاره حتى وصل الى الصين سالما . . ونزل فى دار الضيافة بالعاصمة فى نهاية الامر .

وكان سعد يعتكف فى غرفته آناء الليل واطراف النهار ، يسبح الله حينا ، ويقيم الصلاة حينا آخر . وذات يوم ذهب الامبراطور تاى تسونغ الى دار الضيافة وهو فى بزة عادية لزيارة سعد الذى كان يتلو الآيات القرآنية متجها الى القبلة . ولما انهى القراءة اطبق المصحف الكريم ووضعه على طاولة امامه . ثم خرج من غرفته ليرحب بالامبراطور قائلا : " تفضلوا بالدخول يا صاحب الجلالة ! " فاستغرب الامبراطور قول سعد ، وقال : "كيف عرفت انني امبراطور ؟ " فابتسم دون ان يجيب عن سؤاله ، بل رافقه الى داخل الغرفة يدا بيد . ولما اخذ الامبراطور مقعده طرح على سعد سلسلة من الاسئلة الصعبة لاختبار كفاءته فى جميع المجالات ، فما من سؤال طرحه عليه الا واعطاه جوابه الشافى تماما . فسر الامبراطور بكفاءته ايما سرور ، واذن له بالاقامة فى تشانغآن (عاصمة الصين آنذاك) الى الابد ، كما سمح له بنشر الاسلام فى الصين .

وبعد ان امضى سعد فى الصين سنوات اشتد به الحنين الى اهله ، فاستأذن الامبراطور فى العودة الى موطنه . ولما رفض طلبه هذا ، قدم نفس الطلب مرة اخرى . فتمتم الامبراطور تاى تسونغ وهو يمسد لحيته بسرور :

" يا له من رجل عجيب . يبدو كأنه قد تآخى مع ' هوى' (العودة) ، فبما انه كان يريد ' هوى' وما زال يريد ' هوى' فعلينا ان نهتدى الى طريق لاستبقائه " ، ومن هنا التصق به اسم " هوى" كما التصق بكل من اهتدوا بالاسلام فى الصين فى آخر الامر . وبتدبير من الامبراطور زوج سعد بفتاة حسناء . فلم يعد يطالب بالعودة ، بل تفرغ بكل طاقته لنشر الاسلام فى الصين حتى اختاره الله الى جواره .

٢ — " القال والقيل " حول دخول الاسلام الى الصين

ان لتحديد وقت دخول الاسلام الى الصين اثره الحاسم فى دراسة تاريخ الاسلام فى الصين . ولذلك اصبحت هذه المشكلة تلح فى ايجاد حل لها ، ولكنها ما زالت لغزا الى زمننا هذا لعدم توفر المعلومات التاريخية الدالة على ذلك . وعليه ظل المؤرخون يختلفون فى تحديد ذلك . ولنوجز الآن التواريخ الوارد ذكرها فى اقوالهم المتباينة :

١ — فى عهد الامبراطور كاى هوانغ (٥٨١ — ٦٠٠ م) لأسرة سوى او بالاحرى فى السنة السابعة (٥٨٧ م) من حكم هذا الامبراطور نفسه .

٢ — فى السنة التاسعة (٦١٣ م) من حكم الامبراطور دا يه التابع لنفس الاسرة .

٣ — فى السنة الثانية عشرة (٦١٦ م) من حكم هذا الامبراطور نفسه .

٤ — فى عهد الامبراطور وو ده (٦١٨ — ٦٢٦ م) لأسرة تانغ .

٥ — فى السنة الثانية (٦٢٨ م) من حكم الامبراطور تشن قوان لأسرة تانغ .

٦ – فى السنة الثالثة (٦٢٩ م) من حكم هذا الامبراطور نفسه .

٧ – فى السنة السادسة (٦٣٢ م) من حكم هذا الامبراطور نفسه .

٨ – فى السنة الثانية (٦٥١ م) من حكم الامبراطور يونغ هوى لأسرة تانغ .

٩ – فى السنة الثانية (٧١١ م) من حكم الامبراطور جينغ يون لأسرة تانغ .

١٠ – فى عهد الامبراطور مينغ هوانغ (٧١٢ – ٧٥٥م) لأسرة تانغ .

١١ – فى عهد الامبراطور سو تسونغ (٧٥٦ – ٧٦١ م) او فى عهد الامبراطور داى تسونغ (٧٦٢ – ٧٦٦ م) لأسرة تانغ .

١٢ – فى القرن السابع على الحد الاقصى والقرن الخامس عشر على الحد الادنى .

ان المقولة عن دخول الاسلام الى الصين فى عهد الامبراطور كاى هوانغ (٥٨١ – ٦٠٠) شاعت فى شمال الصين وجنوبها منذ زمن يرجع الى اواسط القرن الرابع عشر ، اذ انها منقوشة على نصب حجرى فى مسجد دينغتشو بمقاطعة خبى على يد يانغ شو يى سنة ١٣٤٨ ، وعلى نصب حجرى فى مسجد تشينغجينغ بمدينة تشيوانتشو ، وقد كتب النص بيد وو جيان سنة ١٣٥٠ . ولكن محمدا عليه السلام فى تلك الفترة (اى فى الفترة ما بين ٥٨١ – ٦٠٠ م) كان صبيا . اذن فكيف دخل الاسلام الى الصين قبل ان بزغ نجمه فى جزيرة العرب ؟ ولذلك فان هذه المقولة مرفوضة بتاتا لدى المؤرخين . اما المقولات الاخرى فلكل منها مؤيدون ومعارضون ، ولكن ليس هناك سبيل الى تحديد صحة هذه المقولة او تلك لعدم وجود الادلة الدامغة على

ذلك . وجدير بالذكر ان المقولة عن دخول الاسلام الى الصين فى السنة الثانية (٦٥١ م) لحكم الامبراطور يونغ هوى مقبولة على وجه العموم لأنها مبينة فى التدوينات التاريخية الصينية الرسمية . وقد ذكرت هذه المقولة اول ما ذكرت فى مقالة «موجز تاريخ دخول الاسلام الى الصين» بقلم الاستاذ تشن يوان (١٨٨٠ — ١٩٧١) احد المؤرخين المرموقين فى العهد القريب . وتشير هذه المقالة الى ان " الداشى (اى بلاد العرب) قد اوفدت ، فى السنة الثانية (٦٥١ م) من حكم الامبراطور يونغ هوى ، مبعوثها (الى الصين) . . . حسب ما ورد فى «سجلات تانغ القديمة» و«تسه فو يوان قوى» . " كما تشير الى ان " الاتصالات الرسمية بين الداشى والصين قد بدأت بلا شك فى السنة الثانية من حكم الامبراطور يونغ هوى . " ومعنى ذلك ان الاستاذ تشن يوان كان قد اتخذ وصول مبعوث الخليفة الثالث عثمان بن عفان الى الصين سنة ٦٥١ مؤشرا لدخول الاسلام الى الصين . وفى الوقت الذى اعترف فيه المؤرخون بهذه الحقيقة التاريخية اشاروا الى انه لا يمكن اعتبارها حجة دامغة على دخول الاسلام الى الصين فى تلك السنة ، ذلك لأن مبعوث الداشى قد جاء الى الصين فى مهمة رسمية وليس لاظهار الاسلام ، وان كان من المسلمين . وبالاضافة الى ذلك فقد قال بعض المؤرخين بأن عددا من التجار المسلمين العرب والفرس كانوا قد اتوا الى الصين او استوطنوها قبل مجيء مبعوث الخليفة عثمان بن عفان . مما قدم دليلا على ان وصول الاسلام الى الصين قد تم قبل سنوات من مجيء مبعوث الخليفة .

لم يكن هؤلاء المؤرخون ممن يهرفون بما لا يعرفون ، فالسجلات التاريخية لأسرة تانغ (٦١٨ — ٩٠٧) والروايات الباقية من عهدها قد القت قليلا من الضوء على مجيء المسلمين الى الصين فى عهد الامبراطور تشن قوان (٦٢٧ — ٦٤٩) . من ذلك ان «سجلات تانغ القديمة» تشير الى ان " فى

المنطقة الغربية طائفة من الناس تزدهر بلادهم تارة وتنحل تارة اخرى . ومن عادتهم ان يأتوا الينا مجتازين الحدود . ولكن اياكم ان تعتبروا ذلك عدوانا علينا وتشويها لأخلاقنا الحميدة . وكانت الشوارع مزدحمة بالقادمين من الغرب في الايام الاولى من حكم الامبراطور تشن قوان . " وتفيدنا هذه المعلومات بأن شوارع مدينة تشانغآن كانت مزدحمة بالتجار القادمين من المنطقة الغربية . ويعتقد بأن عددا منهم من المسلمين . ومما ذكر فى مادة « اللآلئ المائية » فى الجزء رقم ٤٠٢ من كتاب « سجلات السلام العامة » قصة عن شراء احد تجار الداشى اللآلئ المائية فى سنة ٧٢٢ ورد فيها ما يلى : " انا من اهل الداشى . جئت الى هنا فى مطلع حكم الامبراطور تشن قوان ، وذلك لاقامة علاقات الصداقة معكم . " وكان كاتب هذه القصة .. نيو سو يعيش فى عهد اسرة تانغ . ونعرف من ذلك ان قدوم المسلمين من الداشى الى الصين فى مطلع حكم الامبراطور تشن قوان لاقامة علاقات الصداقة مع الصين قد سجل فى الكتاب حتى فى ذلك العهد بالذات . ومما ورد فى كتاب « تسى تشى تونغ جيان » انه : كان هناك ٤ آلاف اجنبى من المنطقة الغربية قد استوطنوا مدينة تشانغآن منذ عشرات السنين ، وتزوجوا بنساء صينيات ، ورزقوا بالبنين والبنات ، وتجنسوا بالجنسية الصينية ، حتى انهم اصبحوا رعايا لأسرة تانغ فى نهاية المطاف . ويعتقد بأن الزواج بين القادمين من المنطقة الغربية والصينيات كان قد بدأ حتى قبل السنة الثانية (٦٢٨ م) من حكم الامبراطور تشن قوان ، اذ يفيدنا الجزء رقم ١٠٠ لكتاب « تانغ هوى ياو » بأن الامبراطور تاى تسونغ كان قد اصدر فى ١٦ من الشهر السادس القمرى للسنة الثانية (٦٢٨ م) من حكمه امرا بعدم السماح للاجانب بمغادرة الصين مع زوجاتهم الصينيات . ولا تفوتنا الاشارة الى ان العادة كانت تجرى على تسمية المسلمين العرب الذين قدموا الى الصين بحرا " الاجانب " .

ويشير « تاريخ فوجيان » الى ان " الحكيم الثالث" و" الحكيم الرابع" اللذين دفنا فى تشيوانتشو قد اتيا الى الصين فى عهد الامبراطور وو ده (٦١٨ — ٦٢٦) ، بيد ان الباحثين صاروا يشكون فى صحة هذه المقولة ، اذ رأوا ان قبريهما قد ظهرا بعد القرن التاسع (اى بعد سقوط اسرة تانغ سنة ٩٠٧ على وجه التقريب) بحجة انه ليس من بين الآثار المكتشفة منهما شيء دال على انهما من عهد اسرة تانغ . اما الآثار المكتشفة فى السنوات الاخيرة والابحاث الخاصة بها فقد قدمت دليلا على صحة القول بأن للقبرين يعودان فى تاريخهما الى عهد اسرة تانغ . وحين قام البروفيسور ليو رو لى — عالم الفنون الجميلة فى مدينة نانجينغ — بزيارة القبرين سنة ١٩٨٣ اشار الى ان اعمدة دهاليزهما المتعرجة هى من الآثار المتبقية من عهد اسرة تانغ . وفى يوليو ١٩٨٤ ، عندما كان السيد يانغ هونغ شيون — الذى يعمل باحثا مساعدا فى معهد البحوث الاثرية التابع لأكاديمية العلوم الاجتماعية الصينية ونائبا لرئيس مجلس الادارة لجمعية دراسات تاريخ المبانى الصينية القديمة والابحاث النظرية المعنية — فى زيارة القبرين لم يردد نفس القول فحسب بل قال : ان الدهليز المتعرج لكلا القبرين يبدو على شكل حدوة ، وان كل عمود من اعمدته يبدو على شكل وشيعة . . وهذا خير نموذج من نوعه ، وهى من المركبات المعمارية الصينية الشائعة فى عهد الاسر الجنوبية والشمالية (٢٦٥ — ٥٨٩) . كانت المبانى المميزة بالاعمدة الوشيعية الشكل فى منطقة تشونغيوان (اى مقاطعة خنان اليوم والاماكن المجاورة لها) غالبا ما تعتبر من آثار عهد اسرة وى الشمالية (٣٨٦ — ٥٤٣) والفترات اللاحقة . واما المبانى المماثلة جنوب فوجيان فتعتبر من آثار عهد اسرة سوى (٥٨١ — ٦١٨) وعهد اسرة تانغ وعهد اسرة سونغ الشمالية (٩٦٠ — ١١٢٧) . وعلى الرغم من ان الباغودتين الشرقية والغربية فى مدينة تشيوانتشو (مقر القبرين) تعودان فى تاريخهما

الى عهد اسرة سونغ (٩٦٠ — ١٢٧٩) الا ان اعمدتهما ليست من قبيل الاعمدة الوشيعية تماما . وكفى بذلك دليلا على ان هذا الشكل من الاعمدة قد ندر حتى فى ذلك العهد . ونظرا الى ان اعمدة دهاليز القبرين المتعرجة من نماذج الاعمدة الوشيعية لما يتميز به من نقوش بسيطة وبدائية فقد جاز لنا اعتبارها من الآثار المتبقية من اوائل عهد اسرة تانغ .

وان لجوء السيد ليو رو لى والسيد يانغ هونغ شيون من علماء المبانى القديمة الى استطلاع اعمدة القبرين الاسلاميين من زاوية دراسة الآثار التاريخية وتوصلهما الى هذا الاستنتاج قد اثار الاهتمام لدى اهل العلم .

وفى سنة ١٩٨٠ تم اكتشاف ثلاث قطع من الاوانى الخزفية فى احد القبور التى يرجع تاريخها الى عهد اسرة تانغ ، فى ضاحية يانغتشو الشمالية على مقربة من موقع اثرى لمدينة يانتشنغ من نفس العهد . ومن بين هذه الخزفيات المكتشفة كوز ازرق ضارب الى اللون الرمادى ، وعلى جدرانه رسوم خضراء تدل على معنى " الله اكبر " على حد حكم احد العلماء اليمنيين. ولئن كان حكمه هذا صحيحا ، فان ذلك الكوز الخزفى شاهد عيان على نشاطات المسلمين فى يانغتشو آنذاك . واتباعا لذلك اشار السيد تشو جيانغ فى متحف مدينة يانغتشو الى ان القول بأن الاسلام دخل الى الصين فى عهد الامبراطور وو ده (٦١٨ — ٦٢٦) " يمكن تسويغه " .

الفصل الثانى

كيف دخل الاسلام الى الصين ؟

لما كان السبيل الى تحديد تاريخ دخول الاسلام الى الصين تحديدا

دقيقا امرا متعذرا ، فاننا لم نجد بدا من ان نحدد ذلك بفترة من الفترات التاريخية على وجه التقريب .

فى اوائل القرن السابع نهض محمد عليه السلام بأعباء الرسالة التى كلفه بها الله تعالى ، فبدأ بدعوة اقاربه واهل بيته اولا الى توحيد الله ، ثم راح يدعو الاصدقاء والمقربين ، واتبع ذلك بدعوة سائر قبائل العرب الى هذا الدين الحنيف . وطوال ٢٣ سنة من بدء دعوته الى الاسلام سنة ٦١٠ الى وفاته سنة ٦٣٢ م لاقى النبى عليه السلام فى نشر الدين ما لاقى . ولما اشتد اذى المشركين به وبأصحابه ، امر بعضا منهم بالهجرة من مكة المكرمة الى بلاد الحبشة . ولما ازداد اضطهاد المشركين لهم فى مكة اكثر فأكثر ، هاجر الرسول صلى الله عليه وسلم وجميع المسلمين الذين آمنوا بدعوته واعتنقوا دينه من مكة الى المدينة المنورة . وقد غادر النبى — عليه السلام — وابو بكر رضى الله عنه سويا . ومن اجل تهربهما من مطاردة العدو لجأا الى غار فى جبل ثور يدعى غار حراء ، وبقيا فيه ثلاثة ايام بلياليها ، ثم استأنفا سيرهما الى المدينة المنورة حتى وصلا اليها سالمين . وعندما استقر النبى عليه السلام فى المدينة شرع يتمم ما امره الله به من دعوة الكفار الى الايمان . ووجد له انصارا ومساعدين كثيرين من اهل المدينة وممن هاجر اليها من مكة . وقبل ان عم الاسلام بلاد العرب خاض النبى غمار كثير من المعارك ضد اعداء الاسلام . ومن اشهرها معركة بدر ومعركة احد ومعركة الخندق . ووقع بعدها اتفاقية الحديبية مع رؤساء القبائل فى مكة . وفى سنة ٦٣٠ م اى فى السنة الثامنة للهجرة فتح النبى مكة ودخلها مظفرا ، فعفا عن اعدائه وسامحهم ، ولكنه حطم ٣٦٠ صنما وهو يردد الآية التالية " وقل جاء الحق وزهق الباطل ان الباطل كان زهوقا " (سورة الاسراء الآية ٨١) : ومن هنا حل النظام الاسلامى الجديد محل النظام القبلى القديم ، والقوى الاسلامية محل القوى

اليهودية والنصرانية والوثنية التى كانت سائدة فى شبه جزيرة العرب قبل نصر الله . وقد ارسى ذلك اساسا لقيام دولة اسلامية عظمى فيما بعد .

وبعد وفاة النبى عليه السلام واصل الخلفاء الراشدون رفع راية الاسلام عاليا ، وانطلقت القوات العربية الاسلامية بتوجيههم فى اتجاهين : الاتجاه الاول نحو بلاد الشام (سورية) ، والاتجاه الثانى نحو العراق واواسطه . اما القوات المتوجهة نحو الشام فقد هزمت جيوش الروم سنة ٦٣٦ فى معركة اليرموك ، وارغمتهم على الجلاء عن سورية بكاملها بعد ان استمر احتلالهم لها سبعة قرون كاملة . واما القوات المتوجهة نحو العراق فقد كانت بقيادة خالد بن الوليد ولكن الخليفة استدعاه لمؤازرة جند المسلمين فى الشام ، فأسهم فى تحقيق النصر فى معركة اليرموك . وتابع المثنى بن حارثة الشيبانى القتال ضد الفرس ، ثم تسلم القيادة الصحابى الجليل سعد بن ابى وقاص . وانتصر العرب المسلمون فى معركة القادسية سنة ٦٣٧ ، وتابعوا زحفهم الظافر حتى احتلوا المدائن عاصمة كسرى الفرس . وفى سنة ٦٥٢ كان المسلمون قد احتلوا جزءا كبيرا من ارمينيا فى الشمال واقتربوا من نهر السند فى الجنوب . وفى الوقت ذاته اندفع جناح من القوات العربية الاسلامية باتجاه مصر عن طريق ساحل فلسطين وصحراء سيناء . وبعد ان تم احتلال قبرص سنة ٦٤٩ استطاع الاسطول العربى تحطيم اسطول الروم سنة ٦٥٥ ، ومن ثم استطاع ان يهاجم جزيرة صقلية وان يحاصر القسطنطينية عاصمة بيزنطة ثلاث مرات . ثم تقدمت القوات الاسلامية الميدانية فاحتلت جنوب مصر ثم ليبيا ، واسست معسكرا لها فى القيروان بتونس ، ومنه استمرت فى تقدمها فى شمال افريقيا حتى وصل قائدها عقبة بن نافع الى المحيط الاطلسى . هذا وقد استنتج فيلب هيتى — مؤرخ امريكى — فى تأليفه « تاريخ العرب » ان " الاسلام دين مندفع الى الامام . . دين متطور باطراد ، شأنه شأن النصرانية ، وليس

مثل اليهودية والبوذية القديمة . *

١ — الاسلام فى الصين فى عهد اسرتى تانغ وسونغ

دخل الاسلام الى الصين على ايدى التجار العرب وليس على ايدى القوات العربية الاسلامية . وكان تطور الاسلام فى الصين بطيئا غاية البطء ، اذ لم يثبت اقدامه فيها الا بعد مضى ٧٠٠ — ٨٠٠ سنة . مما يشير الى ان الاسلام فى الصين يبدو كأنه دين محافظ لم ينشط اتباعه فى نشر تعاليمه وسط اهالى الصين . وذلك على النقيض من مقولة فيلب هيتى .

لقد صح القول بأن دخول الاسلام الى الصين انما جسد الصداقة بين الصينيين والعرب .

يعود تاريخ الصداقة بين اهل الصين والعرب الى زمن سحيق . لما بعث تشانغ تشيان فى عهد اسرة هان (٢٠٢ ق . م — ٢٢٠ م) الى المنطقة الغربية (اى المنطقة الممتدة من حدود الصين غربا الى ساحل البحر الابيض المتوسط) فى القرن الثانى قبل الميلاد ، فتحت المواصلات بين الشرق والغرب . وكان هناك طريقان ، يدعى احدهما " طريق الحرير " ، ويمتد من تشانغآن عاصمة الصين آنذاك الى غرب آسيا . ويدعى الآخر " طريق العطور " ، ويمتد من السواحل الجنوبية الشرقية الى جزيرة العرب ومنطقة الرافدين . وكان لهذين الطريقين تأثيرات كبيرة فى التبادلات الثقافية بين الصين وبلاد العرب .

وبعد هبوط الوحى على النبى عليه السلام سنة ٦١٠ شهدت الصداقة بين الصين وبلاد العرب تطورا جديدا . فلقد قال عليه السلام : " اطلب العلم ولو فى الصين " مما عبر عن اهتمام خاتم الانبياء هذا بالحضارة الصينية العريقة ومشاعره الودية لأهل الصين .

ومع انتشار الاسلام فى مغارب العالم ومشارقه وظهور الدولة الاسلامية

العظمى توارد التجار المسلمون الى الصين برا وبحرا . ففى اوائل عهد اسرة تانغ كانت شوارع تشانغآن مزدحمة بالتجار المسلمين من العرب والفرس ، اذ كانت محلاتهم ومساكنهم تتناثر فى كافة انحاء المنطقتين التجاريتين الشرقية والغربية من المدينة . وكان من مبيعاتهم العاج وقرون الكركدن والعطور واللآلئ . وبالمقابل كانت اسواق بغداد مكتظة بالمنتجات الصينية كالحرير والاوانى الخزفية والشاى . . الخ . اما المناطق الواقعة على السواحل الصينية الجنوبية الشرقية فقد كانت مزدهرة جدا بالتجارة الخارجية ، ذلك ان كانتون (قوانغتشو اليوم) ويانغتشو وتشيوانتشو وتشاوتشو وفوتشو ومينغتشو (نينغبوه اليوم) وليانتشو (خبو اليوم) وتشينتشو وسونغجيانغ . . الخ كانت مفتوحة للتجارة الخارجية ومزدحمة بالتجار الاجانب ، وكان العرب والفرس اكثر من غيرهم عددا ومالا . اما كانتون فقد كانت مركزا لتصدير البضائع الصينية الى بلاد العرب واستيراد البضائع العربية ، كما كانت من اكثر المدن التجارية ازدهارا فى الصين . وكانت صوارى السفن التجارية القادمة من خليج العرب على سطح نهر اللؤلؤ كثيفة حتى انها تبدو كغابة من الاشجار تماما ، بينما كانت البضائع المستوردة او المعدة للتصدير على ضفاف النهر تبدو كأنها جبال .

وفى ظل تطور الاتصالات التجارية المطرد بين الصين وبلاد العرب اقيمت بين الطرفين علاقات دبلوماسية ودية . وفى ٢٥ اغسطس سنة ٦٥١ وصل الى تشانغآن مبعوث من الخليفة عثمان بن عفان (استمر فى الخلافة من سنة ٦٤٤ الى ٦٥٦) حيث قابل الامبراطور لى تشى الذى لم يكن قد مضى على حكمه الا سنة واحدة آنذاك ، واطلعه على احوال بلده واحكام الاسلام الاساسية . ومن هنا ازدادت الاتصالات الودية بين البلدين . ويفيدنا احصاء بأن الدولة الاسلامية قد ارسلت مبعوثيها الى الصين ٣٦ مرة فى غضون

١٤٧ سنة امتدت من سنة ٦٥١ م الى سنة ٧٩٨ م . من ذلك ان عهد حكم الامبراطور كاى يوان (٧١٣ — ٧٤١) وحده قد شهد مبعوثين جددا من الخلفاء الأمويين ١٠ مرات . زد على ذلك ان احد الخلفاء العباسيين كان قد ارسل قواته الى الصين بطلب من الامبراطور الصينى لى هنغ لابادة عصيان آن لو شان . وقد اسهمت هذه القوات بقسط كبير فى استعادة عاصمتى الصين الشرقية والغربية (كايفنغ وتشانغآن) جنبا الى جنب مع القوات الصينية .

وبفضل ازدياد الاتصالات الاقتصادية والتجارية بين الصين والدولة الاسلامية وتطور العلاقات الدبلوماسية والسياسية بينهما باتجاه السلام والصداقة هاجرت اعداد كبيرة من العرب والفرس المسلمين الى الصين ، واستوطنوها ، مما مضى بعلاقات الصداقة بين الطرفين شأوا بعيدا .

وكان مجئ العرب والفرس الى الصين وعودتهم الى بلادهم يستغرق سنتين على وجه العموم . وعلى الرغم من ان غالبيتهم اعتادوا العودة شتاء ، الا ان عدد الذين ظلوا فى الصين ليس بالقليل . فلقد جرت العادة على تسميتهم "تشو تانغ" (اى المقيمون فى امبراطورية تانغ الصينية) . اما العسكريون المسلمون الذين جاءوا الى الصين لابادة عصيان آن لو شان بطلب من الامبراطور الصينى لى هنغ فقد استوطنوا مدينة تشانغآن بعد ان وضعت الحرب اوزارها . وقيل بأن الامبراطور قد بنى مسجدا ليمارسوا فيه عباداتهم . وكان عدد المسلمين المقيمين فى كل من تشانغآن وكانتون ويانغتشو وجزيرة هاينان ابان حكم اسرة تانغ يربو على الف نسمة . ولما كان البلاط الامبراطورى فى عهد اسرة تانغ يعتنى بالتجار المسلمين من العرب والفرس اشد العناية ، فقد ازداد عدد الذين استوطنوا الصين منهم ، سنة بعد سنة . وكان من بينهم عدد ممن هاجروا الى الصين مع زوجاتهم واولادهم ، ومنهم عدد ممن تزوجوا بفتيات صينيات . وكان عامة الصينيين يسمون المسلمات الفارسيات المرتديات الازياء المهيبة

والمزدانات بالاقراط " بوسفو" (اى نساء فارس) ويسمون المسلمين العرب والفرس " بوسامان " (اى مسلمان باللغة الفارسية) . وجدير بالذكر ان هناك وزنا شعريا فى الصين يدعى " بوسامان " ايضا ، وهو مستعار من تسمية المسلمين آنذاك . اما اولاد الجاليات الاسلامية فى الصين فقد اطلق عليهم اسم " الغرباء المولودون محليا " . وفى السنة الرابعة (١١١٤ م) من حكم الامبراطور تشنغ خه لأسرة سونغ الشمالية ظهر فى الصين اناس يدعون " الغرباء المولودون محليا للجيل الخامس " . هذا وقد وضعت حكومة اسرة سونغ قانون وراثة خاصا بهم من اجل تسوية المشاكل الوراثية فيما بينهم . وكان من بينهم عدد ممن لم تتح لهم فرصة العودة الى موطنهم الاصلى . اما مقبرة المسلمين التى ظهرت فى مدينة تشيوانتشو فيما بعد فكانت مثواهم الاخير .

وكانت الحكومة الصينية آنذاك تحرم على الغرباء المستوطنين ان يقيموا فى المدن . ولكن برغم ذلك اقام عدد من التجار المسلمين من العرب والفرس فى المدن ، واختلطوا بأبناء قومية هان بموافقة الحكام المحليين ضمنيا . زد على ذلك ان غالبيتهم كانوا يسكنون فى ضواحى المدن على امتداد خطوط الملاحة البحرية . وكانت الاماكن المأهولة بالجاليات الاسلامية تدعى " فانفانغ " (مناطق الجاليات) التى ورد ذكرها عامة فى « رحلة سليمان السيرافى» و« روايات بينغتشو» والكتب التاريخية فى عهد اسرتى تانغ وسونغ . وعرفنا من هذه الكتب انه كان لكل " فانفانغ " شيخ مسؤول ، وهو مسلم فاضل على وجه العموم . وبعد ان ينتخب من بين التجار المسلمين كان من المفروض ان ينال موافقة البلاط الامبراطورى الصينى . وكانت اهم وظائف هذا الشيخ معالجة كافة الشؤون داخل مناطق الجاليات واستمالة التجار الاجانب الى الصين للتجارة ، بتوصية من البلاط الامبراطورى ، وتسوية النزاع بين المسلمين فى حالة عدم تدخل الحكام الصينيين فى الامر عدوما .

وقد قال سليمان السيرافى الذى زار الصين فى القرن التاسع ان قضاء شيخ منطقة الجاليات الاسلامية فى كانتون يتفق ومبادئ القرآن الكريم واحكام الاسلام . وكان فى كل " فانفانغ " دار لليتامى وسوق ومقبرة عامة الى جانب مسجد مفتوح ليل نهار ضمانا لممارسة المسلمين عباداتهم . وكان شيخ " فانفانغ " يعد زعيما سياسيا وقاضيا للمسلمين ، ويؤمهم فى الصلاة ، ويشرح لهم احكام الاسلام ، ويبتهل معهم الى الله سبحانه ان يتغمد امراء المسلمين برضوانه وغفرانه .

وكان " فانفانغ " عبارة عن شكل تنظيمى للمسلمين فى الصين فى الايام الاولى من دخول الاسلام اليها فى عهد اسرتى تانغ وسونغ . ونظرا الى ان الاسلام فى الصين كان مرتبطا آنذاك بالسياسة والاقتصاد والثقافة والعادات فان الشكل التنظيمى للجاليات الاسلامية فى الصين كان يقوم على اساس الجمع بين السياسة والدين ، شأنه شأن الشكل التنظيمى لمسلمى بلاد العرب فى العصور الوسطى . ولكن شيوخ الجاليات الاسلامية آنذاك ما كانوا ليكتسبوا شرعيتهم الا بعد موافقة البلاط الامبراطورى عليهم وتعيينه اياهم الى جانب تكلفهم بمهمة استمالة التجار الاجانب الى الصين للتجارة بتوصية من البلاط . وهذا يدل على ان الجاليات الاسلامية كانت خاضعة لحكم البلاط الامبراطورى الصينى وقيادته وراضية بتقديم الخدمات له .

٢ ـ انتشار الاسلام فى الصين ابان عهد اسرة يوان

بعد ان شن المنغول هجماتهم على " المنطقة الغربية " تدفق عدد كبير من المسلمين العرب والفرس وسائر القوميات فى آسيا الوسطى الى الصين مع القوات المنغولية .

وعلى الرغم من ان هؤلاء المسلمين القادمين الى الصين كانوا مختلفين

فى المكانات الاجتماعية والمصالح الطبقية الى جانب انتمائهم الى مختلف البلاد والقوميات ، الا انه كان لهم مصير مشترك ، تمثل فى مغادرتهم بلادهم الى الصين اضطرارا متجشمين مشقات السفر الطويل ، وذلك بعد معاناتهم من وطأة عدوان القوات المنغولية ونهبها واضطهادها . وكانوا قد يئسوا نهائيا من العودة الى ديارهم بسبب تأجج نيران الحرب المدمرة وسيطرة الارستقراطيين المنغول عليهم بالقوة الى جانب بعد المسافة بين الصين وبلادهم . ونظرا الى عدم توفر سبيل لهم للعودة من حيث اتوا لم يجدوا بدا من ان يستوطنوا الصين بصفتهم مهاجرين يقيمون هناك جيلا بعد جيل . ولذلك اعتبروا انفسهم مواطنين اصليين فى الصين (وطنهم الجديد) لا ضيوفا عليها . وهم اما اكتفوا بالمعارف العربية واما درسوا المعارف الصينية . وقد بذلوا فى ذلك كل طاقاتهم ومواهبهم . فمنذ عهد اسرة يوان لم يعتبر هؤلاء المسلمون القادمون اجانب فى الصين .

لم يكن انتشار المسلمين آنذاك مقصورا على عاصمة الصين والمدن الواقعة على خطوط المواصلات البحرية والبرية كما هو الحال فى عهد اسرتى تانغ وسونغ ، لأن المسلمين القادمين مع القوات المنغولية الى الصين اجباريا كانوا اكثر عددا من الجاليات الاسلامية السابقة ، وكانت عناصرهم الاجتماعية متنوعة جدا ، تضم تجارا وعسكريين ومدفعيين وحرفيين الى جانب العلماء والسياسيين والاعيان الموالين للحكام المنغول . وبعد ان انتظم هؤلاء المسلمون فى القوات المنغولية اسهموا فى خوض غمار الحرب من اجل الاستيلاء على الصين كلها . وانتهى بهم الامر الى ان توزعوا هنا وهناك لحماية الامن العام او لاستصلاح الاراضى البور فى نظام عسكرى . وهذا هو سر " انتشار المسلمين فى كافة انحاء البلاد ابان عهد اسرة يوان " . وبفضل انتشارهم من ادني الصين الى اقصاها بسط الاسلام اشعته على البلاد كلها فى نهاية الامر .

لم يكن ابناء الجاليات الاسلامية فى عهد اسرتى تانغ وسونغ يشتركون فى النشاطات السياسية الصينية . ولكن المسلمين الذين دخلوا الى الصين مع القوات المنغولية كانوا ادنى من المنغول واعلى من ابناء قومية هان والجنوبيين فى المكانة السياسية ، وكانوا يعاملون معاملة جيدة فى اجتياز الامتحان الامبراطورى وتولى المناصب الحكومية والخضوع للعقوبات الجنائية وامتلاك السلاح . وكان هناك عدد من المسلمين قد تولوا مناصب هامة فى الحكومة المركزية والمراكز المحلية . وتفيدنا التدوينات التاريخية لأسرة يوان بأن الدوائر الحكومية الرئيسية فى العاصمة والمناطق الاخرى كانت تخصص بعض المناصب للمسلمين ، وان عدد المسلمين الذين ارتقوا الى مراكز الوزراء وولاة المقاطعات قد بلغ ٤٩ شخصا ، الى جانب اعداد كبيرة منهم شغلوا مناصب ولاة للمحافظات . اما السيد شمس الدين واختيار الدين واحمد وماس الدين وبدر الدين وشمس الدين وغيرهم من المسلمين فقد كانوا من الساسة المعروفين آنذاك .

لم يعد الاسلام فى عهد اسرة يوان غريبا لدى الصينيين كما كان فى عهد اسرتى تانغ وسونغ . وقد اصبح موضع اهتمام لدى الحكام المنغول ، شأنه شأن البوذية والطاوية والنصرانية التى كانت تنتشر فى الصين . من ذلك ان علماء الاسلام كانوا يتمتعون بالحماية القانونية ويعفون من الضرائب واعمال السخرة . وقد تأسست دار القضاء الاسلامى فى الحكومة المركزية اول مرة قبل سنة ١٣١١ ، واعيد تأسيسها مرة اخرى فى الفترة ما بين ديسمبر ١٣١٢ واغسطس ١٣٢٨ . وخلال وجود دار القضاء هذه كان القاضى المسلم مسؤولا عن معالجة دعاوى المسلمين وتسوية النزاعات فيما بينهم . ومع ان القضاء الاسلامى كان سارى المفعول فى عهد اسرتى تانغ وسونغ ايضا ، الا انه كان يمارس فى منطقة الجاليات الاسلامية فقط . اما القضاء الاسلامى فى عهد

اسرة يوان فقد طبق على جميع المسلمين فى مختلف انحاء الصين . وكان حكام اسرة يوان يسرون كثيرا بقاضى المسلمين الذى كان من عادته ان يدعو الله سبحانه الى تمديد حكمهم . وجاء فى « تاريخ الفاتحين فى العالم » انه عندما كان جمال الدين احمد — قاضى المسلمين آنذاك — يؤم المسلمين فى اداء صلاة عيد الفطر سنة ٦٥٠ هـ (١٢٥٢ م) دعا الله الى ان يسعد الامبراطور آنذاك . ونتيجة لذلك منح كثيرا من الذهب والفضة الى جانب بضع عربات من القماش والحرير الثمين . وفى الوقت نفسه اعلن عفو عام عن معظم المجرمين فى السجون احتفالا بعيد الفطر المبارك . وكان للاسلام تأثيرات وسط الحكام المنغول . ومن ذلك ان الامير آناندا — والى تانغوو (نينغشيا اليوم) كان مسلما مخلصا ، يقرأ الذكر الحكيم ، ويتدرب على الخط العربى فى المسجد طول اليوم ، ويأمر بختن الاطفال المنغول ، وينشر الاسلام وسط العسكريين . وبفضل جهوده اسلم ١٥٠ الفا من الضباط والجنود فى نهاية المطاف .

فى عهد اسرتى تانغ وسونغ كانت المساجد فى الصين قليلة ، تنتشر فى الاماكن المأهولة بالجاليات الاسلامية فى العاصمة والمدن الساحلية فقط . اما المساجد التى تم بناؤها واعادة بنائها فى عهد اسرة يوان فقد عمت كافة انحاء الصين . ومن بينها مسجد تشنجياو المشيد على يد الشيخ علاء الدين فى عهد الامبراطور يان يو (١٣١٤ — ١٣٢٠) حسب ما ورد فى « تاريخ الامور السياحية للبحيرة الغربية » ، ومسجدان فى مدينة سيمينغ (نينغبوه اليوم) تم بناؤهما فى الفترة اللاحقة للعهد السالف الذكر حسب ما جاء فى « ملحق تاريخ سيمينغ » ، ومسجد دينغتشو المعاد بناؤه فى الفترة ما بين ١٣٤٣ — ١٣٤٥ حسب ما ورد فى « تدوينات حول اعادة بناء المسجد » بقلم يانغ شو يى ، ومسجد تشينغجينغ فى مدينة تشيوانتشو الذى تمت اعادة

بنائه على يد السيد على جين سنة ١٣٤٩ حسب ما ورد فى كتابات وو جيان المنقوشة على النصب الصخرى المقام لذكرى اعادة بنائه ، ومسجد هوايشنغ فى كانتون (قوانغتشو اليوم) الذى اعيد بناؤه على يد نه يوان تشينغ سنة ١٣٥٠ حسب ما ذكر فى كتابات قوه جيا المنقوشة على النصب الصخرى المقام لذكرى اعادة بناء المسجد ، ومسجد داتانمن ومسجد يونغنينغ فى مدينة كونمينغ بمقاطعة يوننان اللذان بنيا على يد حاكم المقاطعة السيد شمس الدين (١٢١١ — ١٢٧٩) حسب ما جاء فى « تاريخ يوننان العام » ، ومسجدان فى هالاهولين بنيا فى عهد جنكيز خان حسب ما جاء فى « سفر رو بلوك » ، ومسجد تشينغجينغ فى مدينة شيآن ، الذى شيد سنة ١٢٦٣ ، وقد تم توسيعه على يد السيد شمس الدين عمر وهو احد الحكام فى مقاطعة شنشى سنة ١٢٩٧ حسب ما ورد فى كتابات ليو شيوى المنقوشة على النصب الصخرى المقام لذكرى اعادة بناء المسجد . وجملة القول ان المساجد فى عهد اسرة يوان قد انتشرت فى جميع الاماكن شمال الصين وجنوبها .

وعلى الرغم من ان المسلمين المقيمين فى الصين فى عهد اسرة يوان كانوا من للعرب والفرس وابناء القوميات فى آسيا الوسطى على وجه العموم ، الا ان عدد ابناء المنغول وابناء تانغوو وهان الذين اهتدوا بالاسلام لم يكن بالقليل فى ذلك العهد . ويفيدنا « تاريخ الفاتحين فى العالم » ان هناك عددا من الوثنيين قد اعتنقوا الاسلام عن رضا ورغبة الى جانب عدد من الوثنيين اسلموا بعد ان اصبحوا عبيدا للمسلمين ، وعدد من ابناء الوثنيين تحولوا الى مسلمين بعد ان شبوا وترعرعوا فى حظيرة الاسلام . ولا تفوتنا الاشارة الى ان معظم الوثنيين واولادهم المذكورين آنفا هم من ابناء هان .

ووفقا لما سبق ذكره يجوز لنا القول بأن عدد مسلمى الصين فى عهد اسرة يوان قد ازداد اضعافا مضاعفة ، وان الاسلام قد دخل مرحلة متصاعدة

فى الصين . فقد تدفق المزيد من المسلمين اليها دون ان يكون لذلك اية علاقة بالفتوحات العسكرية .

الفصل الثالث

انتشار الاسلام فى شينجيانغ.

ان مسألة دخول الاسلام الى الصين مرتبطة بتاريخ ١٠ قوميات فى الصين . اما المقولات الخاصة بالمسلمين الصينيين كما سلف ذكرها فغالبا ما يرددها المؤرخون الصينيون . ولكنها لا تنطبق الا على احوال المسلمين من ابناء قومية هوى المنتشرين فى مختلف انحاء الصين . ولما كان لقومية هوى علاقة استثنائية بالاسلام ، فان التركيز على دراسة اسلامها هو على جانب عظيم من الاهمية فى دراسة اسلام سائر الاقليات القومية الصينية . وقد استنتج المؤرخون عبر دراساتهم ان اسلاف قوميات دونغشيانغ وسالار وباوآن كانوا اما من المسلمين القادمين من آسيا الوسطى مع القوات المنغولية واما من المنغول الذين اعتنقوا الاسلام . ولكن تاريخ اسلام قومية هوى لا يعنى تاريخ اسلام الاقليات القومية الصينية الاخرى . لذلك فان تاريخ اقليات شينجيانغ القومية المتمثلة فى قومية الويغور هو جزء هام من تاريخ الاسلام فى الصين كلها . ومعنى ذلك انه لا يجوز اهمال تاريخ اسلام قوميات شينجيانغ عند دراستنا تاريخ الاسلام فى الصين كلها .

١ – متى دخل الاسلام الى شينجيانغ ؟

لقد سبق لأسلاف قومية الويغور ان اعتنقوا السامانية والمانوية والنسطورية

والزرادشتية والبوذية . ولكن البوذية اصبحت ديانة سائدة فى منطقة شينجيانغ بعد ان حلت محل سائر الديانات فى قاوتسانغ وقانتشو وقويتسى ويويديان . وفى عهد مملكة قراخان ، او بالأحرى فى اواخر القرن العاشر واوائل القرن الحادى عشر ، دخل الاسلام الى منطقة كاشغر اول ما دخل ، ثم انتشر الى يارقند وخوديان . وقد ظلت هذه المناطق الثلاث تحت سيطرة المسلمين فى الفترة ما بين تأسيس مملكة لياو الغربية فى القرن الثانى عشر واستيلاء نايمانتشيو تشوليو على السلطة فى اوائل القرن الثالث عشر دون ان تطرأ اية تغيرات عليها . وفى الوقت ذاته انتشرت القوى الاسلامية من الغرب الى الشرق ، اى من كاشغر وخوديان الى آكسو وكوتشار وغيرهما من الاماكن ، الامر الذى شكل منطقة اسلامية واسعة تمتد من جيمسار شرقا الى كاشغر غربا . وفى القرن الثالث عشر والقرن الرابع عشر ظهر عدد كبير من المسلمين فى اورومتشى وتوربان وقرا ، وهم يمثلون نسبة عظمى من السكان المحليين . وفى اوائل القرن الخامس عشر اهتدى امير قرا بالاسلام وسمى نفسه " حسن " . . وفى الثلاثينات من نفس القرن اسلم بعض الحكام المنغول فى هامى . زد على ذلك ان حكام بلاط مملكة توربان اصبحوا مسلمين يوحدون الله ويكبرونه فى اواخر القرن الخامس عشر . وفى اوائل القرن السادس عشر لقب " بيا " — حاكم هامى — نفسه " السلطان " اقتداء بـ " هالى " الذى كان حاكما لنفس المملكة من سنة ١٤٣٩ الى سنة ١٤٥٧ ، مما اشار بأنه من المؤمنين بالله . وكان لاسلام هؤلاء الحكام تأثير كبير فى اعتناق الويغوريين المحليين للاسلام . ويفيدنا تاريخ شينجيانغ ان الاسلام قد عم المدن كلها فى شمال جبال تيانشان وجنوبها فى عهد اسرة مينغ (١٣٦٨ — ١٦٤٤) . اما فى اوائل عهد اسرة تشينغ فقد اصبحت شينجيانغ الجنوبية عالما اسلاميا خاضعا لـ " حكومة هوى " (هوى : اصطلاح اطلق على المسلمين فى الصين بصورة عامة) . وعلى

الرغم من ان شينجيانغ الشمالية قد كثر فيها المسلمون الا انها كانت خاضعة " لحكومة تشونقار" التى نسبت الى اسم رئيسها . وبعد ان اطاح الامبراطور تشيان لونغ (١٧٣٦ — ١٧٩٥) بحكم تشونقار اسس ولايات ومحافظات وخصص بعض العسكريين لاستصلاح الاراضى البور هناك ، ونقل حكومة هوى الى شمال شينجيانغ . وهذا ما جعل الاسلام يثبت اقدامه هناك فى نهاية المطاف . وفى اوائل القرن العشرين صارت معظم اجزاء شينجيانغ الشمالية مأهولة بالمسلمين ايضا . وصفوة القول ان انتشار الاسلام وتطوره فى شينجيانغ قد استغرق ٧ — ٨ قرون من القرن العاشر الى القرن الثامن عشر .

٢ — كيف انتشر الاسلام فى شينجيانغ ؟

لقد تم انتشار الاسلام فى شينجيانغ بطريقتين سلمية وعسكرية . وغالبا ما كان ذلك يجرى مع تأجج نيران الحرب الدينية الشديدة لا سيما فى بادئ الامر .

من بين اهالى شينجيانغ قومية كانت تدعى " هويخه " او " هويهو" فى قديم الزمان ، وهى تحمل اسم الويغور حاليا . وفى سنة ٨٤٠ على وجه التقريب ظهرت الاضطرابات الداخلية فى صفوف ابناء هذه القومية بصورة متعاقبة نتيجة لانحلال المجتمع الاقتصادى الرعوى . وانتهازا لهذه الفرصة شن اهل جيقاس الهجمات عليهم ، مما اجبرهم على الانتقال من حوض نهر آرهون الى جهة الجنوب الغربى حيث انتظموا فى ثلاث جماعات : وقد انتقلت الجماعة الاولى منهم الى الجنوب حتى استوطنوا ممر " خشى" . وقد جرت العادة على تسميتهم " هويخه — خشى" . وتوجهت الجماعة الثانية منهم الى الغرب ، وانتهى بهم الامر الى الاستقرار بمنطقة قاوتسانغ فى شينجيانغ اليوم ، واطلق عليهم اسم " هويخه — شيتشو" . اما الجماعة

الثالثة منهم فقد هاجروا الى منطقة كاشغر وجنوب نهر تشو فى آسيا الوسطى ، واسسوا فى الفترة ما بين القرن العاشر والقرن الثانى عشر مملكة جبارة تدعى " قراخان " ، وهى تشمل مدينة باراشايان ودالوس وغودالاى وختشونغ الى جانب كاشغر ويويديان وكلاكونلون فى شينجيانغ اليوم .

وكان شاتوك بوراخان اول من اسلم من حكام مملكة قراخان الهويخهية . وكان لاسلامه روايات مختلفة : قيل انه رأى فى حداثته جماعة من التجار المسلمين يعبدون الله تعالى ، فسألهم عن اهمية عبادتهم . ولما اعطوه جوابا مقنعا اعتنق الاسلام سرا . وبعد ان توفى عمه ملك المملكة حل محله . فلم يكتف باجهار اسلامه ، بل دعا كل رعاياه الى الدين الحنيف . وهناك رواية اخرى تقول : فى سنة ٩٣٢ م (سنة ٣٢٠ هـ) جاء شيخ يدعى عبد الناصر السمانى الى مملكة قراخان لنشر الاسلام حيث اقنع اميرا فى المملكة (وكان مستعجلا فى انتزاع السلطة من يدى عمه) بالموعظة الحسنة ، مما جعله يسلم فى نهاية الامر . ولما اعتلى هذا الامير المسلم عرشه لقب نفسه بالسلطان شاتوك بوراخان . وقد دفن الشيخ عبد الناصر السمانى فى الركن الشمالى من مقبرة السلطان آتوش بعد وفاته هناك . وكان مثواه الاخير موضع احترام لدى المحليين . ومع ان هاتين الروايتين مختلفتان الا انهما تدلان معا على ان شاتوك بوراخان قد اعتنق الاسلام عن رضى وقناعة دون ان يجبره احد على ذلك ابدا . وبعد اسلام هذا الملك اسلم رعاياه مقتدين به . وفى الوقت نفسه نشبت سلسلة من المعارك بينه وبين خصومه .

وقيل ان اول فصيلة من فصائل المسلمين التى نظمها شاتوك بوراخان قد هزمت عمه المشرك فى كاشغر وقتلته ، مما جعل الاسلام يحرز اول انتصار له فى مملكة قراخان .

لقد ابتدأ شاتوك بوراخان الحروب الدينية التى تأججت نيرانها فى جنوب

جبال تيانشان علىة قرون ، ذلك انه اول من دعا الويغوريين الى الاسلام . ونظرا الى انه قد جاهد فى سبيل الله فقد ارسى اساسا لعدول الويغوريين عن البوذية الى الاسلام فى نهاية المطاف . وهذا يبيح لنا القول بأنه ليس اول ويغورى مسلم فحسب بل انه اول من قام بنشر الاسلام بين ابناء قوميته .

وبعد وفاة شاتوك بوراخان اعتلى ابنه موسى وحفيده ابو حسن العرش على التوالى . وقد جاهد كلاهما فى مسبيل الله ، شأنهما شأن شاتوك بوراخان تماما . وكان ابو حسن مغوارا فى القتال طوال حياته بدافع من حماسته المتناهية للاسلام . ففى الفترة ما بين سنتى ٩٩١ — ٩٩٢ تم له انجاز اعظم الفتوح فى تاريخ مملكة قراخان . من ذلك انه استولى على بخارى وسمرقند ، مما جعل ابناء اسرة قراخان يدخلون فى السجلات التاريخية لآسيا الوسطى بصفتهم حكاما لها . وفى سنة ٩٩٦ انزل ابو حسن الهزيمة بقوات يويديان ، واستعاد مدينة كاشغر التى احتلها البوذيون . وفى سنة ٩٩٨ تحدى ابو حسن البوذيين فى يويديان ، وحاول نشر الاسلام بين الناس بالقوة . ولكن جهوده هذه لم تتكلل بالنجاح . وكان ابو حسن يرفع راية الاسلام عاليا فى الحروب الدينية ، شأنه شأن جده تماما . وانتهى به الامر الى ان استشهد فى ساحة الشرف على مقربة من انجيشا . وعندها سقطت كاشغر فى ايدى قوات يويديان .

واخيرا هزم يوسف قادر خان — وهو ابن آلون بن عم ابى حسن — قوات يويديان ، مما وضع حدا للحرب الدينية التى امتدت عشرات السنين . ذلك انه ما ان اعتلى عرشه حتى صمم على تنظيم جحافل من القوات المسلحة تحت راية الاسلام لخوض غمار حرب مستميتة ضد قوات يويديان البوذية . وكان يصبو الى الحصول على دعم من ائمة الشيعة الاربعة فى المدائن . وسرعان ما تم تنظيم الجحافل المطلوبة سنة ٩٩٩ ، وقد تكونت من ١٤٠ الف مسلم من بغداد وخوارزم وغيرهما من المناطق . ولم يمض على احاطة هذه الجحافل

بمدينة كاشغر الا وقت قصير حتى استعادتها . وعقب ذلك مباشرة زحفت هذه الجحافل الى مدينة يويديان التى كانت اهم مركز بوذى جنوب جبال تيانشان ، واستولت عليها سنة ١٠٠٦ ، ومنذ ذلك الحين ثبت الاسلام اقدامه بقوة السلاح فى جنوب جبال تيانشان الصينية على بعد آلاف الكيلومترات من جزيرة العرب . وقد اصبحت هذه المنطقة خاضعة للحكم الاسلامى بعد ان كانت معروفة بصفتها ثانى موطن للبوذية . وفى ظل ذلك دمرت المعابد والاصنام والمنشآت البوذية الاخرى هناك تدميرا جذريا . وفى الوقت نفسه بادر الويغوريون القاطنون فى المنطقة الممتدة من كاشغر ويارقند الى خوديان الى الدخول فى الاسلام بعد ان ارتدوا عن البوذية التى كانوا يعتنقونها جيلا بعد جيل .

وهناك دليل على ان انتشار القوى الاسلامية الى توربان قد تم مع تأجج نيران الحرب . فان « موسوعة الاسلام » المطبوعة سنة ١٩٣٤ تفيدنا " بأن جيزر خوجه خان من منغولستان قد شن الهجمات على قرا وتوربان — وهما مدينتان هامتان جدا على الحدود الصينية الشمالية الغربية — مما اجبر السكان المحليين على قبول الاسلام . ومنذ تلك الفترة اعتبرت هاتان المدينتان من العالم الاسلامى . "

الفصل الرابع

مزايا دخول الاسلام الى الصين

١ — دخل الاسلام الى الصين برا وبحرا ، ذلك ان المسلمين الوافدين

اليها فى عهد اسرتى تانغ وسونغ (٦١٨ — ١٢٧٩) غالبا ما كانوا يركبون البحر ، ولكن انتقال المزيد من المسلمين الى الصين تم فى عهد اسرة يوان (١٢٧١ — ١٣٦٨) . ودخول الاسلام الى شينجيانغ كان بطريق البر مبدئيا ، علما ان دخول الاسلام الى البلدان الاخرى كان يتم اما برا واما بحرا .

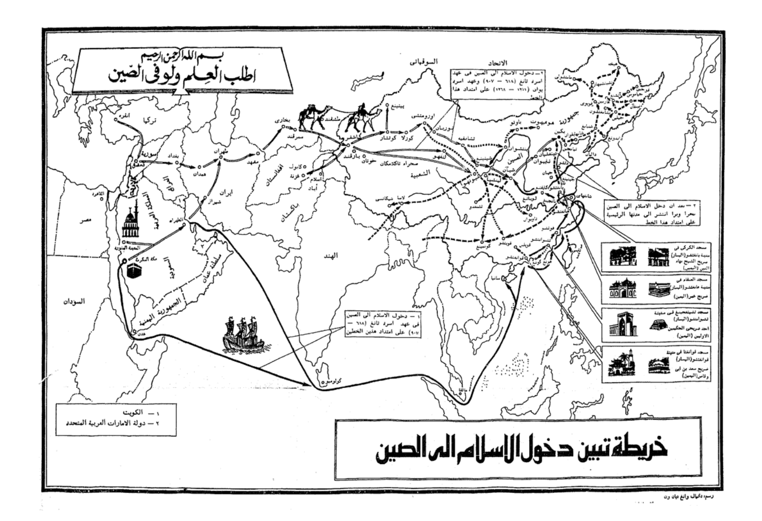
٢ — كان انتشار الاسلام فى الصين يجرى سلميا فى اغلب الاحيان وعسكريا فى قليل من الاحيان ، فقد تم اسلام بعض اجزاء شينجيانغ فى وقت مبكر بعد هزم المشركين عسكريا . ولكن انتشاره فى بقية اجزاء الصين قد تم سلميا . وتمثل ذلك فى ناحيتين : احداهما دخول الاسلام الى الصين بفضل قدوم التجار العرب اليها فى عهد اسرتى تانغ وسونغ ، وهجرة المسلمين فى آسيا الوسطى اليها واستيطانهم فيها وتناسلهم هناك جيلا بعد جيل وتأصلهم فى تربتها فى اسرة يوان . والناحية الاخرى هى دخول اعداد كبيرة من المنغول واهل تانغوو وابناء هان وهويخه فى الاسلام بدافع من تأثيراته القوية ، مما زاد من ازدهاره وتطوره فى الصين . لذا فان دخول الاسلام الى الصين سلميا وتناسل المسلمين فيها واهتداء المشركين المحليين بالاسلام يختلف عن انتشار الاسلام فى جزيرة العرب وفارس وآسيا الوسطى اختلافا تاما .

٣ — ان دخول الاسلام الى الصين لم يتم دفعة واحدة . من ذلك ان دخوله الى شينجيانغ قد امتد من القرن العاشر الى القرن الثامن عشر ، وان دخوله الى بقية اجزاء الصين قد امتد من القرن السابع الى القرن الرابع عشر . وهذا يعنى ان دخول الاسلام الى شينجيانغ قد استغرق ٧ — ٨ قرون ، وكذلك الحال بالنسبة لدخوله الى مناطق اخرى من الصين ، ويدل ذلك على ان الاسلام لم يتطور فى الصين بسرعة الا بعد غزو المنغول المناطق الغربية وتأسيسهم اسرة يوان . وقد اختلف الاسلام فى الصين عنه فى بعض البلدان

التى دخل ابناؤها فى دين الله افواجا بعد ان فتحتها القوات الاسلامية .

٤ ــ تعتبر البوذية والاسلام من الديانات المنقولة الى الصين ، ولكن ما ان دخلت البوذية الى الصين حتى حظيت باهتمام شديد من الحكام الصينيين خلافا للاسلام الذى انتشر فى الصين منذ عهد اسرة تانغ دون ان يلقى اهتماما مماثلا منهم باستثناء ما حظى به من الاهتمام فى شينجيانغ . وعلى الرغم من ان المسلمين فى عهد اسرة يوان كانوا يذكرون فى الوثائق الرسمية مع البوذيين والطاويين والكونفوشيين على قدم المساواة ، الا ان السبب فى ذلك يعود الى ان نوابغ المسلمين آنذاك كانوا قد رفعوا من شأن الاسلام الى حد ما ، ورفعوا من المكانة الاجتماعية لعامة المسلمين ايضا . ولما كان المسلمون الاكفاء فى الشؤون العسكرية والسياسية والاقتصادية والثقافية قد اعانوا المنغول معاونة قوية فى توحيد اجزاء الصين وممارسة الحكم عليها ، فقد تم تعيينهم فى مراكز هامة . ولكن تعيينهم على هذا النحو ليس له علاقة بعقيدتهم الدينية . والحقيقة ان ما كان الحكام المنغول يفضلونه هو البوذية وليس الاسلام .

لم يسبق للمسلمين الصينيين فى البداية ــ ما عدا المسلمين فى شينجيانغ ــ ان قاموا بتبليغ الاسلام الى غير المسلمين . زد على ذلك انهم لم يكونوا يتنافسون مع سائر الديانات ولا يهاجمون الكونفوشية بصورة خاصة . ولذلك فان الكونفوشيين والطاويين والبوذيين فى الصين كانوا لا يعرفون ماهية الاسلام ولا يحقدون عليه ايضا . ومع ان تطور الاسلام فى الصين كان بطيئا الا انه تم بهدوء . ففى الفترة ما بين عهد اسرة تانغ وعهد اسرة مينغ كان هناك جماعة ينقدون الطاوية وجماعة ثانية يبعدون البوذية وجماعة ثالثة يضايقون الكاثوليكية ، لكن الاسلام لم يتعرض للهجوم والنقد الشديدين كما تعرضت لهما سائر الديانات .



بسم الله الرحمن الرحيم
اطلب العلم ولو فى الصين
٢ — دخول الاسلام الى الصين فى عهد اسرة تانغ (٦١٨ — ٩٠٧) وعهد اسرة يوان (١٢٧١ — ١٣٦٨) على امتداد هذا الخط
٣ — بعد ان دخل الاسلام الى الصين بحراً وبرا انتشر الى مدنها الرئيسية على امتداد هذا الخط
مسجد الكركى فى مدينة يانغتشو (اليسار) ضريح الشيخ بهاء الدين (اليمين)
مسجد العنقاء فى مدينة هانغتشو (اليسار) ضريح عمر (اليمين)
مسجد تشيتغجينغ فى مدينة تشوانتشو (اليسار) احد ضريحى الحكيمين الاولين (اليمين)
مسجد قوانغتا فى مدينة قوانغتشو (اليسار) ضريح سعد بن ابى وقاص (اليمين)
١ — دخول الاسلام الى الصين فى عهد اسرة تانغ (٦١٨ — ٩٠٧) على امتداد هذين الخطين
١ — الكويت
٢ — دولة الامارات العربية المتحدة
خريطة تبين دخول الاسلام الى الصين
الاتحاد
السوفياتى
تركيا
سورية
العراق
ايران
افغانستان
باكستان
الهند
مصر
السودان
المملكة العربية السعودية
الجمهورية اليمنية
سلطنة عمان
الصين
الشعبية
مكة المكرمة
المدينة المنورة
بغداد
طهران
سمرقند
بخارى
كاشغر
كولومبو

فهذه المزايا الخاصة بدخول الاسلام الى الصين تختلف عن مزايا انتشاره فى جزيرة العرب وفارس وآسيا الوسطى ، كما تختلف عن مزايا انتشار البوذية والطاوية فى الصين .

الباب الثانى
المساجد فى الصين

الفصل الاول
تسمية المساجد فى الصين

المسجد بيت الله ، يقيم فيه المسلمون صلواتهم الخمس كل يوم . وكان الصينيون يطلقون عليه اسماء مختلفة ، من ضمنها اسم " لى تانغ" الذى ورد ذكره فى كتاب دو هوان تحت عنوان « جينغ شينغ جى» كالآتى : " فى بلاد الداشى (اى الدولة الاسلامية) ' لى تانغ ' وهو يستوعب ١٠ آلاف شخص . ومن عادة الملك (اى الخليفة) ان يتوجه اليه حيث يصلى ويعتلى المنبر لشرح الاحكام على الملأ " . اما المؤرخ اويانغ شيو فى عهد اسرة سونغ الشمالية (٩٦٠ – ١١٢٧) فقد اطلق نفس الاسم على المسجد فى كتابه : « تاريخ الداشى من سجلات تانغ» . ولكن الآخرين فى زمانه سموا المسجد " تسى تانغ" (قاعة التقديس) او " لى باى تانغ" (قاعة الصلاة) . وفى عهد اسرتى يوان ومينغ (١٢٧١ – ١٣٦٨) ظهرت فى الصين اعداد كبيرة من المساجد تحمل اسماء مختلفة مثل " هوايشنغ" (الحنين الى النبى) او " قوانغتا " (المنارة) او " شيتسى " (الاسد) فى قوانغتشو ، و" الاصحاب" او " تشينغجينغ" او " تشيلين " فى تشيوانتشو ،

و" تشنجياو" (الدين الحق) او " تشنغجياو" (الدين الحنيف) او "فنغهوانغ" (العنقاء) فى هانغتشو ، و" رويفو" او " شيلاى" (القدوم من الغرب) او " شيانخه" (الكركى) او " لى باى" (الصلاة) فى يانغتشـو ، و" تشينغجياو" (الدين الصافى) و" تشينغشيو" (التهذيب بهدوء) و"تشنجياو" (الدين الحق) فى شيآن ، و" جينغجيويه" (النظافة واليقظة) فى نانجينغ ، و" يوشو" (العمر المديد للجميع) و" فامينغ" (الشريعة البينة) فى بكين . وبالاضافة الى ذلك كان هناك عدد من غير المسلمين يسمون المسجد " هويهويتانغ" (قاعة هوى هوى) او " هويجياوتانغ" (قاعة الاسلام) او " هويهويسى" (متعبد هوى هوى) . . الخ . ولكن المسلمين فى بعض الاماكن يفضلون تسمية المسجد بـ " لى باى سى" (المصلى) مثل " لى باى سى" فى دينغتشو بمقاطعة خبى ، و" لى باى سى" فى شارع نيوجيه ببكين ، و" لى باى سى" فى شارع سانشان بنانجينغ ، و" لى باى سى" بالناحية الشرقية فى محافظة هويشيان من مقاطعة قانسو . . الخ .

اما مسجد دونغسى فى بكين فقد بنى فى الفترة ما بين السنة الثانية عشرة والثالثة عشرة (١٤٤٧ – ١٤٤٨) من حكم الامبراطور تشو تشى تشن لأسرة مينغ . وعرفنا من « رقيم بناء المسجد الامبراطورى» الذى دبجه تشن شيون بين عامى ١٤٥٠ – ١٤٥٧ ان " المسجد كان يحمل اسم ' لى باى سى ' (المصلى) . . . وبعد ان تم بناؤه انعم عليه بلوح مكتوب عليه بـ ' تشينغ تشن سى ' (اى متعبد الصفاء والحق) " . وكان لهذا اللوح الامبراطورى تأثير كبير بين المسلمين . فهم لم يكتفوا باتخاذ " تشينغ تشن" (اى الصفاء والحق) كلمة مرادفة للاسلام بل جعلوا من " تشينغ تشن سى" اصطلاحا للمسجد . واغلب الظن ان هذه النزعة نشأت فى بكين عاصمة الصين فى عهد اسرة مينغ . اما " رقيم مسجد فامينغ ببكين" الذى يعود تاريخه

الى سنة ١٥٧٩ فقد ذكر " تشينغ – تشن " ثلاث مرات . و" رقيم اعادة بناء مسجد سانليخه ببكين " الذى كتبه شى سان وى سنة ١٦٢٤ قد جاء فيه ما يلى : " ان تسمية المسجد بـ' تشينغ تشن ' تعنى ' النظافة ' و' الحق ' ، وان دمج ' لى باى ' (الصلاة) فى ' تشينغ تشن ' يعنى ' الدعوة الى التقوى' . . . بعد انتشار الاسلام فى الصين على يد السيد الصحابى سعد ابن ابى وقاص ظهرت فيها مساجد تدعى ' لى باى تشينغ تشن سى' (مصلى الصفاء والحق) . " واثر ذلك سمى المسجد بـ " تشينغ تشن سى" و" لى باى سى" فى آن واحد . واصبحت هاتان التسميتان مقبولتين لدى عامة المسلمين بالتدريج . ومنذ عهد اسرة تشينغ غلب ان يسمى المسجد بـ " تشينغ تشن سى" فى حين ان سائر التسميات قل استخدامها تدريجيا .

لقد كانت "تشينغ تشن" فى لغة هان تدل على معنى " النظافة " و" الحق " او " النقاوة " و" الاخلاص " . وكان هناك عدد من الشعراء فى عهد اسرتى تانغ وسونغ (٦١٨ – ١٢٧٩) يستخدمونها فى اعمالهم . من ذلك ان الشاعر المفلق لى باى فى عهد اسرة تانغ وصف فى اشعاره الصالحين بـ " تشينغ تشن " اكثر من مرة ، بينما كان لو يو احد فحول الشعراء فى عهد اسرة سونغ يمجد ازهار البرقوق الاحمر بـ " تشينغ تشن " . زد على ذلك ان الشاعر تشو بانغ يان فى عهد اسرة سونغ الشمالية كان يحب " تشينغ تشن " حبا شديدا جعله يسمى ديوان شعره بها . ولكن اسم ديوان شعره هذا قد تغير الى اسم « بيانيوى» (شريحة اليشم) على يد الشاعر ليو سو فى عهد اسرة سونغ الجنوبية (١١٢٧ – ١٢٧٩) . وما يدعو الى العجب ان تسمية الديوان على هذا النحو تحمل معنى النقاوة والاخلاص ايضا . وجدير بالذكر انه كان هناك معابد طاوية ويهودية فى الصين تحمل هذا الاسم . وجملة القول ان المسلمين الصينيين قد استفادوا من هذه الكلمة بل استأثروا بها

واضافوا اليها مضمونا جديدا فى نهاية الامر . وفيما كان علماء الاسلام من قومية هوى فى اواخر عهد اسرة مينغ واوائل عهد اسرة تشينغ يشرحون "تشينغ تشن" قالوا بأن "تشينغ" (الصفاء) يشار بها الى ان الله سبحانه لا تشوبه شائبة ابدا ، وانه غير مستقر فى مكان محدد ، وانه الاول والآخر . بينما يشار بكلمة "تشن" (الحق) الى ان "الله احد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا احد" . ولم يكتفوا بذلك بل رأوا ان "تشينغ" (الصفاء او الطهارة) تحمل معنى "القدوس" ، وان "تشن" (الحق) تحمل معنى "الحق" مستنتجين ان هاتين الكلمتين من اسماء الله الحسنى فى الاصل . اما الشيخ ما ليانغ جيرن (١٨٦٧ – ١٩٥٧) الذى كان اعظم امام من قومية هوى فى شينجيانغ فقد شرح "تشينغ تشن" قائلا : "ان 'تشينغ' تحمل معنى 'النظيف' ، وان 'تشن' تحمل معنى 'الخالى من ايما شائبة'" . وقد تبين لنا ان شرح "تشينغ تشن" على هذا النحو او ذاك ما هو الا مدلول حرفى لهما . ولكن نسبهما الى الاسلام هو انعكاس لفهم المسلمين الصينيين لمبادئه .

اما كلمة "سى" فقد ظهرت الى حيز الوجود منذ قديم الزمان ، اذ ذكرت كلمتا "سى رن" (رجال البلاط الامبراطورى) حتى فى «تشريفات تشو»* و«ديوان الشعر» . ولما كان هؤلاء الموظفون يشرفون على ابتعاد زوجات الاباطرة ومحظياتهم عن النواهى ، فقد سمى الخصيان فى البلاط بـ "سى رن" ايضا . وفى القرن الثالث والثانى قبل الميلاد اصبحت كلمة "سى" مرادفة لـ "قوان شو" (الديوان الحكومى) . ونعرف من الجزء الثالث لـ «موسوعة

* كتاب كونفوشى من شأنه تسليط الضوء على النظام الحكومى لأسرة تشو (القرن الحادى عشر الى سنة ٧٧١ ق . م) وانظمة الممالك المتحاربة (٤٧٥–٢٢١ق . م) حسب وجهات النظر الكونفوشية .

المفردات» " ان ' سى ' يقصد بها ' الديوان الحكومى ' او ' الهيئة المكلفة بتنفيذ القوانين ' " كما نعرف من « كتاب هان » انه " ما من مكان اتخذ مقرا للحكومة الا سمى بـ ' سى ' " . وفى الايام الاولى من دخول الاسلام الى الصين كان الصينيون يطلقون على المعابد فى اغلب الاحيان اسم " تانغ " (القاعات) . ولكن كلمة " سى " قد حلت محل " تانغ " بالتدريج منذ استيلاء المنغول على مقاليد السلطة فى الصين سنة ١٢٧١ . وان كلمة " سى " (المعبد) من " تشينغ تشن سى " كلمة مقتبسة من الديانات الاخرى .

ان هذه التسمية فى الواقع تختلف اختلافا كبيرا عن كلمة " المسجد " . لأن " المسجد " هو " المتعبد " بمعناه الحرفى ، غير ان " تشينغ تشن سى " تحمل معانى اوسع واكثر . لذلك يجوز لنا القول بأن هذه التسمية ذات ميزة خاصة بالصين .

الفصل الثانى
مهمات المساجد فى الصين

يشير المسلمون الصينيون بكلمة " الجماعة " الى المسجد فى بعض الاحيان ، ذلك ان كل مسجد فى نظرهم مركز لجماعة من المسلمين . ونعرف من هذا ان المساجد فى الصين ليست مجرد مواقع مفضلة للعابدين ، بل هى مجالات لنشاطاتهم الاجتماعية المتنوعة . والحقيقة ان المسلمين الذين يسكنون حول كل مسجد فى الصين يشكلون جماعة دينية واهلية مستقلة بصورة طبيعية . ويسمى هذا النوع من الجماعات بـ " جياوفانغ " (الطائفة الدينية) :

معنى ذلك ان كلمة " الجماعة " اصبحت مرادفة لكلمة " المسجد " فى الصين .

وللمساجد فى الصين مهمات متعددة .

لا يخفى على احد ان المسجد بيت الله الذى يقيم فيه المسلمون صلواتهم الخمس اليومية وصلاة الجمعة وصلاة العيدين المباركين (من الملاحظ انه من بين المسلمين الصينيين عدد ممن يقيمون صلواتهم اليومية فى بيوتهم او فى اماكن اخرى بسبب بعد مساكنهم عن المساجد مثلا . ولكن لا تفوتهم فرصة اداء صلاة الجمعة وصلاة العيدين فى المساجد ابدا) . ولكل مسجد فى الصين مبان كثيرة اهمها قاعة الصلاة ، ولكنها غالبا لا تستوعب المصلين فى العيدين . فتمتد صفوف المصلين الى فناء المسجد بل الى الشوارع احيانا .

ولكل مسجد فى الصين دورة مياه للوضوء والغسل .

ومن عادة امام كل مسجد ان يلقى محاضرات دينية (الوعوظ او المواعظ الحسنة) على المسلمين فى شهر رمضان وايام الجمعة والعيدين المباركين وعيد ميلاد النبى عليه السلام ، مما يتيح لهم معرفة محتويات الآيات القرآنية والاحاديث النبوية واحكام الدين والفقه وسيرة النبى عليه السلام وقصص الانبياء الآخرين .. الخ .

ومنذ اواخر اسرة مينغ ظهرت فى بعض المساجد فى الصين مدارس دينية يتعلم فيها الطلاب المسلمون (يسمون " الخلفاء " او " الملات " فى الصين) اللغة العربية واللغة الفارسية والقرآن الكريم وتفاسير الذكر الحكيم والحديث واحكام الاسلام والفقه وتاريخ الاسلام وعلوم الدين الاخرى من ائمة المساجد . ويصبحون بذلك ائمة جددا بعد تخرجهم فيها . وكان هؤلاء الطلاب يسكنون ويتعلمون ويصلون فى المساجد ، فلا نبالغ اذا قلنا بأن المساجد هى مهود لرجال الدين .

وبالاضافة الى ذلك كان هناك عدد من المساجد قد افتتحت فيها كتاتيب قبل التحرير لقبول اولاد المسلمين الفقراء او المسلمين الاميين الكهول لتعليمهم المعارف الثقافية الابجدية والمعارف الدينية . ولكن المواد الدراسية فى هذه الكتاتيب كانت تختلف عما فى المدارس الدينية المذكورة . اما قبل ولادة الصين الجديدة وبعدها فقد اسست اعداد من مساجد بكين مدارس نظامية كانت تدرس فيها اللغة العربية والمعارف الاسلامية ، ولكن اهم موادها الدراسية هى اللغة الصينية والحساب والجغرافيا والتاريخ وعلم الطبيعة وغيره من الكتب المصدقة من وزارة التربية والتعليم . وكان بين هذا النوع من المدارس فى بكين مدرسة " مو تشن " (حق المسلمين) و" مو هوى" (ضياء المسلمين) و" مو آن " (سلامة المسلمين) و" مو ده " (ادب المسلمين) . . الخ .

ومن عادة المساجد فى الصين ان تقدم خدمات للمسلمين فى اقامة حفلات الزفاف وتشييع الموتى وذبح الدواجن والابقار والاغنام . فهناك كثير من المسلمين يقيمون حفل الزفاف فى المساجد لكى يقرأ الامام " خطبة النكاح" ويسجلها على الملأ ويبتهل الى الله سبحانه ان يسعد العروسين . واذا مات احد من المسلمين توجب على اقربائه الذهاب الى المسجد لنقل حوض الميت والتابوت الى بيته . واثر ذلك يأتى مغسل الى جوار الميت لغسله وتكفينه ، ثم ينقل الى النعش لكى يصلى عليه المشيعون ، يؤمهم امام المسجد . ثم يجرى تشييع الميت الى المقبرة لدفنه . وجدير بالذكر ان ائمة المساجد فى الصين غالبا ما يتكلفون بمهمة كتابة بعض الادعية العربية على قطع من القماش الابيض حسب طلب ذوى الميت لكى تعلق على جدران القبر وسقفه . ومن عادة المسلمين فى المناطق الداخلية من الصين ان يأتوا بدواجنهم واغنامهم الى المساجد ليذبحها الذباحون المحترفون هناك بدلا من ان يذبحوها بأنفسهم .

اما الاغنام والابقار التى يشتريها المسلمون للتضحية بها فى عيد الاضحى فلا بد لامام المسجد من ان يذبحها . وبعد تقسيم لحوم هذه الابقار والاغنام الى قطع صغيرة يجرى توزيعها على مستحقيها .

هذا وان عددا كبيرا من المساجد تشتمل على القبور ، ففى مسجد نيوجيه ببكين قبران للشيخين احمد البرتانى المتوفى سنة ١٢٨٠ وعماد الدين المتوفى سنة ١٢٨٣ ، وهما من علماء العرب المسلمين الذين جاءوا الى الصين لنشر الاسلام . وفى مسجد فوتشو قبر " هولوبوهوا " الذى كان من كبار الموظفين فى مقاطعة فوجيان . زد على ذلك ان عددا من المقابر صارت مواقع للمساجد ومنها مقبرة بهاء الدين فى يانغتشو ، ومقبرة سانليخه ببكين (مقبرة شادنغ بابا ووانغ داى يوى ولا تا لى وما فو لو وما فو شيانغ) ، وكذلك حال سائر المقابر كمقبرة بابا فى محافظة لانغتشونغ بمقاطعة سيتشوان والمقبرة ذات القبة الكبيرة فى لينشيا بمقاطعة قانسو ومقبرة السلطان آترشيبو قراخان ومقبرة الخوجة آباك فى كاشغر من منطقة شينجيانغ . . الخ . ولا تفوتنا الاشارة الى ان المسلمين غالبا ما يستقدمون الائمة الى قبور اعزائهم فى ايام ذكراهم لكى يقرأوا لهم الآيات القرآنية او يطلبوا من الائمة ان يقرأوها فى قاعة الصلاة ، ويسألوا الله تعالى ان يتغمدهم بغفرانه ورضوانه . وهناك عدد من المسلمين يذهبون فى ايام ذكرى اعزائهم الى المساجد حيث يقيمون حفلات ذكروية يستمعون خلالها الى المواعظ الحسنة من الائمة .

وعادة ما تخصص المساجد بعض المبانى لاسكان الائمة ورجال الدين الآخرين وافراد عائلاتهم ، مما يمكنهم من معالجة الشؤون الدينية الروتينية عن كثب . وفى عداد هذه الشؤون عقد الاجتماعات للتناقش حول ترميم المبانى وافتتاح المدارس والاستعداد لقضاء الاعياد ، الى جانب التوسط بين المتخاصمين ومساعدة المرضى من المسلمين على الاستطباب والدعاء لهم بالسلامة والشفاء . . الخ .

وللمسلمين الصينيين تقاليد فى ممارسة الرياضة البدنية باتخاذ المساجد مجالات لها . فيمكن للمرء ان يجد المساجد فى المدن والريف وخاصة فى مقاطعة شاندونغ تغص بالرياضيين المسلمين الذين يمارسون الملاكمة لتقوية ابدانهم . والطريف انه من بين المدربين الرياضيين هناك ائمة محترمون ومبجلون الى جانب المتقين من عامة المسلمين .

وقد اتخذت اعداد من المساجد الصينية مراكز قيادة لتعبئة وتنظيم المسلمين فى معارضة الاسر الاقطاعية ، ومصانع ومخازن للاعتدة الحربية . كما انبثق من ائمة المساجد عدد من القادة العسكريين الذين كانوا يقودون المسلمين فى الانتفاضة ضد الحكم الاقطاعى . وكان هؤلاء الائمة افضل قادة فى تنظيم صفوف المسلمين ضد الاعداء بفضل هوياتهم الاستثنائية وتأثيراتهم السامية وسطهم .

وتعتبر المساجد فى بعض المناطق الصينية اماكن لاستقبال الضيوف . ومن عادة الصائمين والصائمات فى مقاطعة سيتشوان ان يفطروا فى المساجد القريبة من مساكنهم بصورة جماعية . اما طعام الافطار كل يوم فيعدونه على نحو متناوب . والطريف ان كل ربة بيت غالبا ما يسرها ان تطبخ الطعام بنفسها . وهناك جماعة من المسلمين يدعون — بتوصية من اقربائهم — مسلمين آخرين الى الافطار فى المسجد ، وذلك على حساب صندوق عامة المسلمين .

وصفوة القول ان مهمات المساجد الصينية متنوعة ومتعددة . فهى ليست مجرد مراكز لنشاطات المسلمين الدينية بل مراكز لنشاطاتهم السياسية والاقتصادية والثقافية والتعليمية والرياضية والاجتماعية ايضا ، وهذا طبعا من مزايا المساجد الصينية .

الفصل الثالث
مبانى المساجد فى الصين

يبلغ عدد المساجد فى الصين اليوم اكثر من ٢٤٠٠٠ مسجد ، وهى تختلف فى اشكالها المعمارية وتركيباتها واساليبها الفنية باختلاف مواقعها وتاريخ بنائها .

وتنقسم مساجد الصين الى نزعين تقريبا . يشار بنوعها الاول الى المساجد الخشبية الهياكل والمبنية بالاسلوب المعمارى الصينى التقليدى ، ويشار بنوعها الثانى الى المساجد الاسلامية الطراز التى يتجلى فيها بوضوح كل من الشكل والاسلوب المعماريين العربيين . ولكن المساجد الصينية — ايا كان نوعها — هى شاهد عيان على الاتصالات الودية والتبادلات الثقافية الطويلة الامد بين الصين وبلاد العرب .

١ — المساجد المبنية بالاسلوب المعمارى الصينى التقليدى

ان اغلبية المساجد المبنية بهذا الاسلوب قد تم بناؤها او اعيد بناؤها فى عهد اسرة يوان وخاصة فى عهد اسرتى مينغ وتشينغ (١٣٦٨ — ١٩١١) . وهذه المساجد تتميز بالسمات المعمارية الصينية الواضحة ، وقد شهدت تطورا كبيرا فى عهد اسرة تشينغ ، كما تكامل اسلوبها فى هذا العهد بالذات .

اذن ، فما هى مزايا المساجد الصينية الطراز ؟

(١) يبدو هذا النوع من المساجد على شكل "سيخيوان" (اى دار مربعة تحيط بها المبانى من كل الجهات ويتوسطها فناء) فى توزع مبانيها عموما . ولكن هناك كثيرا من المساجد ينقسم كل منها الى دارين او ثلاث او اربع دور متلاصقة ، يربطها خط محورى طولا ، وتفصلها

للمباني عرضا ، مما يشكل مجموعة كاملة من الترتيبات الفراغية . ولكل دار من هذه الدور وظيفتها وميزتها الفنية . فلو مشيت من مدخل هذا النوع من المساجد الى الداخل ، لانتابك شعور بأن المناظر المحيطة بك تتجدد مع كل خطوة تخطوها ، وتظهر روعة الاسلوب الفنى المعمارى لهذا المسجد من مختلف الزوايا .

ومن المعروف ان جامع هواجيويه فى مدينة شيآن بمقاطعة شنشى هو النموذج الفريد من نوعه . فهذا الجامع يبدو على شكل مستطيل ، ويبلغ طوله من الشرق الى الغرب ٦٨ر٢٤٥ م ، وعرضه من الجنوب الى الشمال ٥٦ر٤٧ م ، ويغطى مساحة قدرها ٥٤ر١١٦٨٤ م . وينقسم هذا الجامع الى ٤ مجموعات ، وهى فى حد ذاتها ٤ دور مربعة ، تتوزع فيها انواع شتى من المبانى ، ويخترقها خط محورى وهمى ممتد من اوسط الحاجز الطوبى القائم فى شرق الجامع الاقصى الى محرابه . وعلى امتداد هذا الخط المحورى من الشرق الى الغرب قوس خشبى وممر مسقوف خماسى الفسحات (الفسحة هى المسافة بين كل عمودين) وقوس صخرى وممر مسقوف (تم بناؤه بأمر امبراطورى) ومئذنة وممر مسقوف ومقصورة تدعى "العنقاء" ورصيف وقاعة للصلاة . وعلى جانبى الخط المحورى كثير من المبانى ، من ضمنها اقواس وجواسق صخرية وقاعات جنوبية وشمالية وغيرها من المبانى الاضافية . وتتجلى روعة هذا الجامع فى تناسق مبانيه وتوزعها على نحو معقول الى جانب التناسب بين مبانى الجامع وبين رحابه الفسيحة . وجملة القول ان اجزاء الجامع كله تظهر فى غاية الروعة والانسجام ، وتبدو كأنها المناظر الجميلة فى الرسوم الصينية القديمة .

اما مبانى مسجد دونغسى ببكين ومسجد لاونانمن فى دالى بمقاطعة يوننان ومسجد تشينيانغ الشمالى بمقاطعة خنان ومسجد شوشيان بمقاطعة آنهوى

ومسجد تشنغتشو ومساجد مدينتى جينينغ وجينان وغيرها ، فتتوزع توزعا متناسبا هى الاخرى ، شأنها شأن جامع هواجيويه فى مدينة شيآن . وتبدو المساجد المبنية بالاسلوب المعمارى الصينى التقليدى اكثر مهابة وقداسة وجمالا وضخامة ووقارا بفضل تعدد رحابها ، وتوزع مبانيها المتناسب ، وتنوع اشكالها الفنية . ونعرف من ذلك ان الفن المعمارى الصينى التقليدى اشد ما يركز على ابراز جمال المبانى من كل النواحى .

(٢) تعرف المساجد الصينية الطراز من بواباتها ومآذنها ومن قاعات الصلاة فيها .

لقد كانت بوابات المساجد فى الصين معقودة الشكل فى بداية الامر ، ولكنها اخذت تقل بعد ان حلت محلها البوابات الصينية الشكل منذ عهد اسرة مينغ .

واستلهاما من موقع مدخلى معبد كونفوشيوس * بنى مدخلان شمال وجنوب المبانى الجملونية الشكل والطوبية السقف لجامع هواجيويه على شرق جدارى داره المربعة الاولى . ويرى على العتبة العليا للمدخل الشمالى اربعة مقاطع صينية : "تشينغ تشن دا سى" (الجامع الاسلامى) دون ان ترى اى زخرفة الى جانبها .

اما مسجد مدينة بوتو فى مقاطعة خبى فتواجه بوابته الشرق وامامها قطعتان من الصخور معدتان للصعود الى ظهور الخيول . وعلى جانبيها سوران شمالى وجنوبى على شكل ٨ وهما مبنيان من القطع الطوبية العادية ، ويرى الى ايمن السور الشمالى وايسر نظيره الجنوبى مدخلان جانبيان . ولهذه البوابة مصراعان قرمزيا اللون ودقاقات معدنية . وعلى سطحها سقف شديد الانحدار الى الجانبين ،

---

* كونفوشيوس (٥٥١ — ٤٧٩ ق . م) مفكر وسياسى وعالم تربوى ومؤسس الكونفوشية .

ومزخرف بخمس تسنيمات وستة حيوانات طوبية . وقد بنيت هذه البوابة الجملونية الشكل على شكل بوابة "الهاجرة" للقصر الامبراطورى .

ولقد كانت بوابة مسجد دونغسي بيكين عبارة عن مبنى طوبى ثلاثى الفسحات لا تتجلى للاعين هياكلها الخشبية ابدا ، وعلى كل من جانبى هذه البوابة مدخل للمرور فى الايام المعتادة . وامام هذا المسجد ٤ اشجار خرنوب كالتى تظهر امام المعابد البوذية فى الصين .

لقد بنيت هياكل بوابة الجامع الشرقى فى مدينة جينينغ من الخشب . ويبلغ طولها ٣ فسحات ، وعرضها ٥ روافد ، وسقفها من طراز "شيشان" * مكسو بالقرميد المزجج الاخضر ومزخرف بالحواشى الطوبية الصفراء وبالتسنيمة البادية على شكل تنين راكض ، مما يجعلها فى غاية التألق مثل معبد كونفوشيوس فى تشيويفو تماما . وامام هذه البوابة مبنيان ، احدهما باب من الدرابزينات ، والآخر قوس معروف باسم "القمرين" ، وقد بنى فى عهد الامبراطور كانغ شى (١٦٦١ — ١٧٢٠) . وعلى العتبة العليا لبوابة المسجد لافتة يرجع تاريخها الى عهد اسرة مينغ . وامام هذه البوابة قطعتان من الصخور وعلى جانبيها سوران زخرفيان شمالى وجنوبى على شكل ٨ ، واعاليهما مزخرفة بالقرميد المزجج الاخضر ، وهى تشكل مع القوس الصخرى الابيض مقارنة فريدة تسر الناظرين سرورا كبيرا .

ولا تخلو مقاطعة قانسو ومناطق جنوب غربى الصين من المساجد التى يتراوح عرض بوابة كل منها بين ٣ و ٥ فسحات ، وتتكون هياكلها من الخشب . وغالبا ما ترى على هذا النوع من البوابات ابراج ثلاثية الطوابق من التركيبات الخشبية . وهناك كثير من البوابات المزخرفة بالاقواس الخشبية

---

* نوع من سقوف المبانى الصينية الطراز ، ويتكون من ٤ اجزاء منحدرة مقسمة الى عدد متساو من التسنيمات المنحدرة ، وعلى اعاليه تسنيمة افقية .

القائمة على دعائم واجهاتها وبالاسوار البادية على شكل " ٨ " .. الخ .
وهذه البوابات تلعب دور المدخل وعلامة المسجد والمئذنة فى آن واحد .
وهى بوابات صينية الطراز مائة بالمائة ، اذ ليس لها مثيل ابدا فى بقية اجزاء العالم .

وفى فترة من الفترات حلت المآذن الخشبية التركيبات على شكل المقصورات الصينية الطراز محل المآذن العربية الطراز .

ولو دخلت الى الفناء الخلفى لمسجد شارع التحرير فى مدينة لانتشو عاصمة مقاطعة قانسو ، للفتت نظرك مئذنة ضخمة بديعة الهندسة ، وهى مبنى زخرفى من النقوش الطوبية ينتصب بخيلاء بين بوابة المسجد وقاعة الصلاة . وتتكون هذه المئذنة من ٤ طوابق . والطريف ان طابقها الارضى الذى هو فى حد ذاته ممر الى داخل المسجد يبدو على شكل مربع ، ولكن طوابقها الاخرى تبدو على شكل سداسى الاضلاع خلافا للمبانى البوذية والطاوية التى غالبا ما تبدو على شكل ثمانى الاضلاع . ولهذه المئذنة ميزتها الخاصة فى التركيب المعمارى . ويتمثل ذلك فى ان ما يربط بين طوابقها ليس الا ست دعائم خشبية بما فيها ٤ دعائم متدلية من فوق الى تحت . (يعتبر ذلك من ابداع المعماريين المسلمين فى الصين) واشد ما يدعو الى الاعجاب هو ان طابق المئذنة الاعلى خال من الدعائم العادية ، بل يقوم على ٦ دعائم مكونة من مربعات خشبية متراكمة ومزخرفة ، فى اعاليها ثلاث طبقات من " دو ــ قونغ " * (لا يوجد هذا النوع من التركيبات الا فى مدينة لانتشو

* يشار بكلمة " قونغ " الى المركبات الخشبية الهلالية الشكل بين اعالى الدعائم والعوارض ، وبكلمة " دو " الى المربعات الخشبية فيما بين المركبات الخشبية السالفة الذكر . وعادة ما تذكر " دو " و " قونغ " فى آن واحد . وهما يزيدان من جمال المبانى ، ويؤديان كذلك الى وقايتها من اذى الرياح .

فقط) . وحول هذه المئذنة درابزينات ، علما ان هناك جناحين متعاليين ، يمتد احدهما من واجهة الطابق الثالث والآخر من خلفه عبر الدرابزينات . وقد تأثر هذا الشكل المعمارى ببعض المعابد والاديرة فى عهد مملكة لياو (٩٠٦ — ١١٢٧) او اخذ من «مواصفات الهندسة المعمارية» المتبعة فى عهد اسرة سونغ . وفى مركز كل طابق من طوابق المئذنة كوة سداسية محاطة بالدرابزينات ، مما يتيح للمرء ان ينظر من طابق الى طابق آخر . زد على ذلك ان درابزينات المئذنة الداخلية تنسجم مع مثيلاتها الخارجية ، مما يزيد من جمالها الى حد بعيد .

وترى المآذن المماثلة للمئذنة المذكورة فى مسجد نيوجيه ببكين وجامع هواجيويه بشيآن ومسجد تشنغتشو بمقاطعة خنان وجامع جينينغ الغربى بمقاطعة شاندونغ ومسجد هويهويدون بمنطقة ويشان من مقاطعة يوننان ومسجد شارع قولو فى تشنغدو بمقاطعة سيتشوان ومسجد هوتسيجيه فى تيانشوى بمقاطعة قانسو ومسجد لاووانغ ومسجد دومو فى لينشيا من نفس المقاطعة . وتتجلى مزايا هذا النوع من المآذن فى ضخامة بنائها ومتانة تركيباتها الخشبية وبساطة اشكالها "الدو — قونغية" ، مما يجعلها تختلف عن المبانى المحيطة بها اختلافا تاما ، وتترك اثرها فى التناسق بين سائر المبانى .

اما المبانى الرئيسية فى المساجد الموجودة فى مناطق الصين الداخلية فعادة ما تتكون من ثلاثة اجزاء : قاعة الصلاة والقاعة الامامية الشبيهة بالسقيفة والقاعة الخلفية . وهذه المبانى ذات السقوف الجملونية مرتبط بعضها ببعض ، مما يشكل مجموعة كاملة من المبانى المتموجة . وهناك قاعة صلاة يبدو مسقطها الهندسى على شكل مستطيل . . وقاعة صلاة يبدو مسقطها الهندسى على شكل صليب او شكل "凸" او شكل "工" . . الخ . اما القاعات الخلفية فغالبا ما تبنى من الطوب والخشب معا بدلا من ان تكون مبانى طوبية

مقببة . ولا تفوتنا الاشارة الى ان هذا النوع من القاعات يختلف بعضها عن بعض من حيث اشكالها . ومنها قاعات ذات تسنيمات صليبية الشكل احادية الافريز او مزدوجة الافاريز او متعددة الافاريز ، وقاعات ذات تسنيمات تمتاز بها المقصورات المتنوعة .

ان المبنى الرئيسى الجملونى السقف لجامع جينينغ الغربى فى مقاطعة شاندونغ هو الاكبر من نوعه فى الصين . وهو فاخر جدا من حيث زخارفه بل يكاد يماثل قاعة تايخه للقصر الامبراطورى ببكين من حيث ضخامته . وينقسم هذا المبنى الى ٤ اجزاء : القاعة الواجهية والقاعة الامامية والقاعة الوسطى والقاعة الخلفية . ويبلغ عرض القاعة الواجهية ٣ فسحات . وما ينتصب فى مقدمة المبنى هو السقيفة وما يتلوها هو القاعة الامامية المبنية سنة ١٦٥٤ ، البالغ عرضها ٥ فسحات وطولها حوالى ٣٠ قدما ، والمميزة بالافريز الاحادى المكون من " دو — قونغ " وبالتسنيمة المخروطية الشكل . اما القاعة الوسطى المبنية سنة ١٦٨١ فيبلغ عرضها ٧ فسحات وطولها حوالى ٣٠ قدما ، وتتميز بالافاريز المزدوجة المكونة من " دو — قونغ " ، وبالسقف الجملونى الشكل . وتختلف هذه القاعة عن القاعة الامامية بسعة عرضها وتعدد افاريزها ، مما يشير الى انها اهم من نظيرتها الامامية . واما القاعة الخلفية المبنية فى عهد الامبراطور تشيان لونغ (١٧٣٦ — ١٧٩٥) فيبلغ عرضها ٥ فسحات ، وتحاط بالدرابزينات من ثلاث جهات ، وتتميز بالافاريز المزدوجة والسقف الجملونى الشكل . وجدير بالذكر ان هذه القاعة اكثر ارتفاعا من القاعة الوسطى من حيث اساساتها وافاريزها الى جانب حظوتها بالدرابزينات من ٣ جهات دون سواها مما يقدم دليلا على انها اهم من نظيرتها الوسطى . ويبدو مسقط هذا المبنى الهندسى على شكل مستطيل . وبارتباط هذه القاعات بعضها ببعض تشكل مجموعة كاملة من المبانى المتنوعة شكلا واهمية .

ويعتبر ذلك من النماذج المعمارية الناجحة .

ومنذ عهد اسرة مينغ استفيد من " اسلوب الوصل المعماري" في بناء المساجد الكبيرة الحجم للمسلمين من قومية هوى . وقد اصبح هذا " الاسلوب" نموذجا لمساجدهم . ويقصد بـ " اسلوب الوصل المعماري" وصل اكثر من قاعتين جملونيتي السقف في كيان واحد . ومواقع الوصلة فيما بين القاعات تلعب دور المزاريب التي من شأنها صرف مياه المطر الى جهتين . وبفضل ظهور " اسلوب الوصل المعماري" الى حيز الوجود يجد المرء مرونة قصوى في توسيع مساحة قاعات الصلاة حسب مقتضيات الحال . فاذا اصبحت قاعة الصلاة لا تستوعب المصلين امكن توسيع بنائها او بناء قاعة اخرى بجانبها ، وربط احداهما بالاخرى . ولذلك فان قاعات الصلاة غالبا ما تبدو على شكل مستطيل ضيق عرضا وعميق طولا . وهذا هو سر تنوع اشكال قاعات الصلاة في المساجد الصينية .

ان " اسلوب الوصل المعماري" خاص بقاعات الصلاة في المساجد الصينية الطراز دون سواها . ولا يخفى على احد ان المساجد تخلو من التماثيل ، فيكفي المسلمين ان يولوا وجوههم في صلاتهم الى الكعبة المشرفة في مكة المكرمة ، ولذلك فان قاعات الصلاة في المساجد الصينية غالبا ما تبدو مستطيلة شرقية غربية . والدليل على ذلك ان قاعة الصلاة في جامع هواجيويه تبلغ ٩ فسحات (٣٨٫٥٣م) طولا و٧ فسحات (٣٢٫٩٥م) عرضا . اما المعابد المبنية على الاسلوب المعماري التقليدي فيتعادل عرضها مع ارتفاعها ، ولذلك فان طولها قليل في اغلب الاحيان ، خلافا لقاعات الصلاة في المساجد الصينية بسبب استفادتها من اسلوب الوصل المعماري الذي ابتدعه المعماريون من المسلمين الصينيين واكملوه خلال مئات السنين ، وهو يحتل مكانة هامة في تاريخ الفن المعماري الصيني الكلاسيكي .

وبالاضافة الى اسلوب الوصل المعمارى السالف الذكر تتميز قاعات الصلاة فى المساجد الصينية الطراز عادة بالهياكل الخشبية الضخمة ، وتزخرف بالتسنيمات السقفية وتركيبات "دو — قونغ" ، وفى ذلك اختلاف واضح عن المساجد العربية الطراز . فقاعة صلاة مسجد لاونانمن فى دالى بمقاطعة يوننان من نماذج قاعات الصلاة الصينية الطراز . وترى على افاريز واجهات القاعة تركيبات خشبية ممتدة اجزاؤها السفلى الى الداخل وملتوية فصوصها بعض الشىء ، فهى من تركيبات "دو — قونغ" الخشبية المتبقية من عهد أسرة مينغ . وعلى الرغم من ان مدخل القاعة منخفض الا انك تفاجأ حين تجوز الى الداخل بضخامة البناء . وبما ان الدعائم والعوارض المستعملة فى القاعة مرتبة ومستقيمة ومتينة ، فان سطحها مستو تمام الاستواء تقريبا . ولكن زوايا القاعة الاربع مرتفعة الى الاعلى بمقدار ٣ر٥ امتار بسبب تراكم العوارض الخشبية السميكة تحتها . ومن جراء ذلك تظهر مقعرات عميقة فيما بين زوايا سطح القاعة المكسو بالقرميد العادى والمزخرف بالتسنيمة المزججة . اما جملونا القاعة فهما عبارة عن تركيبات زخرفية من القرميد المزجج . وصفوة القول ان قاعة الصلاة هذه هى نموذج المبانى الاسلامية الصينية المميزة بالسمة القومية .

(٣) تعتبر الزخارف المعمارية المتنوعة التى هى مزيج من المزايا الصينية والعربية جزءا هاما من الفن المعمارى لمساجد الصين وميزة من مزايا المبانى الاسلامية . فهناك كثير من المساجد الصينية تجمع بين الزخارف المعمارية الاسلامية ومثيلاتها الصينية التقليدية على خير وجه ، ذلك انها تركز على ابراز المزايا الاسلامية فى حالة مراعاة مزايا المبانى الصينية الطراز ، وتستفيد من الوسائل الزخرفية الصينية التقليدية بصورة تامة فى الاتيان بالنتائج الزخرفية المميزة بالسمات الاسلامية .

وهناك كثير من المساجد الصينية عرفت بفن رسومها الملونة ، ومنها ان محاريب جامع هواجيويه فى شيآن والمسجد القديم فى تاييوان والمسجد الكبير فى جينينغ بمقاطعة شاندونغ ومسجد دونغسى ومسجد نيوجيه ومسجد تونغشيان فى بكين تبدو فى غاية البهجة والروعة . وعموما تجد للرسوم الخضراء والزرقاء شائعة فى مساجد شمال الصين ، والرسوم للزاهية الالوان سائدة فى مساجد جنوبها للغربى ، والرسوم الزرقاء والخضراء والمنقطة بالذهب مفضلة فى مساجد شمالها الغربى . وهذه الرسوم — مهما كان لونها — تظل من الرسومات الصينية التقليدية دون شك . وجدير بالذكر ان للميزة المشتركة للرسوم المستعملة فى المساجد الصينية تتمثل فى انها اما من رسوم النباتات واما من الرسوم الهندسية او من الزخارف المكونة من الكتابات العربية ، وتخلو من صور اى من الاحياء . ويعتبر ذلك من مزايا الفن الزخرفى الاسلامى فى الصين .

اما قاعة صلاة جامع هواجيويه فى شيآن فهى الفريدة من نوعها فى المناطق الداخلية من حيث زخرفتها المعمارية . ويتكون سقف هذه القاعة من اكثر من ٦٠٠ مربع خشبى ، يزخرف كل منها بالرسوم الحمراء والذهبية اللون فى ارضيته الخضراء ، ولهذه المربعات الخشبية اطارات خضراء ذات حواش حمراء . زد على ذلك ان ما نراه فى وسط كل مربع من هذه المربعات وزواياه الاربع هو رسوم مكونة من الكتابات العربية الذهبية اللون ، ولكل رسم من هذه الرسوم الكتابية ميزة خاصة به ، مما يشكل اسلوبا زخرفيا تنفرد به المساجد الصينية الكلاسيكية الطراز . ولكن اشد ما يلفت النظر هو محراب القاعة البادى على شكل عقد مخمس والمزخرف بالكتابات العربية والرسوم الهندسية داخله وبالنقوش الخشبية الاشعاعية خارجه ، وهناك علاوة على ذلك عمودان ينتصبان امام المحراب ، وهما مزينان بالكتابات العربية الذهبية

اللون فى ارضيتهما الحمراء الى جانب الرسوم الملونة على مربعات العمودين الخشبية وقوس المحراب ودلاته الخشبية . وتبدو كل هذه الزخارف الفنية كستار مطرز جميل . وتتجلى روعة زخارف هذا المحراب فى اشتمالها على الرسوم الصينية التقليدية الى جانب اتخاذ الرسوم الاسلامية اساسا لها . وهذا ما جعل المحراب مميزا بالسمة الصينية . ومما يستحق الذكر بصورة خاصة ان فى ايمن المحراب وايسره غرفتين مزخرفتين برسوم ازهار اللوطس والاقحوان المتوزعة فى الفراغات المتناسقة على اختلاف احجامها ، مما يحدث فى نفوس الناظرين شعورا بالتباين بين الرسومات المتناسقة والتشابه بين الرسومات المختلفة . وتعد هذه الزخارف باختصار من الفن المزخرفى التقليدى الصينى البحت بمرونة اشكالها وكثرة شاعريتها وانسيابية خطوطها وضبطها ووضوح تركيباتها وعمق مضموناتها . وعلى الرغم من ان الرسوم على المحراب تختلف عن مثيلاتها على جدران الغرفتين المجاورتين له من حيث اساليبها ، الا انها تنسجم معها انسجاما تاما ، مما يشكل مجموعة كاملة من رسوم ذهبية اللون على ارضية قرمزية اللون ، فيزداد المحراب كله بهجة ورونقا .

وهناك مساجد غير مزخرفة برسوم ملونة ، وهى تسر الناظرين ببساطة تركيباتها المعمارية واصالة الوان موادها المعمارية ، منها مسجد هونغشويتشيوان فى محافظة هوانغتشونغ بمقاطعة تشينغهاى ومسجد شيتشويشان بمنطقة نينغشيا ومساجد اخرى فى لينشيا ولينتان بمقاطعة قانسو . ولكن مثل هذه المساجد غالبا ما تتميز بنقوشها الخشبية والطوبية الرائعة .

وهناك مساجد (مثل مسجد آنتشينغ بمقاطعة آنهوى) لا تزخرف قاعات الصلاة فيها بالنقوش الجميلة فحسب بل ترى على اعمدتها ذات الارضية الذهبية نقوش من الكتابات العربية ، وهذه الكتابات على كل عمودين تبدو

على شكل دوبيت * مكتوب بالمقاطع الصينية ، مما يزيد قاعات الصلاة هيبة وزهوا .

وتجدر الاشارة الى ان مسجد هوتغشويتشيوان فى محافظة هوانغتشونغ بمقاطعة تشينغهاى معروفة بروعة نقوشه الطوبية . اذ ان النقوش الطوبية على جدران واجهة قاعة الصلاة والجدارين على شكل ٨ والستار الزخرفى فى هذا المسجد هى الفريدة من نوعها فى الصين كلها ، وان النقوش الزخرفية على جدارى بوابة المسجد على شكل ٨ والستار الزخرفى المواجه للبوابة تحدث معا فى النفوس شعورا بالجمال . ومما يستحق الذكر ان وجه الستار الزخرفى المذكور اعلاه مكون من نقوش طوبية بادية على شكل كرات مطرزة سداسية الاضلاع شبيهة بالازهار الزاهية الالوان ، وهى تشرح الصدور وتبهر العيون بنقوشها الجميلة تحت اشعة الشمس المتوهجة . ويعتقد بأن هذه النقوش الطوبية الفريدة هى فى حد ذاتها تجسيد لمواهب المسلمين الصينيين .

اما الزخارف الخشبية الصغيرة الحجم فى هذا المسجد نفسه فهى فى غاية الروعة ايضا ، ومن بينها نوافذ شعريات مسدسة شبكية الشكل على مئذنته ونقوش على ابواب الشعريات فى قاعة الصلاة . كما تتجلى روعة مقصورة محراب المسجد فى ان جدرانها الداخلية مكسوة بطبقة من الالواح الخشبية ، وهى تنقسم الى جزأين علوى وسفلى . ويبدو الجزء العلوى على شكل برج سماوى مزخرف ، تحيط به الدرابزينات وابواب الشعريات و" دو — قونغ" الذى يتصل بالسقف الغائر . ويتزين الجزء السفلى بستار زخرفى على شكل باب الشعريات ، وفى صدره نقوش لمناظر طبيعية وازهار ، وفى بقية اجزائه نقوش لكلمة " شو" (العمر المديد) بالاضافة الى نقوش اخرى .

* الدوبيت : مقطع شعرى مؤلف من بيتين .

وعلى حافات المحراب نقوش من الاعشاب . وتصور النقوش على قمته دوحة جميلة ، فى داخلها رسوم الاعشاب والازهار المتصلة بمثيلاتها على حافات المحراب . والطريف ان الجدران فوق المحراب وعلى جانبيه الايسر والايمن تخلو من النقوش ، وهى مكسوة بألواح خشبية ملساء لابراز جمال النقوش على المحراب . ولا تفوتنا الاشارة الى ان هذه النقوش الخشبية تحتفظ بلونها الاصفر الاصلى دون ان تطلى مجددا . فتبدو فرائد فنية عجيبة ، كأنها من قبيل الآثار التاريخية الانيقة .

وثمة مساجد تفتخر بنقوشها الصخرية الرائعة : فلو ذهبت الى جامع جينينغ الشرقى فى مقاطعة شاندونغ لأعجبتك النقوش الصخرية الرائعة هناك ، وهى تشتمل على رسوم منقوشة على الطبول والدعامات الصخرية وقواعدها . وعلى الحاجز الصخرى فى هذا المسجد نقوش تمثل " تنينين يلهوان بلؤلؤة " وحيوانات اخرى ، وكل هذه النقوش تبدو كأنها حية تماما . وفضلا عن ذلك تعد القراميد الزجاجية السداسية الاضلاع على جدارين على شكل ٨ وقواعد الدعامات السوميزوية (وهى كلمة سنسكريتية) من روائع النقوش الصخرية . وجدير بالذكر ان فى هذا الجامع قوسا صخريا يدعى " قوس القمرين " ، ويقوم على ٤ دعامات مشكلا ٣ ممرات . وقد بنى هذا القوس الصخرى سنة ١٧٠٠ ، وهو ينتصب بشموخ بين سياج الجامع وبوابته . وقد نقشت على عتبته العليا كلمتان : " دون هوا " (توعية) وهما قويتا الخطوط دقيقتا النحت فى آن واحد . وبالاضافة الى ذلك تظهر على بدن القوس نقوش اسود واغنام وحيوانات خرافية وجبال وانهار وازهار واعشاب وسحاب ، كما تظهر على قمته قارورة صخرية مزخرفة بمنظر " الشمس فوق سحابة " فى جانب وبمنظر " الهلال فوق سحابة " فى جانب آخر ، مما يحدث فى نفوس الناظرين شعورا بتفاعل السكنات والحركات وبرؤية

الكون كله دفعة واحدة . ويشكل هذا القوس الناصع البياض مع القراميد الخضراء على الجدارين على شكل ٨ مشهدا متباينا رائعا .

ومعروف ان المبانى الاسلامية لا يجوز زخرفتها بصور الحيوان . وغالبية المساجد الصينية لم تخالف هذا المبدأ . لذلك فان التسنيمات و" داون " * والتماثيل الحيوانية وغيرها من المركبات المعمارية المستعملة عادة فى البناء غالبا ما تصنع بالخطوط النباتية بدلا منها فى بناء المساجد ، وكذلك الرسوم والنقوش الخشبية والطوبية والصخرية فيها ، مما حطم تقاليد الزخرفة بالصور الحيوانية على المبانى الكلاسيكية الطراز ، واغنى محتويات زخارف هذا النوع من المبانى . لكن قلة قليلة من المساجد فى الصين قد زخرفت مركباتها المعمارية بصور التنانين والعنقاوات والحيوانات نتيجة لتأثرها بالفن الزخرفى الصينى التقليدى . هذا وان بعض المساجد فى الصين يحمل اسم العنقاء او الكركى او الاسد او تشيلين (حيوان خرافى) ، وهذا امر خارق للمألوف .

(٤) ولأغلبية المساجد الصينية الطراز افنية مميزة بالسمات الحياتية القوية ، وهى انعكاس لنزعة المسلمين الصينيين المتمثلة فى التركيز على الحياة الواقعية . وهناك كثير من المساجد فيها اشجار وازهار ومباخر واحواض اسماك وانصاب صخرية ولافتات وتلال اصطناعية وقناطر مطلة على جداول رقراقة المياه . . الخ . ولو تمشيت فى حرم هذا النوع من المساجد فى اوقات فراغك من العبادات ، لوجدت نفسك فى نشوة من السرور بما يمتع نظرك من المناظر الجميلة هناك .

ويعد فناء جامع هواجيويه فى مدينة شيآن الاجمل من نوعه فى الصين . واشد ما يثير الاعجاب هناك هو مقصورة العنقاء القائمة فى مركز فناء الدار

---

* تبدو " داون " على شكل كماشة ، وهى نوع من المركبات المعمارية تستعمل فى تقوية وتجميل طرفى تسنيمة السقف الرئيسية .

الرابعة من الجامع . وتتكون هذه المقصورة من ثلاثة اجزاء : مقصورة رئيسية سداسية الاضلاع ومقصورتين جانبيتين ثلاثيتي الاضلاع ، وهي تشكل مجموعة كاملة من المباني على شكل قوس خشبي من الطراز الصيني التقليدي ، وتظهر في صورة عنقاء ناشرة الجناحين ان نظرت اليها من بعد . وهذه المقصورة الفريدة في هندستها تزيد من جمال البيئة المحيطة بها . ولو ذهبت من هذه المقصورة باتجاه الغرب ، لوجدت ممرا مؤديا الى المصطبة يبلغ طوله نحو عشرة امتار ، وعلى كلا جانبيه سور من البلاط ، ويرى وراء كل سور من السورين بركة اسماك على شكل كرزة يبلغ عمقها حوالى مترين ، وتنتصب في قلب كلتا البركتين تلة صخرية اصطناعية بارتفاع ٤ امتار تقريبا . وتدعى التلة الجنوبية " تشاوبون " ونظيرتها الشمالية " ياويويه " . اما الممر الذى سبق ذكره فيبدو كأنه جسر متسامق على بركتي الاسماك بفضل وجود نفق يربطهما من تحته . ولو توقفت على هذا الممر لأمكنك ان تسمع خرير المياه المنسابة من القمتين وسط البركتين مما يوحي الى نفسك بأنك في ارض طاهرة لا تشوبها اية شائبة ، هادئة لا يسمع فيها طنين ولا رنين . فلا غرو ان المسلمين هناك غالبا ما يبقون في الجامع بعد انتهاء الصلاة او بعد لعب " وشو " للتمتع بمناظرها الجميلة .

(٥) على الرغم من ان مباني المساجد في الصين متنوعة وتشمل المزايا المعمارية الصينية ، الا انها تمتاز بسمات مباني المساجد على كل حال . فالمساجد الصينية لا تخلو عادة من قاعات الصلاة والمآذن (او ابراج مشاهدة الهلال) والمواضئ ، كما ان قاعات الصلاة فيها لا تخلو من المحاريب والمنابر .

وتواجه قاعات الصلاة في المساجد الصينية الغرب دون استثناء بسبب وقوع الصين الى الشرق من مكة المكرمة . ولئن كانت هناك مساجد لا تواجه

الغرب تماما للظروف المحيطة بها ، فقد تعين على المسلمين ان يجعلوا محاريبها تواجه الغرب حتما . والدليل على ذلك ان قاعة صلاة مسجد وتشانغ فى مقاطعة هوبى تواجه الشمال الشرقى غير ان محرابها يواجه الغرب تماما .

وقاعات الصلاة تزخرف بالآيات القرآنية سواء أكانت زخارفها الاخرى ملونة ام غير ملونة ، مما يجعل منظرها يشرح الصدور خلافا لمبانى المعابد المكتظة بالاصنام .

وعلى الرغم من ان مبانى المساجد الصينية متنوعة من حيث الشكل المعمارى الا ان هناك ميزة مشتركة فيما بينها ، وهذا ما جعلها تختلف عن المعابد البوذية والطاوية اختلافا تاما .

٢ ــ المساجد الصينية المتميزة بالأسلوب العربى

لا تخلو الصين من مساجد عربية الطراز ، وهى كثيرا ما تتوزع فى منطقة شينجيانغ الويغورية الذاتية الحكم وفى المناطق الداخلية من الصين ، وهى اما من الآثار الاسلامية القديمة واما من المبانى الحديثة .

(١) مزايا مبانى المساجد الصينية فى قديم الزمان

منذ دخل الاسلام الى الصين فى عهد اسرتى تانغ وسونغ (٦١٨ ــ ١٢٧٩) ظهر فيها عدد من المبانى الاسلامية . وقد قيل بأن هذه الفترة هى فترة انتقال الاساليب المعمارية الاسلامية الى الصين . ولكن لم يبق فى الصين الا قليل من مساجد تلك الفترة ، وهى موزعة فى مناطقها الساحلية دون استثناء .

وتتلخص مزايا هذه المساجد العريقة فيما يلى :

اولا : ان اغلبية هذه المساجد قد بنيت من الحجارة والطوب . ويدل على ذلك منارة مسجد هوايشنغ بمدينة قوانغتشو وبوابة مسجد تشينغجينغ بمدينة تشيوانتشو وقاعة الصلاة فيه . وجدير بالذكر ان جدران بوابة المسجد

وقاعة الصلاة قد تم بناؤها برصف البلاطات المستطيلة ومثيلاتها المربعة على نحو متعاقب . وقيل ان هذا النوع من الجدران غالبا ما يظهر فى ايران ، ولا يظهر فى الصين الا نادرا . اما منارة مسجد هوايشنغ فقد بنى هيكلها والسلمان اللولبيان داخلها من الطوب . والشكل المعمارى لهذه المنارة قد ترك تأثيرا واضحا فى هندسة الباغودات البوذية فى الصين ، وهذا يبيح لنا القول بأنه احتل مكانة معينة فى تاريخ الهندسة المعمارية الصينى .

ثانيا : تتوزع مبانى هذه المساجد غالبا على نحو غير متناسق ، فلا تنتصب على خط محورى وهى مخالفة بذلك طريقة المبانى الصينية التقليدية . ودليل هذا ان مئذنة مسجد تشينغجينغ تقوم فى ايمن قاعة الصلاة بدلا من ان تقع معها على خط مستقيم . وبوابته تقوم على الجانب الشرقى من سوره الجنوبى ، فلا يمكن للمرء ان يصل الى قاعة الصلاة الا بعد ان يدور الى اليسار عبر ممر مفض الى هناك . وتوزيع المبانى على هذا الشكل كان غريبا فى نظر الصينيين . وفى مدينة يانغتشو بمقاطعة جيانغسو مسجد قديم بنى فى اواخر اسرة سونغ ، ويعرف باسم " الكركى " ، تتوزع مبانيه على نحو غير متناسق ايضا ، بل على شكل " الكركى المتجعد " . وليس فى حرمه سوى فناء صغير ، وهو يختلف عما فى الدار المربعة الشائعة فى الصين (اى الدار التى تحيط بها المبانى من الجهات الاربع ويتوسطها فناء) . وعلى الرغم من ان هذا المسجد قد خرب ايام تأجج نيران الحرب واعيد بناؤه مرارا وتغيرت ملامحه الاصلية ، الا ان مسقط خريطته ما زال على ما كان عليه .

ثالثا : تتسم مبانى هذا النوع من المساجد بمزايا الهندسة المعمارية العربية . من ذلك ان شكل منارة مسجد هوايشنغ يختلف عن الباغودات البوذية فى الصين اختلافا واضحا . فتبدو هذه المنارة على شكل اسطوانة ، ويبلغ قطر محيط قاعدتها ٨٫٨٥ امتار ، وارتفاع بدنها ٣٥٫٧٥ مترا ولكن

ارتفاع جزئها الدفين تحت الارض يمتد بضعة امتار . وتنقسم هذه المنارة البادية كشمعة ناطحة السحاب الى طابقين ، طابقها السفلى يمثل بدن الشمعة ، وطابقها العلوى يقوم مقام فتيل الشمعة . وتتكون جدران المنارة الطوبية من طبقتين خارجية وداخلية ، وبينهما حشوات ترابية من شأنها تقوية الجدران . وفى جوف المنارة سلمان لولبيان متقابلان ، ولكل منهما ١٥٤ درجة . وتجد نافذة صغيرة على جدران المنارة بعد كل عدة درجات ، يتسرب منها الضوء الى الداخل . وجدران المنارة الداخلية والخارجية مطلية بطلاء ابيض ، فتبدو من بعيد كأنها " قلم من الفضة " . وكان على قمة المنارة ابو رياح ذهبى اللون على شكل ديك . ومن المؤسف ان هذا " الديك الذهبى " قد عصفت به الاعاصير العاتية ، فحل محله زخرف قرعى الشكل . وجملة القول ان هذه المنارة مبنى عربى الطراز . اما بوابة مسجد تشينغجينغ فهى تشبه نظيراتها فى الامصار العربية فى القرون الوسطى . ذلك ان شكلها المستطيل وعقودها المخمسة وعتباتها العليا وزخارفها المعمارية الاخرى تتحلى بالسيماء العربية دون استثناء .

رابعا : ليس هناك فرق بين مساجد الصين المبنية فى الايام الاولى من دخول الاسلام ومثيلاتها فى الامصار العربية من حيث تركيباتها الهندسية . فبوابة تشينغجينغ مثلا تتربع على قطعة مستطيلة من الارض ، وهى تنقسم الى جزأين يدعى احدهما " المدخل الخارجى " المفتوح ، والآخر " المدخل الداخلى " المغلق ، وهما يتكونان من ٤ عقود مخمسة الشكل . يبلغ ارتفاع العقد الاول ١٠ م وعرضه ٣٫٨ م ، وتبدو قمته مدببة اكثر من المعتاد ، ويزخرف بالصخور الخضراء ذات الخطوط الطبيعية الجميلة . ويرى وراء هذا العقد سقف غائرى مقوى بثمانى عوارض غير متباعدة ومزخرف بخطوط دروع السلحفاة . اما العقد الثانى تحت هذا السقف الغائرى فيبلغ ارتفاعه

٧ر٦ م ، وهو اصغر من نظيره الاول بعض الشيء ، ويزخرف هذا العقد بالصخور الخضراء ايضا . وتحته ممر مجهز بمصراعين من الابواب العادية . واما العقدان الثالث والرابع فيبلغ ارتفاعهما ٣ر٤م و٠٦ر٤ م ، كل على حدة ، وبينهما ممر طوبى مقبب مطلى بالجير الابيض ليس غير ، مما يزيد من مهابته برغم بساطته . ان هذه البوابة المتداخلة العقود المخمسة والمزخرفة بنقوش من العقود المخمسة على شكل خلايا النحل لتعد من قبيل البوابات الاسلامية الطراز فى البلاد العربية .

خامسا : ان مبانى المساجد التى ظهرت فى الايام الاولى من دخول الاسلام الى الصين قد تأثرت بمزايا الهندسة المعمارية الصينية التقليدية بعض الشيء . اما ابو الرياح على شكل الديك على قمة منارة مسجد هوايشنغ فهو من الزخارف المعمارية الكلاسيكية المحببة الى الصينيين ، كما انه من علامات الخير والبركة فى نظرهم . وعلى الرغم من ان بوابة مسجد تشينغجينغ فى مدينة تشيوانتشو من طراز عربى ، الا ان رسوم السحب والاعشاب المنقوشة على جنبات دعائمها من الزخارف الصينية الطراز . زد على ذلك ان استخدام الصخور الخضراء فى تكسية الجدران الطوبية قلما يحدث خارج مدينة تشيوانتشو . بل انه ليقال بأن السقوف الغائرية لبوابة هذا المسجد هى فى حد ذاتها نسخة طبق الاصل لمثيلاتها الصينية التقليدية من حيث تصاميمها وكيفية بنائها . وان خطوط دروع السلحفاة على هذه السقوف تشبه مثيلاتها الوارد ذكرها فى « مواصفات الهندسة المعمارية » المتبعة من عهد اسرة سونغ . وان العوارض الثمانية على تلك السقوف تشبه مثيلاتها على برج مراقبة قديم فى محافظة دينغشيان وعلى مبنى بجانب قبر لى بيان فى مدينة نانجينغ يعود تاريخه الى عهد تانغ الجنوبية (٩٢٧ — ٩٣٦) .

وصفوة القول ان مساجد الصين التى ظهرت فى الايام الاولى من دخول

الاسلام قد بنيت من الطوب والحجارة ، وهى من قبيل المبانى العربية الطراز من حيث مسقطها الافقى وشكلها المعمارى وتركيباتها الجزئية . ومع ذلك فانها قد تأثرت الى حد ما بالمبانى الخشبية التركيب ذات الطراز الصينى التقليدى . وظهور هذه المساجد قد ادى الى اغناء المبانى الصينية آنذاك ، وارسى اساسا لتصيين المبانى الاسلامية فيما بعد ، وشق الطريق الى ذلك . وفى عهد اسرة يوان ازدادت نزعة تصيين المبانى الاسلامية اكثر فأكثر . من ذلك ان المساجد المبنية آنذاك قد بدأت تستفيد من المسقط الافقى للمبانى الصينية التقليدية ومن الهياكل الخشبية ، ما عدا احتفاظها بشكلها المعمارى العربى فى الظاهر وتميزها بمقصورات المحراب الطوبية المقببة . ويشير ذلك الى ان الصين آنذاك قد شهدت مساجد منتقلة من الهندسة المعمارية العربية الطراز الى نظيرتها الصينية الطراز ، او مساجد تجمع بين مزايا المبانى الصينية ونظيراتها العربية مثل مسجد فنغهوانغ فى مدينة هانغتشو ومسجد دينغشيان فى مقاطعة خبى . . الخ . وهذا النوع من المساجد قد ادى الى اغناء المبانى الصينية بقاعاتها الخالية من العوارض الخشبية ونقوشها الاسلامية الجميلة ، ويعتبر كذلك شاهد عيان على التفاعلات والتبادلات بين الحضارتين الصينية والعربية .

(٢) المساجد الصينية الحديثة البناء من طراز عربى

بعد التحرير ، اى بعد تأسيس الصين الجديدة سنة ١٩٤٩ ، بدأ ابناء الشعب الصينى بمختلف قومياته يعيشون حياة جديدة . ونظرا الى استمرار الحكومة الصينية فى تطبيق سياسة حرية العقيدة الدينية واحترام الاعراف لدى الاقليات القومية تم ترميم كثير من المساجد العريقة والمقابر الاسلامية . وبنيت بالاضافة الى ذلك اعداد كبيرة من المساجد والجوامع فى مختلف انحاء الصين لسد حاجة المسلمين ، وخاصة فى السنوات القليلة الماضية .

وهناك كثير من المساجد المتميزة بالهندسة المعمارية العربية ، من ضمنها جامع نانقوان فى مدينة ينتشوان بمنطقة نينغشيا الذاتية الحكم ومسجد جينتشو فى مقاطعة لياونينغ . . الخ .

وتتجلى مزايا هذه المساجد العربية الطراز فيما يلى :

اولا : تختلف مبانيها عن المبانى الصينية التقليدية الجملونية الشكل اختلافا تاما . واشد ما يلفت النظر هو ان قاعة الصلاة لكل من هذه المساجد تعلوها ٥ قباب قاتمة الخضرة منها قبة كبيرة تنتصب على صدر السطح و٤ قباب صغيرة تنتصب على زواياه الاربع ، وهذه القباب الصغيرة تزخرف فى اعاليها بكرات من الفولاذ غير القابل للصدأ . وهى تتوهج تحت اشعة علامة " الهلال " القائمة على القبة الكبيرة والمرفوعة الى كبد السماء اللازوردية . وتتوزع هذه القباب الجميلة الهندسة على ابعاد متناسبة ، مما يعطى اروع منظر فى المسجد . وقد قيل بأن القبة الكبيرة من هذه القباب ترمز الى النبى عليه السلام وبقية القباب ترمز الى الخلفاء الراشدين او الى المذاهب الاسلامية الاربعة . ولنترك هذه المقولة جانبا سواء أصحت ام لم تصح ، انما الذى لا شك فيه هو ان هذه القباب ذات اثر فنى جميل . ولو نظرت الى هذه المبانى لوجدتها مساجد تختلف عن مبانى المساجد الصينية التقليدية التى يصعب تمييزها من المعابد البوذية والطاوية .

ثانيا : يختلف هذا النوع من المساجد عن المساجد من طراز الدار المربعة الشائعة فى الصين من حيث مسقطها الافقى . خذ مثلا جامع نانقوان فى مدينة ينتشوان ، فالمهم فيه وجود خط محورى وهمى عمودى بدلا من نظيره الافقى الذى هو ضرورى جدا بالنسبة للمساجد الصينية الطراز . ومعنى ذلك ان كل اجزاء مبنى هذا الجامع مربوطة بالخط المحورى الوهمى العمودى البالغ ارتفاعه ٢٢ م والممتد من علامة الهلال القائمة على القبة

الكبيرة الى ارضية الجامع . ويتكون هذا المبنى من طابقين : اما طابقه الارضى فيشتمل على موضئتين حسنتى الاضاءة واحدة للرجال واخرى للنساء ، وعلى مصلى صغير وحجرة استراحة للامام وحجرة استقبال . وهذه الحجرات مربوط بعضها ببعض بواسطة دهاليز . ويمكن للمرء الصعود الى قاعة الصلاة فى الطابق العلوى عبر سلم مؤد اليها . ويرى خارج مدخل قاعة الصلاة رصيف ذو ارضية تريسية ، وهو يمتد حول القاعة كلها مشكلا منطقة حاجزة صالحة لدخول المصلين وخروجهم . اما واجهات قاعة الصلاة فعبارة عن دهليز ذى عقود مكسوة بالرخام الابيض ، وهو يزيد من جمال القاعة ، ويتخذ موقعا مناسبا لوضع احذية المصلين . وتبدو هذه القاعة على شكل مربع يبلغ ضلعه ٢١ م ، وهى تختلف عن مثيلاتها الصينية التقليدية التى تبدو على شكل مستطيل غالبا . وفى قلب القاعة اربع دعائم مربعة ومكسوة بالطوب الخزفى الاخضر ، تقوم عليها القبة الكبيرة البالغ قطر محيطها ٩٫٥ م . وبين القبة والدعائم المربعة جدران اسطوانية الشكل فتحت منها ٢٤ دفة من الشبابيك ، وهى تضمن حسن اضاءة القاعة مع ١٢ دفة من الشبابيك على جدران القاعة الشمالية والجنوبية . ومن الواضح ان هذا النوع من المبانى مميز بسمات الهندسة المعمارية العربية الى حد بعيد .

ثالثا : وتطلى جدران هذا النوع من المساجد بطلاء لطيف اللون ، ولا تزخرف بالنقوش والرسوم الملونة الا نادرا . ومصداق ذلك ان قاعة الصلاة فى مسجد جينتشو بمقاطعة لياونينغ فسيحة وحسنة الاضاءة ، وتبدو مهيبة لهدوء الالوان المستعملة فيها . وعلى جدرانها الجنوبية والشمالية ١٠ مجموعات من المصابيح الكهربائية اللبنية اللون ، يضاف اليها ٨ ثريات و٤ مجموعات من المصابيح الفلورسنتية تتدلى من السقف المكون من الواح كالسيومية لبنية اللون ومميزة برسوم عباد الشمس . ويشكل هذا السقف مع ارضية القاعة

القاتمة الحمرة مشهدا جميلا فريدا من نوعه . وتنتصب امام محراب قاعة الصلاة ٤ دعائم ناصعة البياض تتحمل السقف . ولخلو هذه القاعة من الرسوم والنقرش الملونة باستثناء نقوش مذهبة من التسابيح الالهية والمدائح النبوية على المحراب فانها تحدث فى النفوس شعورا بالبساطة والمهابة . اما جامع نانقوان فى مدينة ينتشوان فيتميز بالمزيد من سمات الهندسة المعمارية العربية ، ذلك ان الشبابيك على جدران قاعته الجنوبية والشمالية تبدو على شكل عقود مخمسة ، وهى شديدة الانسجام مع الدهليز الخماسى العقود عند مدخل القاعة . وتظهر فى صدر العقود المخمسة نقوش من الآيات القرآنية الجميلة الخطوط . وما يكسو المحراب من الرخام الابيض مزين بنقوش من الآيات القرآنية . وكل ذلك جعل قاعة الصلاة هذه فى غاية المهابة والروعة .

وجدير بالذكر ان المصممين قد ركزوا جل اهتمامهم على تجميل هذه المساجد مستفيدين من الالوان المناسبة . فجامع نانقوان بمدينة ينتشوان مثلا قد طليت جدران طابقه الارضى باللون الرمادى ، مما زاد من مهابته . ولما كان الطابق العلوى يشكل جزءا هاما من الجامع ، فقد تم كساؤه بالتريسة الخضراء ، وهى تبدو مختلفة عن الرخام الابيض المستعمل فى تكوين العقود لونا ونوعا ، الامر الذى يشكل لونا لطيفا وظريفا . وهذا الطابق العلوى يستفيد من الخضرة المحببة الى المسلمين ، كما تستفيد القباب من هذا اللون ايضا . ويبلغ سمك الواح القباب ٣ سم ، وهى تتخذ الاسمنت المسلح هياكل لها ، والبلاستيك المقوى بالالياف الزجاجية قشرة . وترتكز على قمة السارية فى اعلى القبة الكبيرة علامة " الهلال " ممتدة فى السماء ، فتشكل مع السماء الزرقاء والسحب البيضاء والشمس الحمراء منظرا فريدا من نوعه .

وهناك كثير من المساجد الحديثة البناء او المعاد بناؤها قد استفادت من الاسلوب المعمارى العربى ، منها مسجد شيابوه ببكين ، ومسجد شينتسايتسى

فى محافظة يونغنينغ بمنطقة نينغشيا ، ومسجد جيوتشنغ فى محافظة لينتان بمقاطعة قانسو ، ومسجدا نانقوان وتشيانخيان فى محافظة لينشيا من المقاطعة ذاتها ، ومسجد بنشى فى مقاطعة لياونينغ ، ومسجد مابوه فى محافظة وينينغ بمقاطعة قويتشو ، ومسجد آنكانغ فى مقاطعة شنشى . . الخ . وثمة اعداد كبيرة من المساجد المبنية على ضوء الاسلوب المعمارى الصينى التقليدى ايضا ، منها مسجد مدينة بوتو فى مقاطعة خبى ، ومسجد قرية هونغقوانينغ فى محافظة لينشى بالمقاطعة نفسها ، ومسجد مدينة جيلين ، ومسجد تشنغشى فى مدينة تشنجيانغ . وبما ان هذه المساجد التى تم ترميمها او اعيد بناؤها تحتفظ بمزايا المبانى الصينية التقليدية — طراز القصور ، فانها تبدو فى منتهى البساطة والمهابة . ويحق لنا القول بأن المساجد فى الصين اليوم متنوعة جدا من حيث اشكالها المعمارية . ويسر المسلمون الصينيون ايما سرور وهم يرون هذه الكثرة الغامرة من المساجد الجديدة او المجددة . هذا وقد ظهر على بوابة مسجد تشيانفنغ فى محافظة ماوون الذاتية الحكم بمقاطعة سيتشوان " دوبيت" يقول :

" بفضل اشعاع الشمس يغرق المسلمون الصينيون قاطبة
فى نشرة السرور والابتهاج ،
وبفضل شروق الشمس دخل الاسلام فى الصين
الى مرحلة الازدهار والانتعاش ."

وكفى بهاتين العبارتين دليلا على مدى سرورهم .

(٣) المساجد فى منطقة شينجيانغ الويغورية الذاتية الحكم

تنقسم المساجد فى هذه المنطقة الى ٥ اصناف : مساجد عيد كاه ومساجد الجمعة ومساجد الازقة ومساجد القبور رمساجد اليتامى .

تحمل كلمة "عيد كاه" معنى "مكان الاجتماع فى الاعياد".
ويشار بمساجد عيد كاه الى الجوامع المخصصة لأداء صلاة العيدين المباركين ولذلك فانها تفوق المألوف من حيث سعة مساحتها ومهابة بنائها وروعة هندستها ودقة نقوشها . ويحظى هذا النوع من المساجد او الجوامع برعاية كبار العلماء ، وتفرد له مجموعة كاملة من رجال الدين ، كما تلحق به حجرات دراسية كبيرة . اما جامع عيد كاه الواقع فى قلب مدينة كاشغر فهو النموذج من نوعه .

وتسمى مساجد "الجمعة" هذه التسمية لأنها مفتوحة الابواب لأداء صلاة الجمعة الى جانب اتخاذها اماكن لاقامة الشعائر الدينية الاخرى . والمساجد من هذا النوع كبيرة الحجم ، وغالبا ما تتواجد فى مراكز المحافظات المأهولة بالمسلمين ، وتتوفر فيها مجموعة كاملة من رجال الدين . ومسجد الجمعة فى حاضرة محافظة يارقند واحد من هذه المساجد .

تنتشر مساجد "الازقة" فى كل انحاء شينجيانغ لاسيما فى جنوبها ، مما يتيح للمسلمين ان يمارسوا عباداتهم اليومية بسهولة . ويحمل بعض هذه المساجد اسم موقعه ، ويحمل بعضها الآخر اسم موقعه الوارد ذكره فى الحكايات التاريخية او اسم بانيه . وليس فى هذه المساجد الا القليل من رجال الدين المتخصصين لصغر حجمها .

وفى مقابر شينجيانغ مساجد جرت العادة على تسميتها "مساجد المقابر". وقد اعتاد المسلمون المحليون ان يقيموا الصلاة ويتلوا آى الذكر الحكيم فى هذه المساجد خلال زيارتهم قبور موتاهم . اما مساجد المقابر الكبيرة فى شينجيانغ فهى مراقد لمشاهير شيوخ الاسلام وزعماء المسلمين وكبار العلماء ، ثم تحولت تدريجيا الى مقابر عامة لقبائلهم او طوائفهم الدينية او كتلهم الاجتماعية فيما بعد . وباعتبارها مزارات لأعداد كبيرة من الناس

فان المساجد المبنية فيها ضخمة وفاخرة عموما . ومن اكبر هذا النوع من المساجد مساجد مقبرة الخوجه آباك ومساجد مقبرة يوسف خاص حاجب فى كاشغر ، ومساجد مقبرة مرانا عز الدين فى كوتشار ، ومساجد مقبرة السلطان بوقرا خان فى آتوش . وجدير بالذكر ان مقبرة الخوجه آباك المذكورة اعلاه تفتخر بـ ٤ مساجد فاخرة ومدرسة دينية ، لذلك يمكن القول بأن هذه المقبرة هى ابرز مقابر شينجيانغ من حيث كثرة مساجدها .

وهناك بالاضافة الى ذلك كثير من المساجد المتواضعة جدا ، وهى تنتشر فى مجاهل الصحارى ، مما يتيح للمسافرين تأدية صلواتهم فيها . وهذه المساجد بسيطة بساطة مثيلاتها فى عهد النبى عليه السلام لأنها مبنية من الطين غالبا وتفتقر لمعظم التجهيزات الضرورية ، وكثير منها غير مسقوف . ولعدم توفر رجال دين يقومون برعايتها عرفت باسم " مساجد اليتامى" .

وتتجلى مزايا مساجد شينجيانغ فى النقاط التالية :

اولا : عددها يفوق عدد المساجد فى اى منطقة اخرى من الصين ، وذلك لأن شينجيانغ تضم اكبر تجمع سكانى للمسلمين ، وفيها اكبر عدد من المذاهب الدينية . فقد بلغ عدد المساجد فى مدينة كاشغر فى اواخر عهد اسرة تشينغ ١٢٦ مسجدا فى حين ان عدد المسلمين آنذاك كان يبلغ حوالى ٤٠ الف نسمة فقط . اما فى الايام الاولى من تأسيس الصين الجديدة سنة ١٩٤٩ فقد ازداد عدد المساجد هناك الى ١٢ الف مسجد . ولكن المساجد المحلية تعرضت للتخريب ، فتدنى عددها الى ١٥٢ مسجدا عبر ١٠ سنوات من الاضطرابات الداخلية الناشئة عن " الثورة الثقافية " . وبعد تطبيق سياسة حرية العقيدة الدينية فى الصين منذ سنة ١٩٧٩ ازداد عدد المسلمين فى هذه المدينة الى اكثر من ١٧٠ الف نسمة ، وبالمقابل ازداد عدد المساجد فيها الى اكثر من ٦ آلاف مسجد ، فصار فى كل شارع هناك مسجد على

الاقل ، مما سد حاجة المسلمين المحليين الى ممارسة العبادات .

ثانيا : بسيطة فى تركيبها خلافا لمثيلاتها فى بقية اجزاء الصين . وتتكون المساجد هناك من البوابات وقاعات الصلاة غالبا ، ولا يظهر فيها الا قليل من المبانى الاضافية الاخرى . اما المبانى الاضافية فى المساجد الصغيرة المحلية فهى مساكن للائمة ليس غير ، بينما المساجد الكبيرة غالبا ما تلحق بها مدارس دينية ، ولا تتوفر فيها مواضئ ومقصورات للانصاب الصخرية واقواس ومساكن وقاعات استقبال ومكتبات . ولا تفوتنا الاشارة الى ان مبانى المساجد فى شينجيانغ لا تمتد على خط محورى وهمى ، ولا تتوزع على نحو متناسق . من ذلك ان بوابة جامع عيد كاه البالغ عرضه ١٢٠ م تقع فى الشرق المائل الى الشمال بدلا من ان تكون مواجهة لقاعة الصلاة تماما . وبينها وبين منارة الجامع الشمالية جدار واحد غير مزخرف ، غير ان المسافة بينها وبين منارته الجنوبية بعيدة ، ويفصلهما عقدان مخمسان مزخرفان . ومثل هذه المبانى جميلة وان كانت اجزاؤها غير متناسقة .

ثالثا : مبانيها تختلف عن مثيلاتها فى سائر المناطق الصينية من حيث اشكالها المعمارية سواء أ كانت بوابات ام منارات ام قاعات للصلاة . وجدير بالذكر ان المساجد الكبيرة والصغيرة هناك غالبا ما يجرى الاهتمام بزخرفة بواباتها بالكتابات العربية الملونة او تجميلها بالعقود الطوبية المخمسة ، مما يبالغ من روعتها . وهناك كثير من البوابات الضخمة تنتصب على جانبى كل منها منارتان ليس من شأنهما زيادة البوابة بينهما روعة فحسب بل تعتبران من افضل المبانى المخصصة لأداء الاذان . ومما يستحق الذكر ان معظم هذه المنارات مبان مكونة من ٥ — ٦ طوابق ، وترتبط بالبوابات مباشرة ، مما يشكل علامات واضحة للمساجد ويؤدى الى توفير المواد المعمارية والايدى العاملة فى مجرى بنائها . ومنارات مساجد شينجيانغ دون استثناء تتكون تركيباتها

من الطوب . وما يرى على ابدانها هو انواع شتى من الخطوط والزخارف الطوبية البارزة او المقعرة . وتبدو اغلبية المنارات هناك على شكل اسطوانة وتتقاص ابدانها من قاعدتها الى قمتها بالتدريج ، وعلى اعاليها مقصورات مقببة مزدانة بعلامة " الهلال " ، مما يدل على انها مميزة بالسمات الاسلامية البارزة .

معظم قاعات الصلاة فى مساجد شينجيانغ مسقوفة على نحو منبسط ، وتنقسم الى قاعات داخلية وخارجية على وجه العموم . وتبنى لها من الامام سقيفات واقية تتصل بالقاعات . ولو دخلت الى هذا النوع من قاعات الصلاة لأعجبتك غابة الدعائم الخشبية فيها . فلقاعة الصلاة فى احد مساجد مقبرة الخوجه آباك فى كاشغر سقف مساحته ٢٦٠٠ م ، وهو يقوم على ١٥٨ دعامة خشبية . والطريف ان القاعات الخارجية والداخلية من هذا القبيل قليلة العمق من الشرق الى الغرب وعريضة نسبيا من الشمال الى الجنوب . ان السقوف المسطحة بسيطة التركيبات ، وهى تتكون من العوارض والالواح معا . ومن المفروض ان توضع العوارض الدقيقة على اعالى الدعائم القائمة اولا ، وتوضع العوارض الافقية على اطراف العوارض الدقيقة لربطها ببعضها بعضا ثانيا ، ثم يجرى تسقيف العوارض بالالواح الخشبية ، ويلى ذلك تغطية الالواح بطبقة من الروافد الخشبية شبه المستديرة او بطبقة من الالواح الخشبية ، ثم تغطى بطبقة من الحصائر القشية ، ثم تضاف الى الحصائر طبقة من الطين الممزوج بالقش . وهناك قاعات صلاة مقببة ، وبعض القباب على هذه القاعات يبدو نصف كروى ، وبعضها الآخر يظهر على شكل دلو مقبب . ويتوقف عدد قباب كل قاعة صلاة على عدد الفسحات ، ومعنى ذلك ان لكل فسحة فى هذا النوع من القاعات قبة واحدة . وتدعى هذه القباب الخالية من المواد الخشبية " دهليز القباب" لامتداد القباب الكثيرة فى صف طويل ، كما تدعى " باكس تاركا " باللغة الويغورية . وهذه التركيبات المعمارية

اكثر ملاءمة للظروف الجوية المحلية المتمثلة فى قلة المطر وكثرة الرياح الرملية ، كما انها تؤدى الى توفير المواد المعمارية والايدى العاملة ، وتعتبر اكثر مرونة من المبانى الجملونية الشكل لأنها لا تتقيد بطول السقوف وعرضها . وحيث ان القاعات الخارجية تبدو على شكل دهليز مفتوح الواجهات فانها صالحة لأداء الصلاة فى الصيف ، بينما القاعات الداخلية صالحة لأداء الصلاة فى الشتاء بسبب انغلاقها . اما عيوب هذه القاعات فتتجلى فى سوء اضاءتها وصغر مساحتها الاستعمالية الناجم عن كثرة دعائمها .

رابعا : لها فنها الزخرفى الخاص ، وهو ينعكس فى النقوش الخشبية والزخارف الطوبية والنقوش الجصية البارزة والرسوم الملونة على جميع المبانى فى المساجد هناك . ومن بين الرسوم والخطوط الزخرفية فى مساجد شينجيانغ رسوم " شيد " ورسوم " اسليما " والخطوط الخشبية ورسوم الرمان ورسوم البراعم ورسوم الازهار والخطوط الدقيقة وخطوط الاوراق .. الخ .

النقوش الخشبية : عرفت المساجد فى شينجيانغ بدقة نقوشها المتنوعة على ابوابها ، كما ان الشبابيك الخشبية لمبانى المساجد هناك فى غاية الروعة ، ومن بينها شبابيك تتخذ شكل كلمات عربية وشبابيك مستديرة ومعينة ومربعة ومسدسة او مثمنة الاركان .. الخ . اما النقوش على العوارض والدعائم الخشبية فى المساجد المحلية فهى متنوعة الاشكال ايضا . ولو ذهبت الى اى مسجد كبير هناك ، لوجدت عوارضه ودعائمه مكسوة بالنقوش الزاهية الالوان ، مما يزيد المسجد رونقا وبهجة . ومن الجدير بالذكر ان النقوش على الدعائم الخشبية تبدو متشابهة حين تنظر اليها لأول وهلة ، ولكن النقوش على تاج كل عمود وقاعدته مختلفة بعض الشيء . لذلك يمكن القول بأن فن النحت هذا رائع جدا بفضل توارى وحدته فى تغيراته وتوارى تغيراته فى وحدته .

الزخارف الطوبية : غالبا ما يتخذ اهالى شينجيانغ الطوب الاصفر الضارب

الى السمرة مادة معمارية لبناء مساجدهم . وهم يركزون كل التركيز على حسن استفادتهم من الطوب . ولهم تقريبا ثلاث طرائق فى استعمال الطوب ، فالطريقة الاولى هى تركيب الطوب على شكل اطارات مثلثة واطارات مسدسة متداخل بعضها فى بعض واطارات معينة الشكل ، الامر الذى يزيد المبانى روعة وجمالا . وكثيرا ما تستعمل هذه الاطارات فى تركيب الافاريز ودرابزينات المدرجات . والطريقة الثانية هى اعداد الطوب المتنوع وتقطيعه الى انواع شتى من القطع الهندسية الشكل ، وهى تستعمل عادة فى تركيب اطارات الابواب والمنارات والقباب والاسوار . . الخ . وهذه الطريقة فى استعمال الطوب من اكثر اشكال الفن المعمارى الويغورى شعبية . اما الطريقة الثالثة فهى اضافة الرسوم الى الطوب فى مجرى صناعته وتركيبه بحسب الرسوم . وتبدو هذه الرسوم الطوبية كأنها زخارف جصية تماما ، ولكنها أمتن من هذه الاخيرة .

ويعتبر برج سوقونغ (اى برج امين) فى توربان اعظم برج طوبى اسلامى الهندسة فى شينجيانغ . وقد شيد سنة ١٧٧٧ . ويتكون هذا البرج الاسطوانى الشكل من الطوب الخالص ويبلغ ارتفاعه ٤٤ م ، وقطر دائرة قمته المقببة ٢ر٨ م ، ومحيط قاعدته ١١ م . ويطل هذا البرج على الطريق امامه ، وترتفع قاعدة البرج عنه اكثر من ١٠ امتار . فلو شخصت ببصرك الى البرج وانت فى الطريق ، لوجدته يناطح السحاب . واشد ما يسر الناظرين هو الرسوم المبرقشة على جنبات البرج ، فلا نبالغ اذا قلنا ان البرج من روائع الفن المعمارى . وحيث ان بدن البرج يتقلص من قاعدته الى قمته بمقدار كبير ، فان الرسوم الطوبية تتضاءل اكثر فأكثر . وما يدعو الى الاعجاب هو ان كل الرسوم الطوبية كانت جاهزة قبل استعمالها فى بناء البرج ، وهذا العمل يتطلب جهودا مضنية ، ولا يمكن انجازه الا على ايدى المعماريين

المهرة . ويمكن القول بأن برج امين الطوبى الرائع الهندسة هو الفريد من نوعه فى المبانى الاسلامية الصينية ، كما يعد اسهاما كبيرا من مسلمى شينجيانغ فى تاريخ البناء المعمارى الصينى .

النقوش الجصية البارزة : لقد استفاد اهالى شينجيانغ من الزخارف الجصية فى زخرفة المبانى فى المدن منذ القدم . وتنقسم هذه الزخارف الى انواع شتى ، منها رسوم مكونة من مربعين متصلين تربطهما نقطة واحدة ، او من ٤ مربعات متصلة تربطها نقطة واحدة ، او من اشكال مستديرة ، او من اشكال معينة او مثلثة او متعددة الاطراف . وتعطى هذه الرسوم المتنوعة اشكالا منسقة ونابضة بالحيوية اذا ركب بعضها مع بعض على نحو افضل . اما محراب مسجد احد شوارع مدينة كاشغر وجوانبه فمزخرفة بالنقوش الجصية ، وتبدو رسومها البيضاء فى ارضية زرقاء وحمراء ، مما يظهرها جميلة برغم بساطتها .

الرسوم الملونة : لو قمت بزيارة للمساجد فى منطقة شينجيانغ الويغورية ، لوجدت ابوابها ومحاريبها ودهاليزها وسقوفها الغائرية وعوارضها ودعائمها الخشبية مزخرفة بالرسومات الملونة الفريدة شكلا واسلوبا . وهى تشتمل على الازهار والفواكه والمزهريات والمناظر الطبيعية والرسوم الهندسية . وتعد هذه الرسوم مرآة لتفوق مهارة اصحابها وانعكاسا لأذواق الويغوريين فى التلوين . من ذلك ان الالوان المستعملة فيها متناسقة فيما بينها وان كانت متباينة كل التباين . فهناك قاعات صلاة فى بعض المساجد المحلية طليت دعائمها بالدهان الاسمر او الازرق او الاخضر ، ولكن العوارض القائمة عليها مطلية باللون الابيض ، فتبدو على بساطتها لطيفة جدا . وثمة عوارض تنقسم الى اجزاء مختلفة باختلاف الالوان المرئية عليها ، والفراغات فيما بين الاجزاء الملونة تظهر عليها نقوش بسيطة دون تلوين لتحتفظ بلونها الاصلى . وذلك لا يزيد من جمالها فحسب ، بل يؤدى الى تبسيط عمليات الرسم ، وانه لابتكار

رائع فى حقل الزخارف المعمارية . وهناك عوارض تظهر من تحتها رسوم متسلسلة ، يضاف اليها بعض الخطوط السمراء المائلة الى الحمرة لتجنب نزعة الجمود قدر المستطاع . اما الرسوم الملونة على المبانى الويغورية العصرية فهى اكثر زهوا من مثيلاتها التقليدية . ودليل ذلك ان بعض جدران هذا النوع من المبانى مزخرف بالرسوم المتسلسلة الحمراء والبيضاء والزرقاء والخضراء ، وهذا ما جعلها نابضة بالحيوية . وما نراه على سقوف المساجد هناك يشتمل على الازهار والفواكه والمناظر الطبيعية . . الخ . وعلى الرغم من ان هذه الرسوم متنوعة ، الا انها تنتمى الى اسلوب فنى واحد . ولا تفوتنا الاشارة الى ان هذا النوع من الرسوم الملونة قلما يظهر فى مساجد المناطق الاخرى .

ويعتقد بأن الفن الزخرفى لمساجد شينجيانغ الويغورية ينبع من حياة عامة الشعب . فللويغوريين تقاليد فى زراعة الازهار والفواكه منذ القدم ، وهذه التقاليد تنعكس طبعا فى الرسوم الملونة لمبانى المساجد . زد على ذلك ان الويغوريين قد اقتبسوا من الفن الزخرفى للمبانى البوذية والنسطورية والمانوية نتيجة لتأثرهم الكبير بهذه الديانات عبر التاريخ . فمن عادتهم ان يستفيدوا من كل الالوان الزاهية فى الرسم ، جاعلين من كافة انواع النباتات (بما فيها اغصانها واوراقها وبراعمها) وجميع انواع الفواكه (مثل المشمش والرمان والعنب والبطيخ) والادوات المنزلية (مثل ابريق الوضوء وابريق الشاى النحاسى ونظيره الخزفى) مواضيع لابداعاتهم الفنية . فلا غرو اذن ان يتحلى الفن الزخرفى لمساجد شينجيانغ الويغورية بالسمات الحياتية ، مما يحدث فى النفوس شعورا بأن الويغوريين يحبون الحياة والطبيعة .

لقد تحدثنا اجمالا عن نوعين من المساجد فى الصين ، احدهما المساجد المبنية بالاسلوب المعمارى الصينى التقليدى ، والآخر المساجد المبنية بالاسلوب المعمارى العربى . وجدير بالذكر ان كلا النوعين جاء نتاجا

للتبادلات الثقافية بين الصين وبلاد العرب . وتختلف مبانى هذه المساجد عن مبانى المعابد البوذية والطاوية والكنفوشية والكنائس المسيحية لأنها تحمل صبغة اسلامية واضحة ، كما تختلف عن مبانى المساجد الاجنبية ، اذ تتميز بالسمات المعمارية الصينية جزئيا او كليا . وتنتشر هذه المساجد من ادنى الصين الى اقصاها انتشار الازهار المبرقشة على البساط السندسى اللون ، مدلة بجمالها فى حديقة الثقافة المعمارية العالمية ، مؤدية الى اغناء حديقة الثقافة المعمارية الصينية . انها تجسيد لمواهب ابناء القوميات المختلفة وشاهد عيان على الاتصالات الودية الطويلة الامد بين الصين وبلاد العرب .

خريطة لتوزع المساجد الرئيسية فى الصين

١ – مسجد آتشنغ
٢ – مسجد نينغآن
٣ – المسجد الجنوبى فى شنيانغ
٤ – مسجد بنشى
٥ – مسجد ينغكو
٦ – مسجد شانهايقوان
٧ – مسجد ميناء تشينهوانغداو
٨ – المسجد الشمالى فى جيلين
٩ – مسجد يانتاى
١٠ – المسجد الشمالى فى تيانجين
١١ – الجامع الشمالى فى تسانغتشو
١٢ – مسجد بوتو
١٣ – مسجد سونغجيانغ
١٤ – مسجد شياوتاويوان فى شانغهاى
١٥ – مسجد جينغجيويه فى نانجينغ
١٦ – مسجد فنغهوانغ (العنقاء) فى هانغتشو
١٧ – مسجد فوتشو
١٨ – مسجد تايبى فى تايوان

١٩ — مسجد شانشيانغ فى تشنجيانغ
٢٠ — مسجد تشينغجينغ فى تشيوانتشو (مدينة الزيتون)
٢١ — مسجد شوشيان
٢٢ — مسجد آنتشينغ
٢٣ — مسجد هوايشنغ (الحنين الى النبى) فى قوانغتشو
٢٤ — مسجد قضاء هويهو فى ياشيان
٢٥ — مسجد ويشان
٢٦ — مسجد خيان فى لينشيا
٢٧ — مسجد داهوا فى لينشيا
٢٨ — مسجد نانبا ببلدة دونغشيانغ فى لينشيا .
٢٩ — مسجد تشونتاى فى لينشيا
٣٠ — مسجد لاووانغ فى لينشيا
٣١ — مسجد نانقوان فى لينشيا
٣٢ — مسجد بوشو فى بكين
٣٣ — مسجد هواشى فى بكين
٣٤ — مسجد تونغتشو فى بكين
٣٥ — مسجد نيوجيه فى بكين
٣٦ — مسجد دونغسى فى بكين
٣٧ — مسجد هوهيهوت
٣٨ — مسجد شيقوان فى ينتشوان
٣٩ — جامع نانقوان فى ينتشوان
٤٠ — مسجد وينشو
٤١ — مسجد شينتسايتسى فى يونغنينغ

٤٢ — مسجد تايبوان
٤٣ — مسجد شيتسويشان
٤٤ — مسجد فوجين
٤٥ — المسجد الشرقى فى هاربين
٤٦ — مسجد تشيتشيهار
٤٧ — مسجد تشانغتشون
٤٨ — مسجد تشنغده
٤٩ — مسجد بيوو
٥٠ — مسجد داتشانغ
٥١ — مسجد شيوانهوا
٥٢ — مسجد دينغشيان
٥٣ — الجامع الشرقى فى جينينغ
٥٤ — الجامع الجنوبى فى جينان
٥٥ — مسجد لويانغ
٥٦ — مسجد الكركى فى يانغتشو
٥٧ — مسجد تشنغتشو
٥٨ — مسجد تشوكو
٥٩ — مسجد تشوشيانتشن
٦٠ — مسجد نانتشانغ
٦١ — مسجد تشانغده
٦٢ — مسجد ووهان
٦٣ — مسجد جيولونغ
٦٤ — جامع زقاق هواجيويه فى شيآن

٦٥ ــ مسجد آنكانغ

٦٦ ــ مسجد وينينغ

٦٧ ــ مسجد قويلين

٦٨ ــ مسجد تشاوتشينغ

٦٩ ــ مسجد تونغشين

٧٠ ــ مسجد دابيتشوانغ فى لينتان

٧١ ــ مسجد بيتشوانغ فى لينتان

٧٢ ــ مسجد شياخه

٧٣ ــ مسجد قولو (برج الطبول) فى تشنغدو

٧٤ ــ مسجد لانغتشونغ

٧٥ ــ مسجد لاونانمن فى دالى

٧٦ ــ مسجد شارع تشنغيى (العدل) فى كونمينغ

٧٧ ــ مسجد شاديان

٧٨ ــ مسجد يانغهانغ فى اورومتشى

٧٩ ــ مسجد اهل تشانغجى

٨٠ ــ مسجد بوله

٨١ ــ مسجد يينينغ

٨٢ ــ مسجد شنشى فى اورومتشى

٨٣ ــ مسجد برج امين التذكارى فى توربان

٨٤ ــ مسجد توربان

٨٥ ــ مسجد كوتشار

٨٦ ــ مسجد كورلا

٨٧ ــ جامع عيد كاه فى كاشغر

٨٨ – مسجد اوتاسيك فى كاشغر

٨٩ – مسجد يارقند

٩٠ – مسجد خوتان

٩١ – جامع دونغقوان فى شينينغ

٩٢ – مسجد هونغشويتشيوان فى هوانغتشونغ

٩٣ – مسجد شانغتشيتشيوان فى داتونغ

٩٤ – مسجد جيتسى فى شيونهوا

٩٥ – مسجد تشينغشويخه فى شيونهوا

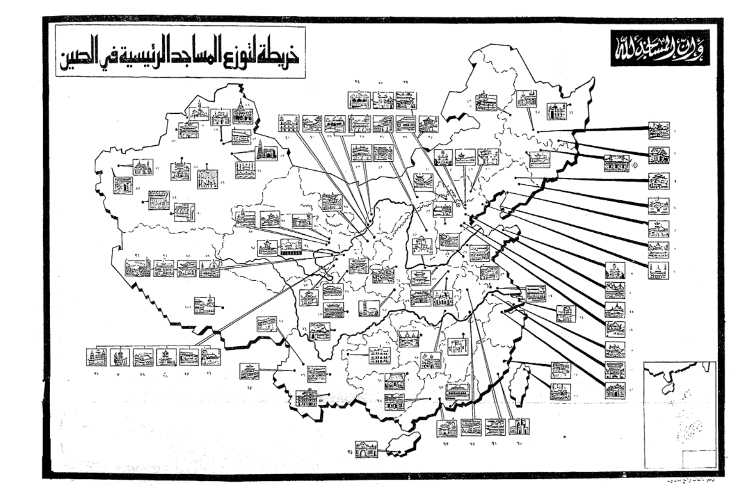
٩٦ – مسجد خبينغتاى فى لانتشو

٩٧ – مسجد تشياومن فى لانتشو

٩٨ – المسجد المطل على النهر الاصفر فى لانتشو

٩٩ – مسجد شيقوان فى لانتشو

١٠٠ – مسجد خبالين فى لاسا


خريطة لتوزع المساجد الرئيسية في الصين
وأن المساجد لله

الباب الثالث

المذاهب الاسلامية فى الصين

ان سبر غور المذاهب الاسلامية فى الصين يبدو أصعب من اكتناه المواضيع الاسلامية الصينية الاخرى . ويعود السبب فى ذلك الى ان هذا الموضوع يرتبط بأمور كثيرة كنشوء المذاهب وارتقائها واصول الدين والمنظمات الاسلامية والشعائر الدينية وتوارث السلطة الطائفية والنزاعات المذهبية الى جانب وجود الفوارق القومية والاقليمية بين هذا المذهب وذاك ، كما يعود الى قلة الابحاث حول هذا الموضوع فى الميدان العلمى وعدم التوصل الى اتفاق حوله فى كثير من المسائل الاساسية . وانه لمن دواعى الغبطة ان قطع الباحثون فى السنوات القليلة الماضية شوطا كبيرا فى دراسة المذاهب الاسلامية فى الصين ، مما قدم لنا معلومات يمكننا الرجوع اليها فى سبر غور هذا الموضوع .

الفصل الاول

ما هى المذاهب الاسلامية فى الصين ؟

هناك خلاف فيما اذا كان فى الصين مذاهب اسلامية ، وذلك لاختلاف

الباحثين فى فهم معنى كلمة "مذهب" ولعدم وجود مقياس لتحديد المذاهب الدينية فى الصين . فقد قال بعضهم ان المسلمين فى الصين قد انقسموا الى عدة مذاهب ، لكن بعضهم الآخر هز الرأس بالنفى . وبالاضافة الى ذلك فان هناك فريقا من الباحثين رأى ضرورة تحديد المذاهب الدينية حسب الآراء السياسية للطوائف الدينية المختلفة ، وفريقا آخر رأى لزوم تحديد المذاهب الدينية حسب وجهات النظر المختلفة فى علم الفقه وعلم التوحيد ، وفريقا ثالثا قال بأن كل جماعة دينية بزعامة رئيس اسرة ما تعد مذهبا دينيا .

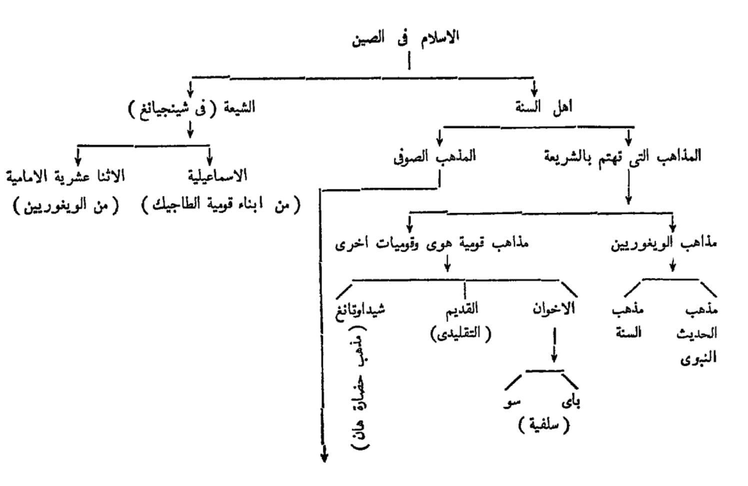
ووفقا لما ورد فى «معجم لغة هان العصرى» الذى نشرته مطبعة الشؤون التجارية فى سبتمبر ١٩٧٣ يجب اعتبار جميع الكتل السياسية واصحاب الآراء المختلفة فى حقول علوم التوحيد والفقه والشريعة الاسلامية داخل صفوف المسلمين من قبيل المذاهب الاسلامية .

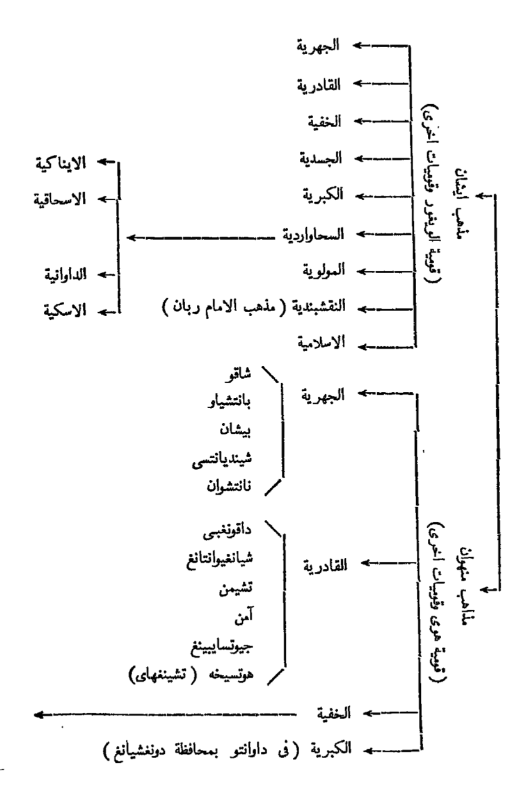
اذن ، ما هى المذاهب الاسلامية فى الصين ؟

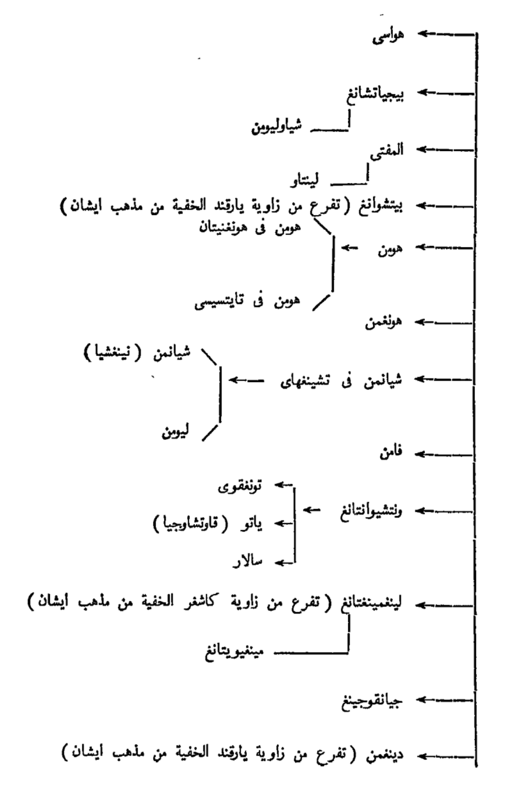
تنتمى قلة قليلة من المسلمين الصينيين الى الشيعة ، ومن بينهم ابناء قومية الطاجيك الاسماعيليون فى كاشغر بمنطقة شينجيانغ ، وابناء قومية الويغور المتمسكون بالاثنى عشرية الامامية فى محافظة يارقند بالمنطقة ذاتها .

ولكن اغلبية المسلمين فى الصين هم من اهل السنة الذين يجلون الخلفاء الراشدين الاربعة ابا بكر وعمر وعثمان وعليا . وهم من الاحناف ويحترمون كذلك بقية المذاهب : الشافعى والمالكى والحنبلى . وقد انقسم اهل السنة فى الصين الى نوعين من المذاهب : يهتم احدهما بالعبادات المبينة فى الشريعة الاسلامية ، وهو يشتمل على "المذهب التقليدى" و"مذهب الاخوان" و"مذهب شيداوتانغ" و"مذهب الحديث النبوى" .. الخ . ويشار بالنوع الآخر الى المذاهب الصوفية التى تدعو الى تهذيب النفوس عن طريق

جدول تشعب المذاهب الاسلامية فى الصين




مذهب ايشان
(قومية الويغور وقوميات اخرى)
الجهرية
القادرية
الخفية
الجسدية
الكبرية
السحاواردية
المولوية
النقشبندية (مذهب الامام ربان)
الاسلامية
الايناكية
الاسحاقية
الداوائية
الاسكية
مذاهب منهوان
(قومية هوى وقوميات اخرى)
الجهرية
شاقو
بانتشياو
بيشان
شينديانتسى
نانتشوان
القادرية
داقونغبى
شيانغيوانتانغ
تشيمن
آمن
جيوتساييينغ
هوتسيخه (تشينغهاى)
الخفية
الكبرية (فى داوانتو بمحافظة دونغشيانغ)


هواسى
بيجياتشانغ
شياوليومن
المفتى
ليتاو
بيتشوانغ (تفرع من زاوية يارقند الخفية من مذهب ايشان)
هومن فى هونغنيتان
هومن
هومن فى تايتسيسى
هونغمن
شيانمن (نينغشيا)
شيانمن فى تشينغهاى
ليومن
فامن
تونغقوى
ونتشيوانتانغ
ياتو (قاوتشاوجيا)
سالار
لينغمينغتانغ (تفرع من زاوية كاشغر الخفية من مذهب ايشان)
مينغيويتانغ
جيانقوجينغ
دينغمن (تفرع من زاوية يارقند الخفية من مذهب ايشان)

التزهد ، وهى تشتمل على مذاهب " منهوان " * فى قانسو ونينغشيا ومذهب ايشان فى شينجيانغ علما ان لكلا المذهبين المذكورين عدة فروع تشعبت من كل منها عدة غصينات على كر العصور . (راجع جدول تشعب المذاهب الاسلامية فى الصين)

الفصل الثانى

المزايا الرئيسية للمذاهب الاسلامية فى الصين

١ — المذاهب الاسلامية فى الصين منقولة من الخارج

لقد جاءت غالبية المذاهب الاسلامية فى الصين نتاجا لتأثر المسلمين الصينيين بالمذاهب الاسلامية فى بلاد العرب وآسيا الوسطى ، اذ كانت تدخل الى الصين اما على ايدى المسلمين الاجانب الوافدين واما على ايدى المسلمين الصينيين .

اما " المذهب القديم " (المذهب التقليدى) الشائع فى كافة انحاء الصين ومذهب شيداوتانغ الناشئ والمتطور فى محافظة لينتاو بمقاطعة قانسو والمذهب السنى الفرعى الشائع وسط الويغوريين بمنطقة شينجيانغ ، فقد كان لها صلة مباشرة بالمذهب السنى الناشئ والشائع فى بلاد العرب ، وأتباع هذه المذاهب من الاحناف دون استثناء .

واما مذهب الاخوان الشائع فى الصين كلها ومذهب الحديث النبوى

* قيل ان " منهوان " هو اللفظ المحرف من " المنهج " او " المنهل " ، ذلك ان الطريقة الصوفية كانت معروفة باسم " المنهج " او " المنهل " فى ابكر وقت .

الشائع في منطقة شينجيانغ ، فقد اطلق على كل منهما اسم مذهب التمسك بالكتاب بفضل دعوتهما الى " التمسك بالكتاب ونبذ العادات السخيفة " و" نشر الدين اتباعا للكتاب" . وقد ظهر هذان المذهبان في الصين متأثرين بالوهابية التي بزغ نجمها في جزيرة العرب في اواسط القرن الثامن عشر ، وبحركة الاخوان التي ظهرت في الجزيرة في مطلع القرن الجاري . وقد تأسس هذا المذهب على يد الحاج ما وان فو (١٨٤٩ — ١٩٣٤) المعروف بلقب " الحاج البستاني" الذي نسب الى ولادته في قرية قوبوان (البستان) . ولما ادى ما وان فو فريضة الحج سنة ١٨٨٨ بقي في جزيرة العرب ، حيث درس بعض الكتب الوهابية ، ثم عاد بها الى الصين . وعلى هذا الاساس استنبط عشرة احكام عرفت فيما بعد بـ " بنود الحاج البستاني العشرة " ، مما مهد الطريق لتأسيس مذهب الاخوان في الصين .

لقد تشكلت مذاهب " منهوان " ومذهب ايشان في الصين متأثرة بالصوفية في بلاد العرب وآسيا الوسطى ايضا . ذلك ان المذهب الجهري من مذاهب " منهوان " قد تم تأسيسه سنة ١٧٤٤ على يد الشيخ ما مينغ شين الذي حج الى بيت الله سنة ١٧٢٨ ، ثم توجه الى اليمن حيث تتلمذ على الشيخ محمد برساني في احدى الخانقاهات* الشاذلية . ولما عاد الى الصين اقبل على الدعاية لما تلقاه من التعاليم الشاذلية بحيث تكون مذهبه الخاص المعروف باسم " الجهرية " في نهاية المطاف . ولذلك فان اتباع الجهرية يعتقدون بأن مذهبهم جذع لشجرة متأصلة في بلاد العرب ، حتى يومنا هذا .

وتأسست القادرية من مذاهب " منهوان " على يد الشيخ خوجه عبد الله الذي سماه اتباعه " الزعيم الموقر بان لونغ (التنين المتجعد) " تعظيما له واكبارا . وقيل انه من ذرية محمد عليه السلام للجيل التاسع والعشرين .

* الخانقاه : مدرسة صوفية اسلامية .

وكان يقوم بنشر تعاليمه فى آسيا الوسطى فى بادئ الامر . وفى سنة ١٦٧٤ وصل الى مقاطعة قوانغدونغ وقوانغشى وسيتشوان على التوالى ، وحط رحاله فى قانسو وتشينغهاى حيث قام بنشر تعاليمه القادرية . وكان للشيخ الوافد تلميذان نجيبان ، احدهما يدعى تشى جينغ يى (١٦٥٦ — ١٧١٩) الذى اصبح مؤسسا لطائفة داقونغبى القادرية ، ويدعى الآخر "ما" من مواليد قوانغدمن بمدينة شيآن ، وقد اسس انساله طائفة جيوتسايبينغ وطائفة هوتسيخه القادريتين فى تشينغهاى .

ويعد للمذهب الخفى من مذاهب "منهوان" وقد تشعب منه كثير من الطرائف الفرعية ، لكن الطوائف الكبيرة منها نشأت فى بلاد العرب او آسيا الوسطى ، ودخلت الى الصين فيما بعد . فطائفة هواسى الخفية مثلا تأسست على يد الشيخ ما لاى تشى (١٦٨١ — ١٧٦٦) الذى سبق له ان درس بعد ان حج الى بيت الله سنة ١٧٢٨ فى الخانقاه الخفية ثلاث سنوات ، ثم توجه الى دمشق وبغداد والقاهرة على التوالى لتحصيل العلم . وخلال وجوده فى هذه المدن درس التعاليم النقشبندية والقادرية والسحليوتية كما تتلمذ على للعالم الصوفى العربى مولى رماح الدمى الذى سماه "ابو الفتوح" واعطاه ٨ قطع من الهدايا : وهى سيف وختم وكتاب اسمه «ميشال» وكتاب بعنوان «مولود» و٨٠ كتابا وسجادة وجلباب صوفى وقطعة من غطاء الكعبة المشرفة . وبعد ان عاد الى الصين سنة ١٧٣٤ اخذ ينشر التعاليم الخفية اينما ذهب . وانتهى به الامر الى تأسيس طائفة هواسى الخفية . اما طائفة بيجياتشانغ وطائفة "المفتى" فقد تم تأسيسهما على يد الشيخ ما تسونغ شنغ (١٦٣٩ — ١٧١٩) والشيخ ما شو تشن (١٦٣٣ — ١٧٢٢) كل على حدة . وهما من تلامذة الشيخ خوجه هداية الله عفاق المشهور الذى ادعى بأنه من ذرية النبى عليه السلام للجيل الخامس والعشرين . وقد اتى من آسيا الوسطى الى

جبل فنخهوانغ بتشينغهاى مرورا بشينجيانغ ، حيث قام بنشر التعاليم الخفية ، واجتمع له كثير من التلامذة من بينهم الشيخ ما تسونغ شنغ والشيخ ما شو تشن اللذان ذكرناهما آنفا . وفى حوزة رجال طائفة المفتى اليوم تدوينات تاريخية تشير الى علاقات التوارث الدينية المباشرة بين محمد عليه السلام والشيخ ما شو تشن . وهذه المقولة ليس لها اساس من الصحة طبعا ، ولكنها تؤكد لنا ان طائفة المفتى التى اسسها الشيخ ما شو تشن قد تأثرت دون شك بالتعاليم الصوفية الشائعة فى آسيا الوسطى وبلاد العرب .

وتعتبر الكبروية من فروع الصوفية ومذاهب منهوان الصينية . وقد عرفنا من اتباع هذا المذهب ان سلفهم المذهبى كان شيخا عربيا مغتربا فى الصين يدعى محى الدين . قيل انه من ذرية للنبى عليه السلام . وقد سبق له ان اتى الى الصين ثلاث مرات ، وقام بنشر التعاليم الكبروية فى قوانغدونغ وقوانغشى وهونان وهوبى وشينجيانغ وخنان وتشينغهاى وقانسو على التوالى ، واستوطن قرية داوانتو فى محافظة لينشيا بمقاطعة قانسو ، وغير اسمه الى تشانغ يوى هوانغ للتكيف مع عادات الصينيين . ولذلك عرفت طائفته باسم طائفة تشانغ :

وكان اتباع مذهب ايشان من ابناء قومية الويغور وقوميات اخرى فى شينجيانغ صوفيين قادمين من بخارى وسمرقند وغيرهما من الاماكن فى آسيا الوسطى . وكان من بين هؤلاء الوافدين : هابى بلاكى الايشانى وابو حب كبير وراشد والى والشيخ شاهبدين ، وخوجه محمد يوسف وخوجه هوادواد محمود ، وخوجه محمد شريف ، وسعيد احمد كيسان بن جلال الدين . . الخ . وكان هؤلاء الصوفيون من آسيا الوسطى قد وصلوا الى شينجيانغ فى الفترة ما بين القرن الرابع عشر والقرن السادس عشر على التوالى ، فأخذوا ينشرون التعاليم الصوفية فى كاشغر ويارقند وآتوش وكوتشار . وفى الفترة الممتدة من

اواخر القرن السابع عشر الى الاربعينات من القرن الجارى ظهر فى شينجيانغ عدد من العلماء الصوفيين ، منهم عبد الرحمن وميان مصموح وسيان ناصر خان وكرم خان . وقد ادعوا بأنهم من انسال الامام ربان الذين قدموا من آسيا الوسطى الى كاشغر ويارقند وخوتان ويتشنغ فى شينجيانغ حيث نشروا التعاليم الصوفية — الربانية حسب ما ورد فى كتاب بعنوان «المكتوبات» . وليس قليلا عدد المسلمين الويغوريين الذين يحتفظون بسلسلة النسب الصوفية حتى زمننا هذا . ونعرف من سلسلة النسب هذه ان الصوفيين فى شينجيانغ كان اصلهم من جزيرة العرب .

لقد اهتدى ابناء قومية الطاجيك بالاسلام فى القرن العاشر الميلادى على وجه التقريب . وقد تأثروا بالمذاهب الاسلامية المتعددة عبر التاريخ . ولكن انتهى بهم الامر الى اتباع الصوفية — الاسماعيلية فى اواخر القرن السادس عشر واوائل القرن السابع عشر . وهناك عدة مقولات حول مسألة من لعب دورا حاسما فى تعميم الصوفية وسطهم ، فهناك طائفة من الناس يعزون الفضل فى ذلك الى سيتاليف الايرانى ، وطائفة اخرى منهم يقولون ان عبد الولى خان الايرانى هو الذى جعل من اهل الطاجيك مؤيدين للصوفية — الاسماعيلية . ولكن ساد الاعتقاد بأن انتشار هذا المذهب وسطهم يمت بصلة الى القائد العسكرى الايرانى سيدسورى الذى فتح تاشيكوركان فى اواخر عهد اسرة مينغ واوائل عهد اسرة تشينغ ونصب نفسه ملكا عليها ، وذلك بعد ان قتل حاكم الدويلة جهغار وزميله ألاتموغار . وقد قام هذا الحاكم الجديد بنشر التعاليم الاسماعيلية هناك باذلا فى ذلك اقصى جهوده . كما ان الحكام المحليين الذين بزغوا فيما بعد قاموا بنشر هذه التعاليم ، مما جعلها تنتشر وسط ابناء الطاجيك على نطاق واسع . وجدير بالذكر ان الطاجيكيين الاسماعيليين يتأثرون بوضوح بنزعة خوجه الاسماعيلية الهندية فى العقيدة

والشريعة والتنظيم . وفى القرن الجارى اتخذوا السلطان محمد شاه آغاخان (١٨٧٧ — ١٩٥٧) — زعيم طائفة خوجه الهندية — اماما لهم واعتبروه تجسيدا الهيا واماما رقم ٤٨ بعد على رضى الله عنه . اما زعيمهم الملقب " ايشان " فلا يعترف بصلاحيته الا بعد تصديق آغاخان المذكور عليه . وقد جرت العادة على تسمية " ايشان " بـ " موكى " تعظيما له . وجدير بالذكر ان اصحاب هذا اللقب كان لهم مكانة استثنائية وسط المسلمين الطاجيكيين لأن تصديق آغاخان على صلاحيتهم بمثابة سماحه لهم بوراثة هذا اللقب . وكان من بين اصحاب لقب " ايشان " المصدق عليهم من آغاخان : الايشان آسبو جيان والايشان بوهتل خان فى تاشيكوركان ، والايشان عبد سعيد فى محافظة تسيبو ، والايشان ملاباه والايشان يعقوب شاه فى مدينة يتشنغ ومحافظة يارقند . وفى الفترة ما بين سنة ١٨٨٥ وسنة ١٩٥١ كان من عادة اصحاب لقب " ايشان " هؤلاء ان يتوجهوا الى بومباى — الهند مرة كل سنتين او ثلاث سنوات للحج الى آغاخان . ولم يكتفوا بذلك بل يقدمون اليه " سركار " (اى بواكير الفواكه والمزروعات) وهذا يعنى انهم لا بد ان يسلموه عشر قيمة ابكار مواشيهم وبواكير مزروعاتهم بهيئة قربان مفروض عليهم . وبعد ادائهم هذه الواجبات يعطيهم آغاخان مستندات مقابل هداياهم ويمنحهم ثيابا لمكافأتهم . وكانت هذه المستندات والثياب فى نظر اتباعهم مقدسات جديرة بأن تحفظ بكل عناية . وهؤلاء القوم كانوا يعتبرون استقبال آغاخان لهم مبعث شرف لهم مدى الحياة ، وليس هذا فحسب بل يزعمون ان الحج الى آغاخان فى الهند هو بمثابة الحج الى بيت الله فى مكة المكرمة .

ونعرف من المعلومات المذكورة ان جميع المذاهب الاسلامية فى الصين مستوردة من الخارج دون استثناء ، مما يقدم دليلا على ان المسلمين

الصينيين يشكلون جزءا لا يتجزأ من العالم الاسلامى ، وانهم متأثرون بحظيرة الاسلام فى كل شىء .

٢ – متى ظهرت المذاهب الاسلامية فى الصين ؟

لقد استنتج المؤرخون الصينيون والاجانب عبر تحليلهم للمعلومات التاريخية المعنية ان المسلمين المنتسبين الى مختلف المذاهب الدينية قد انتقلوا فى قديم الزمان الى الصين ، حيث مارسوا عباداتهم حسب الاحكام الخاصة بالمذاهب التى كانوا ينتمون اليها .

ومنذ زمن يعود الى اوائل القرن الثامن الميلادى كان هناك جماعة من اهل الشيعة وعدد من انسال على رضى الله عنه قد غادروا خراسان الى منطقة شمال غربى الصين ، واستوطنوها هربا من اضطهاد الحكام الامويين (٦٦١ – ٧٥٠) لهم . وقد ألقى الرحالة العربى شريف الذى ترك آثار قدميه فى الصين فى القرن الحادى عشر ضوءا على اولئك المسلمين العلويين قائلا بأنهم كانوا يعملون سماسرة بين الصين والتجار الاجانب . وقد اكد المؤرخ اليابانى كووا هارا هذه الحقيقة التاريخية تأكيدا تاما فى مقالته : « اهل المنطقة الغربية المهاجرون الى الصين فى عهد اسرتى سوى وتانغ » .

ويعتقد بأن الصوفية قد دخلت الى الصين فى اواخر القرن الحادى عشر دون شك . ذلك ان الكتاب الادبى الويغورى الكلاسيكى « قوتاد غوبيليك » (علم السعادة) يصور صفات احد المتصوفين قائلا انه يختفى فى اعماق الغابات الجبلية حيث يعيش حياة التقشف مصمما على كبح جماح شهوته بعقله ونبذ انانيته بمواهبه ، وليس لديه سوى سلطانية وعكاز ، ولكنه يدعى بأن الله تعالى معه فى كل حين .

وفى عهد اسرة يوان (١٢٧١ – ١٣٦٨) ازداد عدد المتصوفين فى الصين

بالتدريج . ودليل ذلك ان الرحالة العربى المعروف ابن بطوطة (١٣٠٤ — ١٣٧٧) قد تطرق فى كتابه الى الحديث عن الجوامع والزوايا الصوفية فى صينكلاى (قوانغتشو) ومدينة الزيتون (مدينة تشيوانتشو) . وليس هذا فقط ، بل قال انه قد زار احد الدراويش المسنين فى كهف جبلى خارج مدينة صينكلاى . اما كلمة " الدرويش " فقد ورد ذكرها فى « تشريفات يوان » مرارا . وكفى بذلك دليلا على كثرة عدد الدراويش فى الصين آنذاك .

ان وجود اهل الشيعة والمتصوفين فى الصين لا يعنى انقسام المسلمين الصينيين الى عدة مذاهب ، ذلك لأن هؤلاء كانوا من الجاليات ليس الا . اما نشوء المذاهب الاسلامية الجديدة وسط المسلمين المحليين فقد وقع قبل ٣٠٠ سنة على الاكثر .

لقد نشأت المذاهب الاسلامية اول ما نشأت فى ناحيات شينجيانغ المأهولة بالويغوريين . ولهذا علاقة بتطور الصوفية السريع فى آسيا الوسطى .

فى اواسط القرن السادس عشر اتى الايشان الكبير سعيد احمد كيسانى المشهور فى آسيا الوسطى الى منطقة شينجيانغ لنشر الصوفية وسط المسلمين المحليين ، شأنه شأن اسلافه المتصوفين . وبعد وفاته حدث خلاف بين ابنيه بحيث تشكل مذهب " الجبل الابيض " بزعامة احدهما ، ومذهب " الجبل الاسود " بزعامة الآخر . وتعتبر كاشغر وآتوش من مراكز المذهب الاول ، ويارقند وينشنغ من مراكز المذهب الثانى . وفى عهد الخوجه آباك المتوفى سنة ١٦٩٣ ازدادت الصراعات بين المذهبين حدة ، فحظرت تماما الاتصالات الودية التى كانت سائدة بين الطرفين ، كما انقطعت العلاقات الاقتصادية والسياسية وصلات القرابة بينهما انقطاعا تاما . وفى ظل ذلك اخذت نيران الحرب بين اتباع الطرفين تلتهب من حين لآخر ، مما سبب دمارا وخرابا هنا وهناك ، وادى الى تلاحق المجازر الدموية المؤلمة فى تاريخ الويغوريين .

وفى نهاية الامر استولى الخوجه آباك على مقاليد السلطة فى منطقة جنوب شينجيانغ المأهولة بالويغوريين ، وذلك بتأييد قوى من مملكة تشونقارخان . وبجهود الخوجه آباك شهد مذهب " ايشان " تطورا منتظما كبيرا فى شينجيانغ . هذا وقد ظهرت اعداد كبيرة من الخانقاهات الايشانية الطراز فى كاشغر ويارقند وتوربان . . الخ . وكان فى كل خانقاه من هذه الخانقاهات رجل دين كبير مسؤول عن نشر التعاليم الايشانية وسط المسلمين وترسيع تأثيراتها . وفى عهد حكم الخوجه آباك انقسم اهل مذهب ايشان الى ٨ طوائف دينية فرعية حسب ما ورد فى المعلومات التى حصل عليها رجال معهد شينجيانغ للبحوث الدينية سنة ١٩٨٢ .

لقد اسلم ابناء قومية الطاجيك بعد القرن العاشر . ولكن سعيد سورى — احد العلماء الفرس — اخذ ينشر التعاليم الأسماعيلية وسطهم فى القرن السابع عشر ، مما جعلها تعمهم فى نهاية المطاف .

وقال لنا احد الويغوريين فى محافظة يارقند بأن اسلاف اتباع الاثنى عشرية الامامية هناك قد جاءوا قبل مائتى سنة من منطقة على حدود باكستان اليوم .

وانقسم المسلمون من قومية هوى فى المناطق الداخلية الى عدة مذاهب فى الفترة ما بين اواخر القرن السابع عشر واوائل القرن الثامن عشر . واهم الاسباب المؤدية الى ظهور الانقسام المذهبى وسطهم تتمثل فيما يلى :

(١) بعد انفتاح الصين على الخارج تجاريا سنة ١٦٨٤ دخلت الصوفية الى المناطق الداخلية من الصين . وجدير بالذكر ان اسرة تشينغ (١٦٤٤ — ١٩١١) كانت قد اتخذت اجراءات صارمة لتحريم التجارة الخارجية البحرية فى الايام الاولى من حكمها ، وذلك لمواجهة القوى المعادية لها . واصدرت فى سنة ١٦٨٤ قرارا بتخفيف تحريم التجارة الخارجية البحرية ،

ولكن النهى عن تصدير الاسلحة الى الخارج ظل سارى المفعول ، وذلك بعد استيلاء قواتها على جزيرة تايوان وتقرض حكم تشنغ المعادى لأسرة تشينغ والقائم فى الجزيرة المذكورة لأن تحريم التجارة الخارجية البحرية قد فقد اهميته من جراء ذلك . وفى ظل هذا الوضع تقاطرت الى الصين اعداد من التجار ورجال الدين العرب والفرس والهنود ، ومن بينهم صوفيون قاموا بنشر تعاليمهم المذهبية وسط المسلمين فى المناطق الواسعة من شمال غربى الصين وجنوب غربيها . وهذا ما جعلهم ينقسمون الى عدة مذاهب فى نهاية الامر . وكان من ضمن هذه المذاهب : القادرية والخفية و" المفتى" .. الخ . وليس هذا فقط بل انقسم كل مذهب من هذه المذاهب الى عدة طوائف ، منها طائفة " داقونغبى" القادرية المبدعة على يد تشى جينغ يى وطائفة " بيجياتشانغ" الخفية المؤسسة على يد ما تسونغ شنغ وطائفة " المفتى" الخفية المؤسسة على يد ما شو تشن . كما ازداد عدد المسلمين الصينيين المتوجهين الى بيت الله بعد انفتاح الصين على الخارج تجاريا . وتفيدنا الاستقصاءات التى اجرتها اللجنة القومية بمقاطعة قانسو سنة ١٩٥٠ بأن عدد الحجاج السنوى فى منطقة لينشيا منذ حكم الامبراطور كانغ شى (١٦٦٢ - ١٧٢٢) الى حكم الامبراطور تشيان لونغ (١٧٣٦ - ١٧٩٥) كان يتراوح بين بضعة عشر فردا وثلاثين فردا من الرجال والنساء ، الكبار والصغار . ولا تفوتنا الاشارة الى ان عدد الحجاج فى ناحيات بافانغ ويانغواشان وخجيا ودونغشيانغ من هذه المنطقة قد زاد عن مائة حاج وحاجة فى هذه الفترة . وكان من بين هؤلاء الحجاج عدد ممن تأثروا بالصوفية خلال وجودهم فى مكة المكرمة ، وقاموا بنشرها وسط المسلمين الصينيين بعد عودتهم الى بلادهم . ويعد ما مينغ شين مؤسس الجهرية وما لاى تشى مؤسس طائفة " هواسى" الخفية من قبيل هؤلاء الحجاج .

(٢) فى اوائل عهد اسرة تشينغ اتخذت سلسلة من السياسات الصالحة لانعاش البلاد واغناء الشعب ، تمثلت فى التشجيع على استصلاح الاراضى البور والنهوض ببناء مشاريع الرى وتنمية الاقتصاد الوطنى وافادة عامة الشعب وعدم فرض الضرائب عليهم ، الامر الذى هيأ للصين ظروفا اجتماعية هادئة نسبيا استمرت اكثر من مائة سنة . ونتيجة لذلك دخل الاقتصاد الاقطاعى الوطنى الذى تعرض للتخريبات الحربية فى فترة من الفترات مرحلة النهضة اولا ومرحلة التطور الجلى ثانيا . اما المناطق المأهولة بالمسلمين ، ولاسيما مسلمى قومية هوى ، فكانت لا تختلف فى البداية عن بقية اجزاء الصين من حيث نهضة الاقتصاد وتطوره . ذلك ان هؤلاء المسلمين الهويين قاموا باستصلاح الاراضى البور وبناء المساكن والنهوض ببناء مشاريع الرى وممارسة النشاطات الانتاجية المتنوعة مستفيدين من وضع التكافؤ القومى السائد آنذاك ، مما اظهر معنوياتهم القوية فى الاستثمار وحيويتهم القومية . وذلك بعد ان تكيفوا مع الظروف الجديدة عبر جهود مضنية استغرقت مئات السنين من عهد اسرة يوان الى عهد اسرة مينغ . وبعد ازدياد عدد المسلمين الهويين استمرت مساحتهم السكنية فى التوسع ، وفى سنة ١٧٨١ عمت قرى " هوى هوى" (اى المسلمين الهويين) ضفاف نهر ويخه فى مقاطعة شنشى ، وصار فى مدينة شيآن آلاف العائلات من المسلمين . وكانت قرى " هوى هوى" منتشرة فى المناطق الواسعة الممتدة من شرقى قانسو الى نينغشيا . كما كانت المنطقة التى تشتمل على تيانشوى وتشينآن وتونغوى وويبوان ولينتاو ولينشيا وشينينغ وجيوتشيوان وتشانغيه مأهولة بالمسلمين الهويين . وفى مقاطعة يوننان ظهرت قرى وبلدات خاصة بأبناء قومية هوى . وكان بعضها متمركزا فى تشاوتونغ وهويتسه وتشياوجيا ، وبعضها الآخر مبعثرا فى دالى وباوشان وجيانتشوان . هذا وقد اصبحت هذه المقاطعة ثانى موطن كبير بعد منطقة شمال غربى الصين . وبالاضافة الى

ذلك ظهرت شوارع لأبناء قومية هوى فى كثير من المدن الكبيرة مثل قويلين فى قوانغشى ونانجينغ فى جيانغسو وتشنغدو فى سيتشوان .. الخ ، وكفى بذلك دليلا على كثرة عددهم فيها . اما عدد المسلمين من قومية سالار فقد ازداد بسرعة ايضا . فعلى الرغم من ان عدد عائلاتهم كان يعد على أصابع اليدين بادئ ذى بدء ، الا ان عددهم قد ازداد الى قرابة ٣٠ الف نسمة ينتمون الى ٦ آلاف عائلة . وفى الوقت ذاته تطور نطاقهم السكنى من ٨ قرى الى ١٣ قضاء .

وفى الوقت الذى ارتفعت فيه قوى الانتاج الاجتماعية ازداد تطور علاقات الانتاج الاقطاعية داخل هذه القوميات الاسلامية ، كما ازداد الاستقطاب الطبقى . وتمثل ذلك فى تعرض اعداد كبيرة من الفلاحين للافلاس بعد انضمام اراضيهم الى اراضى مالكى العقارات والاعيان ورجال الدين والزعماء الاقطاعيين الذين كانوا يشكلون الاقلية .

وكانت التناقضات المتزايدة حدة قد ادت الى انقسام المسلمين مذهبيا بعد ان انعكست فى المسائل الدينية . فقد ورد فى « موجز تاريخ قانسو — نينغشيا — تشينغهاى» بقلم مو شو تشى ما يلى : " انقسم المسلمون فى ختشو فى اوائل عهد حكم الامبراطور تشيان لونغ (١٧٣٦ — ١٧٩٥) الى مذهبين : مذهب الافطار قبل صلاة المغرب ومذهب الافطار بعدها . " وكان ما لاى تشى مؤسس مذهب الافطار قبل صلاة المغرب قد جلب الى الصين التعاليم الصوفية — الخفية التى تكلف المسلمين اقل مما يكلفهم مذهب الافطار بعد صلاة المغرب اقتصاديا . وهذا ما جعله يحظى بينهم بشعبية واسعة . اما كتاب « ماولو» الذى اتى به ما مينغ شين (مؤسس مذهب الجهرية) الى الصين فيذهب الى ابعد من التعاليم الخفية فى تبسيط العبادات . زد على ذلك ان هذا الكتاب يرى انه من الضرورى " مد المساعدة الاقتصادية الى

كل من يذهب مذهبه " . ولذلك فان " عدد الذين عدلوا الى هذا المذهب ازداد اكثر فأكثر " و" قد صار له شعبية اوسع من مذهب ما لاى تشى (اى مذهب الخفية) " . واشار عالم الجهرية محمد منصور ما شيويه تشى فى كتابه : «تاريخ مذهب الجهرية» الى ان " ما مينغ شين واتباعه كانوا يعيشون حياة التقشف ، ويلبسون الجلابيب المنسوجة من الصوف الخشن البنى اللون ويعانون من وطأة الجوع دائما ، وكانوا يحصلون على قوتهم اعتمادا على قطع الخشب فقط ، لكنهم يقومون عادة بتقديم هدايا عامة المسلمين لهم من الاموال والملابس والاطعمة الى الفقراء المدقعين . فجاز لنا القول بأنهم من الدراويش الحقيقيين " . وكان ما مينغ شين يقف فى وجه تحصيل الزكاة من المسلمين عنوة ، ويرى انه لا يجوز قبول الهدايا بعد قراءة الآيات القرآنية للآخرين . ويعارض ذبح الابقار والاغنام لممارسة النشاطات الدينية ، ويدعو الى تكريم رجال الدين بالمجففات فقط . وصفوة القول انه كان ينادى بتبسيط التشريفات الدينية وتجديد الامور الدينية . وكانت تعاليم ما مينغ شين هذه فى حد ذاتها انعكاسا لرغبة الجموع الغفيرة من المسلمين الفقراء وتمثيلا لمصالحهم . ولذلك ما ان ظهر مذهبه حتى حظى بالتأييد والترحاب من عامة المسلمين الذين دخلوا فى مذهبه افواجا افواجا .

وبما ان الطبقة الحاكمة الاقطاعية كانت قد القت العداوة بين المذهبين المذكورين (اى مذهب الافطار قبل صلاة المغرب ومذهب الافطار بعدها ، او الخفية والجهرية) ، وهى تستميل هذا المذهب حينا ، وتتبع ذلك المذهب حينا آخر ، فقد ازدادت الصراعات المذهبية بين المسلمين حدة مع مرور الايام . وتكرر وقوع حوادث دموية واسعة النطاق بين المسلمين ، مما ترك فى نفوسنا انطباعا مؤلما .

٣ – ليس هناك خلافات كثيرة بين المذاهب الاسلامية فى الصين نظريا

على الرغم من ان المذاهب الاسلامية فى الصين متعددة ، الا انه ليس هناك خلافات شديدة بينها نظريا . فأغلبية المسلمين الصينيين يدعون بأنهم من اهل السنة ، ويعترفون بصلاحية الخلفاء الراشدين الاربعة الى جانب تمسكهم بالاحكام الحنفية ، سواء أ كانوا من المذهب القديم (التقليدى) ام من مذهب الاخوان ام مذهب " شيداوتانغ " ام مذهب " ايشان " ام المذاهب الطائفية ، وقد سبق ذكر ذلك . وهذا يعنى انه ليس هناك خلافات بين مسلمى الصين من حيث الاحكام الشرعية الاساسية والعقيدة الدينية والآراء السياسية . ولكن الخلافات بينهم تتمثل فى كيفية ممارسة العبادات والشعائر الدينية . فعلى سبيل المثال كان الامام ربان المرشد السابع للمذهب النقشبندى الصرفى العميق التأثير ، والمتكلم المعروف ، قد ألف كتابا بعنوان «المكتوبات» قسم فيه العبادات الاسلامية الى ٤ سلالم : " الشريعة " و" الطريقة " و" الحقيقة " و" المعرفة " . وترى الصوفية انه على المسلمين ان يؤدوا جميع العبادات المبينة فى السلالم الثلاثة الاولى " الشريعة " و" الطريقة " و"الحقيقة". اما الذين يؤدون عبادات " الطريقة " و" الحقيقة " دون ان يؤدوا عبادات " الشريعة " فشأنهم شأن نبات ذى اوراق دون ساق وجذر . واما الذين يؤدون عبادات " الشريعة " دون ان يؤدوا عبادات " الحقيقة " فمثلهم كمثل الذين يسيرون فى الليل الحالك دون ان يهتدوا بمنارة . واما الذين يتركون عبادات " الحقيقة " ويؤدون عبادات " الطريقة " فشأنهم شأن ازهار اصطناعية فى المزهرية . واما الذين يتركون عبادات " الطريقة " ويؤدون عبادات " الشريعة " و" الحقيقة " ، فشأنهم شأن مرآة غير مضيئة . وصفوة القول ان العبادات المبينة فى " السلالم الثلاثة " مرتبط بعضها ببعض وغير قابلة للتجزئة ، شأنها شأن العلاقات فيما بين البدن والقلب والحياة . اما

السلم الرابع سلم " المعرفة " فهو طريق الى تقرب العابدين الى الله سبحانه .

ان مذهب ايشان والمذاهب الطائفية تهتم بممارسة عبادات " الطريقة " على وجه العموم . ولكن بعض المذاهب (مثل الخفية والجهرية) من المذاهب الطائفية يدعو الى ممارسة عبادات " الشريعة " و " الطريقة " معا ، وان بعضها الآخر (مثل القادرية) يهتم بعبادات " الطريقة " فقط . اما المذهب القديم (التقليدى) ومذهب الاخوان فلا يقفان فى وجه عبادات " الطريقة " مبدئيا ، ولكنها فى نظرهما من النوافل ليس الا . وعلى الرغم من ان المذهب القديم (التقليدى) لا يوافق تعاليم المذاهب الطائفية الا ان اتباعه يحترمون علماءها المتفوقين علما وفضلا ، ويعتبرونهم من " الاولياء " . ولا يكتفون بذلك ، بل يحترمون قبور العلماء الصوفيين الذين توفوا فى الصين ، ويزورونها من حين لآخر ، ويدعون الله ان يرحم اصحابها . واختلافهم مع اتباع المذاهب الطائفية يتجلى فى معارضة بناء الانشاءات المقبية بجانب قبور الاولياء فضلا عن التعبد فيها .

وقد سجل السيد ما تونغ فى كتابه : «موجز تاريخ المذاهب الاسلامية والانظمة الطائفية فى الصين » " عشرة بنود " اخرجها الحاج ما وان فو مؤسس مذهب الاخوان وهى : (١) ممنوع قراءة الآيات القرآنية جماعيا والسماح لجماعة من الناس ان يستمعوا الى قراءة قارئ ما . (٢) ممنوع تمجيد النبى عليه السلام بصوت عال . (٣) التقليل من الدعاء . (٤) ممنوع زيارة المبانى المقبية فى مقابر الاولياء الصوفيين . (٥) ممنوع التوبة الى الله جماعيا . (٦) ممنوع احياء ذكرى الموتى . (٧) ممنوع استخدام القرآن الكريم فى اسقاط ذنوب الموتى فى الجنازة . (٨) ممنوع ممارسة النوافل . (٩) تيسير الامور الدينية بدلا من تعقيدها . (١٠) ممنوع ممارسة العبادات وقراءة القرآن الكريم للآخرين . وتعتبر هذه البنود العشرة من احكام

" الاخوان " الدينية وليس لها اهمية نظرية فى الاصلاح الدينى .

اما الفرق بين المذهب القديم (التقليدى) ومذهب الاخوان فينعكس فى اختلاف وجهات نظرهما الى فروع احكام الدين .

٤ – تأثر اهل السنة فى الصين بالشيعة

فيما كان الشيخ وانغ جينغ تشاى الصينى (١٨٧٩ – ١٩٤٩) يتابع دراساته فى مصر فى اوائل العشرينات من القرن الجارى ابحر الى مكة المكرمة لأداء فريضة الحج . وكان من بين زملائه فى السفر شيعى فارسى تحبب اليه كثيرا ، فسأله عن دواعى ذلك متعجبا ، فكان جوابه : " أ لست مسلما صينيا ؟ اذن ، فأنت من قبيلنا ، وهذا هو سر اظهارى المحبة والوداد لك . " فقال له وانغ : " انما المسلمون فى العالم كله من قبيل واحد ، فلماذا تخصص محبتك لنا نحن الصينيين ؟ " فقال الفارسى : " انتم معشر المسلمين الصينيين من الشيعة ، شأنكم شأننا تماما . فجاز لى القول بأنكم من قبيلنا ! " ولكن الشيخ وانغ جينغ تشاى قال له ان المسلمين الصينيين من اهل السنة وليسوا من الشيعة ، الامر الذى ادهشه كثيرا .

ولكن هناك حججا تبرر مقولة ذلك الفارسى . من ذلك ان المؤرخ المعروف هونغ جيون (١٨٣٩ – ١٨٩٣) فى اواخر عهد اسرة تشينغ ذكر فى كتابه « تصحيحات تراجم اسرة يوان » ما يلى : " ارجح الظن ان المسلمين فى الشرق (اى الصين) من اتباع على اى اهل الشيعة . " وبالاضافة الى ذلك قال باو تشى تشاى فى كتابه « عروق الصينيين » : " ان المسلمين فى الصين اليوم من المذهب الشيعى العلوى . "

ويعزى السبب فى استنتاج هذين العالمين على هذا النحو الى تأثر اهل السنة بالشيعة . ومشاهير علماء الاسلام الصينيين مثل جين جى تانغ وتشاو

بين ووانغ جينغ تشاى كانوا يعترفون بهذه الحقيقة ، وقد اتوا بعدد من الحجج لاثبات وجود التأثيرات الشيعية فى اهل السنة الصينيين :

(١) يفضل المسلمون الصينيون الخضرة على سائر الالوان ، وعليه فان الجبب المعدة لمكملى الدراسات فى المدارس المسجدية فى الصين خضراء دون استثناء . اما اهل السلالة الفاطمية (٩٠٩ – ١١٧١) التى تنتسب الى على بن ابى طالب فيسميهم الصينيون " ليوى يى دا شى" (اصحاب الملابس الخضراء العرب) .

(٢) المسلمون الصينيون يسمون علماء الاسلام " ائمة " وطلاب علوم الدين " خلفاء " ، وهذا يدل على ان الائمة فى نظرهم اعظم من الخلفاء .

(٣) من بين الكتب الاسلامية المتداولة فى المدارس الدينية الصينية كتب باللغة الفارسية نحو « الخطب» و« الاربعون » و«كلستان » و« المرصاد » و« حسين »و«اللمعات» . زد على ذلك ان كلمات " نويت ان اصلى صلاة . . . " قبل الصلاة غالبا ما تستعمل باللغة الفارسية بدلا من العربية . وان كثيرا من الاصطلاحات الدينية عند المسلمين الصينيين فارسية ايضا ، ومنها روزه (الصوم) ونماز (الصلاة) ودوست (الصديق) ووبال (الفقر) . . .

(٤) المسلمون الصينيون شديدو التمسك بما ورد فى تفاسير القرآن الكريم .

(٥) المسلمات الصينيات غالبا ما كن يقمن بنشاطات احياء ذكرى وفاة فاطمة رضى الله عنها .

(٦) اسماء " على" و" حسن" و" حسين" و" فاطمة " اكثر شيوعا وسط المسلمين الصينيين .

(٧) شجاعة على بن ابى طالب كانت دائما ما تتردد على ألسنة

الخطباء . وفى طفولتى رأيت سيفا على شكل سنونو ، كان معلقا على محمل الاسلحة فى بيت مدرب رياضى يعتز بسيفه المنقوش على جانبيه بكتابات عربية حتى انه لا يسمح لأحد بأن يمسه الا باذنه . وقيل انه سيف على المعروف باسم "ذو الفقار" وانه اهداه جبرائيل الى محمد عليه السلام الذى اهداه بدوره الى على رضى الله عنه ، مما جعله يبلى بلاء حسنا فى قتاله ضد المشركين .

(٨) هناك ٨ بنود من اصول الدين دعا المعتزلة اليها ، وهى شائعة وسط المسلمين الصينيين الى حد بعيد . وهذه البنود الثمانية تشدد على الايمان بوحدانية الله والاعتراف بعدالته والايمان برسل الله ، كما تشدد على الاعتراف بالائمة الذين يشار بهم الى على بن ابى طالب و١١ اماما من بعده .

(٩) قال المؤرخ المسلم السيد جين جى تانغ : "يجرى تعليم جميع انواع العلوم فى المدارس المسجدية الصينية ما عدا تاريخ الاسلام ." ورأى ان السبب فى ذلك يعود الى ان المسلمين الصينيين لا يعترفون بشرعية الخلفاء الامويين والعباسيين متأثرين بالتعاليم الشيعية .

(١٠) اشار السيد فنغ تسنغ ليه فى مقالته «٨ مسائل خاصة بالمذهب القديم (التقليدى)» الى ان خطباء المذهب القديم يذكرون فى مواعظهم المهدى احيانا ، وهو نسخة طبق الاصل للامام المنتظر الذى يشكل جزءا من معتقدات الشيعة ، كما اشار فى نفس المقالة الى ان الاثنى عشر اماما من الراشدين شأنهم شأن الخلفاء الاربعة نقلا عن كتاب «مختصر علوم الدين» بقلم ما تشينغ بوه .

وجملة القول ان الشيعة قد تركت اثرها فى اهل السنة من الصينيين . ويعود السبب فى ذلك الى انه من بين المسلمين الذين اتوا من بلاد العرب الى الصين فى الفترة ما بين عهد اسرة تانغ (٦١٨ — ٩٠٧) واسرة يوان (١٢٧١ —

١٣٦٨) عدد من الشيعة نقلوا معهم معتقداتهم وعاداتهم الى الصين . كما قال الشيخ محمد تواضع بانغ شى تشيان فى كتابه « ٩ سنوات فى مصر » : الراجح ان المسلمين الذين اتوا الى سواحل الصين بحرا هم من اهل السنة العرب ، والذين جاءوا الى شمالها الغربى برا هم من الشيعة الفرس . ولكن الفوارق بين هذين المذهبين فى الصين قد تلاشت مع مرور الايام . وعلى الرغم من ان المسلمين الصينيين يدعون بأنهم من اهل السنة ، الا انهم متطبعون بآثار الشيعة حتى زمننا هذا .

والحقيقة ان اهل السنة والشيعة فى الصين قد اندمجوا فى بعضهم بعضا بعد ان تعايشوا سويا ردحا من الزمن . ويعتبر ذلك نادر الوجود فى تاريخ الاسلام العالمى . وكفى به دليلا على ان اسلاف المسلمين الصينيين كانوا يركزون اهتمامهم البالغ على التضامن فيما بينهم دون اية ممارسة للنشاطات التعصبية والتناقضات المذهبية . فجاز لنا القول بأن ذلك من التقاليد الحميدة للمسلمين الصينيين .

٥ ــ تأثر المذاهب الاسلامية الصينية بالحضارة الصينية التقليدية على نحو متفاوت الدرجات

بعد ان دخل الاسلام الى الصين تأثر بالحضارة الصينية التقليدية اى بحضارة هان . هذا وقد اشار ما تشو (١٦٤٠ ــ ١٧١١ ، عالم شهير من قومية هوى قال بأنه من انسال النبى صلى الله عليه وسلم) الى : " ان النبى عليه السلام لا يقف فى وجه تطور الاشياء المستمر مع الدهر " . اما ليو تشى (حوالى ١٦٦٠ ــ ١٧٣٠) ــ عالم من قومية هوى ــ فقد قال : " هناك اشياء محلية تبدو غير ضارة فيجوز قبولها . " وهذه الاشياء المحلية انما يقصد بها الحضارة الصينية التقليدية التى تشتمل على الحضارات الاقليمية

والقومية واللغوية والدينية ، وهى تؤثر فى المذاهب الاسلامية الصينية على نحو متفاوت الدرجات .

فهناك مثلا كثير من مذاهب " منهوان " ، يتمتع زعماؤها بالسلطة الدينية العليا ، ويعتبرون اولياء يبلغون الاسلام نيابة عن الله والنبى عليه السلام . ولا يخفى على احد ان انتقال السلطة فى المجتمع الاقطاعى كان يعتمد على التوارث ابا عن جد على وجه العموم . ولكن وراثة العرش فى الصين كانت مقصورة على الامراء الابكار لدى الاباطرة . وتأثرا بذلك كان من عادة زعماء مذاهب " منهوان " ان يسلموا سلطتهم الدينية الى اولادهم الابكار دون سواهم . ونعرف من ذلك مدى تأثر مذاهب " منهوان " الاسلامية بالتقاليد الاقطاعية الصينية . زد على ذلك ان اتباع بعض مذاهب " منهوان " ومذهب " ايشان " كانوا يركعون امام زعمائهم فى بعض المناسبات ، ويضعون الهدايا عند اقدامهم اظهارا منهم لأمانتهم واحترامهم لهم . ويعتبر ذلك من آداب عامة الناس للاباطرة ، الآداب التى جاءت نتاجا للتأثيرات الكونفوشية .

ولا تفوتنا الاشارة الى ان طائفة " داقونغبى " من القادرية متأثرة بأفكار الفيلسوف تشوانغ تسى (الحكيم الصينى فى قديم الزمان) الى حد بعيد . لقد رأى هذا الحكيم الصينى العظيم انه لا يمكن للمرء ان يعيش حياة هادئة ومطمئنة متفقة مع طبيعته الا بعد ان يتخلص من القيود الاجتماعية ويزهد فى الجاه والمال ويتحرر من الحزن والهموم . كما رأى ان الانسان يحتاج — اذا اراد ان يحيى — الى الضمانات المادية المحددة ، مثل " احتياج النمنمة فى الغابات الى غصن والخلد الى قليل من الماء " تماما . معنى ذلك ان الضمانات المادية ضرورية بالنسبة الى اى نوع من المخلوقات ، ولكنها يجب ان تكون بمقدار الحاجة ، ولو فاضت عن صاحبها لتضرر الى حد بعيد . فمن عادة اصحاب المال والجاه مثلا ان يقدحوا اذهانهم ليل نهار

لرقاية مالهم وجاههم من الاذى والضرر . ويعتبر ذلك طبعا غير صالح لتهذيب نفوسهم وتقوية صحتهم . ولذلك رأى هذا الحكيم الصينى الكبير ضرورة تهذيب النفوس للتوصل الى تهدئة الخواطر . كما رأى لزوم نكران الذات والحياة الدنيا للتقرب الى الرب . اما تشى جينغ يى مؤسس طائفة " داقونغبى" فقد كان يوضح تعاليمه على ضوء فكرة تشوانغ تسى الفلسفية التى تتلخص فى عبارة : "لا تحتاج النمنمة الا الى غصن وهى يعيش فى الغابات ، ولا يحتاج الخلد الا الى قليل من الماء . "

لقد عرف مذهب "شيداوتانغ" باسم "مذهب الحضارة الصينية" لشدة تأثره بالحضارة الصينية التقليدية . وقد درس ما تشى شى (١٨٥٧ — ١٩١٤) مؤسس هذا المذهب جميع انواع الكتب الكونفوشية منذ طفولته حتى دخل الى مصاف اصحاب رتبة "شيو تساى" . وفى سنة ١٨٩١ افتتح ما تشى شى فى موطنه كتابا خاصا من طراز قديم علم فيه الكتب الكونفوشية . وفى الوقت نفسه اقبل على دراسة مؤلفات ليو تشى وهو من علماء الاسلام من قومية هوى — تلك المؤلفات المتأثرة بالتعاليم الكونفوشية الى حد بعيد ، كما بذل اقصى جهده لنشر محتوياتها . وليس هذا فقط بل اعلن فى موجز دستور مذهبه قائلا : "طبقا للمعتقدات الاسلامية يعمل مذهبنا (شيداوتانغ) على ايضاح اصالة الاسلام والدعاية لتعاليم السيد جيه ليان (اى ليو تشى) من مواليد جينلينغ ، ولشريعة الاسلام بثقافة بلادنا . والهدف من ذلك هو احاطة المواطنين الصينيين علما بشريعة الاسلام . " وليس فى الصين مذهب آخر اعلن نشر التعاليم الاسلامية بالثقافة الصينية التقليدية بوضوح ما عدا مذهب "شيداوتانغ" الذى اسسه ما تشى شى . وقد خصص الصحافى الصينى الشهير فان تشانغ جيانغ (١٩٠٩ — ١٩٧٠) بعض الصفحات من كتابه : «الركن الشمالى الغربى من الصين» للتعريف بمذهب "شيداوتانغ" حيث

قال : ان هذا المذهب " جدير بأن يستأثر ببالغ الاهتمام فلسفيا ودينيا واجتماعيا ." ذلك لأنه " يشدد على اهمية الثقافة " و" يقوم بنشر التعاليم الاسلامية اعتمادا على الثقافة الصينية . "

اما المذهب القديم (التقليدى) الذى ينتمى اليه معظم المسلمين من قومية هوى فقد عرف ايضا بأنه متأثر بالثقافة الصينية التقليدية تأثرا عميقا . فبالاضافة الى وجود كثير من الكتب الاسلامية المدونة باللغة الصينية تشرح علم التوحيد واحكام الاسلام بمساعدة الصيغ والاصطلاحات والقواعد الفلسفية الصينية ، فان عادات المسلمين من المذهب القديم (التقليدى) تحمل آثار حضارة هان (اى الحضارة الصينية) . من ذلك ان هؤلاء المسلمين يولولون عند وفاة اقربائهم ، ويلبسون ثياب الحداد ، ويحتفلون بالاعياد غير الاسلامية . . الخ . زد على ذلك ان المنظمات الدينية الطبيعية ومبانى المساجد والتعليم الاسلامى والآثار الدينية والنشاطات الدينية لا تخلو من تأثيرات الحضارة الصينية التقليدية .

وصفوة القول ان المذاهب الاسلامية فى الصين قد تأثرت بالحضارة الصينية التقليدية على نحو متفاوت الدرجات ، ويتمثل ذلك فى مرونتها فى معالجة المسائل الخاصة بالمعاملات . ولكن لا بد لنا من الاشارة الى ان جميع هذه المذاهب ما زالت تتمسك بالمبادئ والتقاليد الاسلامية فى المعتقدات والشريعة على حد سواء ، مما يدل على التزامها بأصالة الاسلام .

الفصل الثالث

معلومات حول المذاهب الاسلامية فى الصين

١ ــ انقسم المسلمون الصينيون الى مذاهب متنوعة متأثرين بالمذاهب

الاسلامية فى بلاد العرب ومنطقة آسيا الوسطى . وهذا يدل على ان تاريخ المذاهب الاسلامية الصينية هو جزء من تاريخ المذاهب الاسلامية العالمية . لذلك فان المذاهب الاسلامية الصينية لا تختلف عن مثيلاتها خارج الصين من حيث تطورها وانواعها ، لأن اغلبية المسلمين الصينيين من اهل السنة واقليتهم من الشيعة ، الى جانب نزر يسير من الصوفيين .

٢ — ليس عرضيا ظهور هذا المذهب الدينى او ذاك ، بل جاء ذلك نتاجا لتفاعل الاساسات الاقتصادية الاجتماعية والعلاقات الطبقية . لهذا كان من الطبيعى ان يتمخض الاسلام عن عدة مذاهب فى مجرى تطوره الطويل الامد فى الصين . فجاز لنا القول بأن نشوء هذه المذاهب هو انعكاس لمختلف انواع التناقضات الطبقية والقومية والتناقضات والصراعات بين هذه الطغمة وتلك من الطبقة الحاكمة فى المسائل الدينية . وحيث ان فى عالمنا هذا اديانا مختلفة ، فلا غرو ان يكون لكل دين مذاهب متنوعة . وهذا قانون ليس فيه اى مجال للشك .

٣ — كان من عادة الطبقة الحاكمة الصينية فى مختلف العصور القديمة ان تنتهج السياسة الرجعية القائلة : " ترويض المسلمين بالمسلمين " وتحدث الشقاق فيما بينهم ، فتضرب هذا المذهب وتستميل ذاك مستغلة الخلافات المذهبية ، مما ادى الى تشتيت صفوفهم وتوسيع التناقضات فيما بينهم حينا والى وقوع الاحداث الدامية الواسعة النطاق بينهم حينا آخر . وبذلك تحقق هدفها الاجرامى : ضرب عصفورين بحجر واحد ، اى اضعاف الطرفين المتخاصمين من المسلمين دفعة واحدة . وكانت مؤامرات الطبقة الحاكمة الصينية هذه قد احدثت جروحا خطيرة فى افئدة المسلمين الصينيين من مختلف القوميات .

٤ — باعتبار ان تاريخ ظهور المذاهب الاسلامية فى الصين ليس

طويلا ، وان الخلافات فيما بينها بسيطة نظريا ، وانها متفاعلة فيما بينها ، وانها جميعا قد تأثرت بالحضارة الصينية التقليدية دون استثناء مع تمسك كل مذهب من هذه المذاهب بالمبادئ والتقاليد الاسلامية حسب تعاليمه ، فان هناك مجالا لتعزيز التضامن بين المسلمين من مختلف المذاهب . ومن الجدير بالذكر ان المسلمين الصينيين فى السنوات الاولى من دخول الاسلام الى الصين كانوا لا يهتمون بالخلافات المذهبية ، بل يتميزون بالصفة الحميدة المتجلية فى الاستكمال من بعضهم بعضا والاعتزاز بالتضامن ، مما شكل تقاليد ممتازة فى تاريخ المسلمين الصينيين . وعلى الرغم من وجود الخلافات والجدالات المذهبية فى التاريخ ، الا انه من الممكن تعزيز التضامن ونشر الاسلام استنادا الى مبدأ " لكل حسب ما قدمت يداه فى سبيل الله " و" التعامل على قدم المساواة " ، ما داموا يمتنعون عن التدخل فى شؤون الآخرين ، ويحترمون بعضهم بعضا ، ويتبادلون المساعدة ، ويتباحثون سوية فى الامور التى تعنيهم .

الباب الرابع

حضارة المسلمين الصينيين

بعد ان دخل الاسلام الى الصين شهد تغيرات كثيرة فى مجرى تطوره الطويل الامد . وعلى الرغم من انه ظل يحتفظ بمزاياه الخاصة ، الا انه تأثر بالظروف الاجتماعية الصينية . وهذا ما جعل المسلمين الصينيين يختلفون عن اخوتهم المسلمين خارج الصين فى بعض النواحى التى سالف ذكرها .

اما حضارة المسلمين الصينيين فقد طرأت عليها تغيرات كثيرة ايضا فى طور نشوئها ، وتشكلت لها مزاياها الخاصة بها . وليس ذلك عرضيا بل هو تجسيد لحتمية التاريخ . ذلك ان الحضارة الاسلامية كلما دخلت الى بلد وتركت اثرها فيه تقيدت بالظروف السياسية والاقتصادية المحلية ، وتحدت الحضارة المحلية ، ثم تفاعلت معها ، واندمجت فيها ، وقبلث منها ما هو مفيد لها من التقاليد فى مجرى اندماجهما . ويعتبر ذلك قانونا لتطور الحضارة العالمية .

لقد قدم المسلمون الصينيون للحضارة اسهامات كثيرة عبر التاريخ ، وهى لا تتمثل فى تأسيسهم نظام الحضارة الاسلامية الصينية الكامل فحسب ، بل تتمثل فى اسهامهم الكبير فى العلوم والتكنولوجيا والادب والفن والثقافة الاجتماعية . وقد انبثق من المسلمين الصينيين عدد كبير من النوابغ فى التاريخ ، كسبوا بمنجزاتهم الباهرة احترام الشعب الصينى . ولا نبالغ اذا قلنا انهم

مبعث فخر واعتزاز للامة الصينية . وبالاضافة الى ذلك اظهرت الجموع الغفيرة من عامة المسلمين الصينيين اعمالهم الخلاقة ومواهبهم اللامتناهية لزيادة الحضارة الصينية زهوا ورونقا .

الفصل الاول

الحضارة الاسلامية الصينية

ان الحضارة هى خلاصة التمدن المادى والروحى ، بينما الدين هو شكل استثنائى ظهر فى مجرى تطور الحضارة البشرية . وعليه فان اى دين من الاديان هو من الايديولوجية الاجتماعية والحضارة معا . اما الحضارة الدينية فهى نتيجة لتاريخ المجتمع وجزء هام من حضارة البشرية الاجتماعية. ولظهور الاسلام وتطوره تأثيرات هامة فى حضارة العالم ، شأنه شأن سائر الاديان . واذ ورث المسلمون الصينيون الحضارة الاسلامية بأمانة واخلاص ، قبلوا حضارة قومية هان وسائر القوميات الصينية الى جانب تأثرهم بحضارة بعض الاديان ، مما ابدع الحضارة الاسلامية الصينية .

ان الحضارة الاسلامية الصينية حضارة معقدة متعددة التركيبات ، مثلها مثل حضارات سائر الاديان . اما الكلمة الطيبة (اى لا اله الا الله محمد رسول الله) فتشكل نواة الحضارة الاسلامية . وما يدور حول هذه النواة هو مجموعة كاملة من الانظمة الفكرية الاسلامية تشتمل على المفاهيم والايديولوجية والنظريات الاسلامية . وما يجسد العقيدة الاسلامية والانظمة الفكرية الاسلامية هو عبادات ومعاملات واحكام ومبادئ خلقية وعادات حياتية . اما المواد

الملموسة التى تظهر الحضارة الاسلامية الصينية فتشتمل على الكتب الدينية مثل القرآن الكريم والحديث الشريف والاعمال الفنية الدينية والمبانى والآثار الدينية . . الخ . فلنتوقف قليلا عند المواد الاسلامية والافكار الفلسفية والعادات الحياتية للمسلمين الصينيين .

١ — مصاحف القرآن الكريم المخطوطة والمطبوعة على الكليشيهات الخشبية وترجمات معانيه الى اللغة الصينية

بما ان القرآن الكريم هو ام الكتب الاسلامية فان المسلمين الصينيين ظلوا يضعون نصب اعينهم نسخه وطبعه على الكليشيهات الخشبية وترجمة معانيه الى اللغة الصينية . وقد احرزوا منجزات عظيمة فى هذا الصدد .

لا يخفى على احد ان تلاوة القرآن الكريم ودراسته واجب على المسلمين . الا ان الحصول على المصاحف كان من الصعوبة بمكان قبل ظهور فن الطباعة . فقد كان نسخ القرآن الكريم من الحسنات فى نظر المسلمين الصينيين . وفى ظل هذا الوضع ظهر فى الصين عدد كبير من نسخ القرآن الكريم المخطوطة ، ومن بينها نسخ منسقة الخط جميلة التجليد .

لقد بدأ المسلمون الصينيون بنسخ القرآن الكريم منذ عهد اسرة يوان (١٢٧١ — ١٣٦٨) على الاقل . وتفيدنا بعض التدوينات التاريخية ان آناندا المتوفى سنة ١٣٠٧ م (وهو حفيد قوبلاى خان) قد اعتاد قراءة القرآن الكريم فى معسكره طول اليوم بعد ان اهتدى بالاسلام . ولكن ليس هناك سبيل الى معرفة ما ان كان المصحف الذى كان يقرأه مستوردا من بلاد العرب ام منسوخا فى الصين . ولكن فى مسجد دونغسى ببكين نسخة من الذكر الحكيم تم انجازها على يد محمد بن احمد بن عبد الرحمن سنة ١٣١٨ م ، وهى اقدم نسخة اكتشفت فى الصين حتى يومنا هذا .

ان مصاحف القرآن الكريم المنسوخة فى الصين جيدة النوعية على وجه العموم . ونظرا الى ان اوراق " شيوان " الصينية المستعملة فى النسخ غير صالحة للكتابة بالاقلام الخيزرانية لرقتها وليونتها وعدم ملاستها كان لا بد للخطاطين من ان يقوموا بتوريق هذه الاوراق اولا وصقلها بالزلط ورقة ورقة لكى تصبح اوراقا سميكة ملساء فى آن واحد . وبعد ظهور المدارس المسجدية فى الصين اصبح نسخ الكتب الاسلامية درسا الزاميا لطلاب العلم فيها . ويومها كانوا يظهرون كل مواهبهم لنسخ القرآن الكريم ، زد على ذلك انهم كانوا يقدحون قرائحهم لزخرفة مخطوطاتهم . من ذلك ان بعضهم قام برسم مختلف انواع الرسوم على هوامش الكتاب ، وبعضهم الآخر استفاد من زرقة الحجر الكريم فى الخط . فلا غرو ان مصاحف القرآن الكريم المنسوخة على ايديهم جميلة ومهيبة جدا . وكان فى بلاط اسرة تشينغ مصحف منسوخ من القرآن الكريم يقع فى ٣٠ مجلدا مغلفة كلها بالحرير الاصفر ، واوراق هذا المصحف جميلة جدا ، وتتكون مخطوطات متونه من المساحيق الذهبية . وقيل ان قيمة الذهب المستعمل فى كل مجلد تبلغ ٢٠٠٠ يوان تقريبا . فجاز لنا القول بأن هذا المصحف هو الاروع من نوعه فى الصين . وقد يكون من فرائد المصاحف المنسوخة فى العالم .

ومن بين المخطوطات الاسلامية فى الصين مصاحف قيمة فنيا . فمسجد لانديانتشانغ فى بكين يفخر بمصحف لديه قد تم نسخه بقلم خيزرانى ، ويقع فى ٣٠ مجلدا . وهو مكتوب بخط قوى جدا ، وتبدو خطوطه النسخية الطراز متناسقة وانسيابية من فاتحة القرآن الى سورة الناس . وحجمه بقياس ٢٦× ١٩٫٥ سم . وفى صدر كل صفحة من صفحاته ٥ سطور وتمتد ٢٠ سم ارتفاعا و١٣ سم عرضا . وجدير بالذكر ان كل حرف مع حركته واضح كل الوضوح . وتيسيرا للقراءة وضعت فيه علامات الوقف الحمراء المتنوعة بجانب متون

القرآن الكريم المكتوبة بالحبر . زد على ذلك ان فى الزاوية اليسارية لكل صفحة من صفحاته كلمة مماثلة لأول كلمة فى الصفحة التالية لئلا يقع خطأ عند التجليد . وفى غرة هذا المصحف دعاء سليم لغة وفحوى ، يبتهل فيه خطاطه الى الله ان يجزيه خير الجزاء ، ويقوم دليلا على مدى اتقانه للغة العربية . ان مثل هذا النوع من المخطوطات الراقية المستوى يمكن رؤيتها فى كثير من المساجد وبيوت المسلمين . وان القيمة الفنية لهذه المخطوطات لا يستهان بها ابدا ، فضلا عن قيمتها الدينية .

وقد جاءت مصاحف القرآن الكريم المنسوخة فى الصين نتاجا للتبادلات الثقافية بين الصين وبلاد العرب ، واسهمت بدورها فى تعزيز الصداقة والتبادلات الثقافية بين الطرفين . فهناك مصحف نسخه خطاط فولكلاورى يدعى " هوا بابا " فى الثلاثينات من القرن العشرين . ونظرا لروعته الفائقة اهداه الشيخ عبد الرحيم ما سونغ تينغ الى الملك فؤاد الاول خلال زيارته لمصر . فسر الملك سرورا كبيرا بهذه الهدية ، واهداه بدوره اعدادا كبيرة من الكتب العربية الاسلامية . وبعد نقل هذه الكتب الى بكين تأسست مكتبة الفؤاد فى مسجد دونغسى ببكين .

لقد صدرت مصاحف القرآن الكريم المطبوعة على الكليشيهات الخشبية تحت اشراف يوسف دو ون شيو (١٨٢٧ — ١٨٧٢) زعيم انتفاضة قومية هوى المسلمة فى مقاطعة يوننان ، وذلك بعد تأسيسه الحكم فى دالى فى اواسط القرن التاسع عشر او بالاحرى فى سنة ١٢٧٩ هـ (١٨٦٢ م) . ويقع هذا النوع من المصاحف فى ٣٠ مجلدا ، وهى الاقدم من نوعها فى الصين . ومما يؤسف له ان هذه الكليشيهات قد التهمتها نيران الحرب فيما بعد .

وفى سنة ١٨٩٥ حصل العالم التربوى المسلم الشهير الشيخ ما ليان يوان (١٨٤١ — ١٨٩٥) على معونات مالية من الاخوين الغنيين ما تشى يوان

وما تشى هوا لنقش الكليشيهات الخشبية الخاصة بالقرآن الكريم . فعهد بهذه المهمة العظيمة الشأن الى اكثر من ٣٠ نقاشا ماهرا من مقاطعة سيتشوان ، وقد اقبلوا على النقش فى مسجد بمدينة كونمينغ ، وتفانوا فى عملهم هذا مدة ثلاث سنوات . ولما كتب خطاط اللغة العربية الشيخ تيان جيا بى الآيات القرآنية على الاوراق بكل انتباه ، سلمها الى الشيخ ما ليان يوان فى قرية داينغ بمحافظة يويشى للمراجعة ، ثم اوصى شخصا بايصالها الى مدينة كونمينغ حيث لصقت على الالواح الخشبية المعدة مسبقا ، بصورة معكوسة ، ثم جرت تغطية كل لوح بقطعة من القماش . وترك سطر واحد من الكتابات ظاهرا للعيان تيسيرا للنقش . وكلما انجز احد النقاشين المتطهرين نقش سطر ، غطاه بالقماش ، ثم رفع عن السطر الآخر ما يغطيه من القماش . وبعد ان اكمل نقشه قام بتغطيته بالقماش ، وهلم جرا . ولما تم نقش كافة الآيات القرآنية على الالواح الخشبية ، قام الحاج شا تشو شيوان بمراجعتها مرارا وتكرارا لئلا يحدث اى خطأ مطبعى .

ان مصاحف القرآن الكريم المطبوعة على هذه الكليشيهات الخشبية مميزة بالسمات الصينية . ولا يتجلى ذلك فى تجليدها الكلاسيكى الطراز فحسب ، بل فى ان خطوطها العربية ذات الميزة الصينية قوية ، تشرح الصدر وتسر النفس ، وتبدو كأنها كتبت دفعة واحدة . زد على ذلك ان الاوراق المستعملة فى طباعة هذه المصاحف هى الاوراق المنتجة محليا والتى جرى توريقها باللصاق حتى اصبحت كل ورقة منها ثلاثية الطبقات . وقد تم تغليف هذه المصاحف بالقماش الراقى . ويفيدنا تحقيق اجرى فى غضون ثلاثة اشهر ابتداء من اغسطس ١٩٨٤ ان عدد كليشيهات هذه المصاحف يبلغ ١٩٤٦ قطعة ، تشتمل على ٣٥٧١ صفحة ، وان حفظ هذه الكليشيهات حتى الآن دون نقص على كر العصور لهو مثار الاعجاب ! فيحق لنا القول

بأنها من تراث المسلمين الصينيين القيم ومن روائع التحف الاسلامية الصينية .
وقد علق عالم الآثار الشهير شن تشونغ ون (١٩٠٢-١٩٨٨) على هذه الكليشيهات بتأثر : " انها كليشيهات لا مثيل لها فى الصين ، ولسوف تترك اثرها الهام فى التبادلات الصينية - الاجنبية بلا شك . "

اما ترجمة معانى القرآن الكريم الى اللغة الصينية فقد مرت بثلاث مراحل على وجه التقريب . وهى : ترجمة بعض الآيات القرآنية وترجمة القرآن الكريم جزئيا وترجمته كليا . وقد اقبل علماء الاسلام الصينيون فى اواخر عهد اسرة مينغ واوائل عهد اسرة تشينغ على ترجمة ما اوردوه فى مؤلفاتهم وترجماتهم من الآيات القرآنية الى اللغة الصينية . ثم بدئ بترجمة معانى القرآن الكريم جزئيا الى اللغة الصينية فى الفترة ما بين النصف الثانى من القرن التاسع عشر واوائل العشرينات من القرن العشرين . ويشار بالترجمة جزئيا الى ترجمة " ختم القرآن الكريم " (اى مختارات من الآيات القرآنية وهى شائعة بين عامة المسلمين الصينيين) ، وتنقسم الى نوعين : احدهما هو تهجية هذه الآيات القرآنية بالمقاطع الكتابية الصينية . والآخر هو ترجمة معانى هذه الآيات القرآنية الى اللغة الصينية الى جانب تهجيتها بالمقاطع الكتابية الصينية . وعلى الرغم من ان الشيخ ما فو تشو (١٧٩٤ - ١٨٧٤) فى عهد اسرة تشينغ كان يحاول ترجمة معانى القرآن الكريم كليا الى اللغة الصينية ، الا انه لم يترجم الا ٢٠ مجلدا منه (وما بقى من ترجمته حتى الآن لا يتجاوز ٥ مجلدات) . وقد سمى هذا المترجم ترجمته بـ « تأويل القرآن الكريم المباشر » . وفى العشرينات من القرن العشرين قام عدد من غير المسلمين بترجمة معانى القرآن الكريم الى اللغة الصينية من ترجمات معانيه اليابانية والانجليزية . ولكن ترجماتهم غامضة ولا تؤدى الى معانى القرآن الكريم بسبب جهلهم اللغة العربية وعلوم الدين الى جانب استفادتهم من اللغة الصينية الكلاسيكية . ولم تكن لتراجمهم

شعبية واسعة لقلة النسخ المطبوعة منها . اما الشيخ وانغ جينغ تشاى (١٨٧٩ — ١٩٤٩) من قومية هوى المسلمة فهو مضرب المثل فى ترجمة معانى القرآن الكريم . وقد عرفنا من مقالته «موجز تاريخ ترجمتى معانى القرآن الكريم» انه شارك الشيخ هاى سى فو والشيخ شا جين تشانغ فى ترجمة معانى القرآن الكريم منذ سنة ١٩١٧ حتى انجزوا ترجمة معانى الكتاب من فاتحته الى خاتمته ، ولكن ترجمتهم هذه لم تتح لها فرصة للصدور . ومنذ سنة ١٩٢٦ قام الشيخ وانغ جينغ تشاى بترجمة معانى القرآن الكريم الى اللغة الصينية الكلاسيكية ومثيلتها العصرية واللغة الخاصة بالتعليم الاسلامى الصينى . وتنقسم ترجماته هذه الى اربعة طرز : "أ" و "ب" و"ج" و"د" . وقد صدرت ترجماته من طراز "أ" و"ب" و"ج" فى سنة ١٩٣٢ و١٩٤٣ و١٩٤٦ على التوالى . وكانت ترجمته من طراز "ج" اوسع شعبية من اخواتها ، ذلك انها مكتوبة باللغة الصينية العصرية ومطبوعة على الكليشيهات الرصاصية فى شانغهاى ، وتتألف من اكثر من مليون كلمة صينية . وهى لا تشتمل على معانى القرآن الكريم فحسب ، بل ترى فيها التفاسير والحواشى . وحين اعيد طبع ترجمة الشيخ وانغ جينغ تشاى هذه فى هونغ كونغ سنة ١٩٧٥ اضيف اليها فهرس الآيات القرآنية الذى ألفه الحاج ماى ده لين . وبالاضافة الى ترجمات الشيخ وانغ جينغ تشاى هناك ترجمة للسيد ليو جين بياو صدرت فى مطبعة شينمين ببكين سنة ١٩٤٣ ، وترجمة للشيخ يانغ تشونغ مينغ صدرت فى شركة النشر الاسلامية ببكين سنة ١٩٤٧ ، وترجمة للاستاذ محمد مكين صدرت فى دار النشر الصينية للعلوم الاجتماعية سنة ١٩٨١ ، وترجمة للسيد شى تسى تشو طبعت فى تايبى سنة ١٩٥٨ واعيد طبعها فى هونغ كونغ سنة ١٩٧٥ ، الى جانب ترجمة موزونة للسيد لين سونغ طبعت مع نص القرآن الكريم الاصلى فى دار النشر التابعة للمعهد القومى المركزى سنة ١٩٨٨ .

لقد كانت تراجم معانى القرآن الكريم الى اللغة التشاوتية والتتارية متداولة وسط المسلمين فى شينجيانغ ، ولكن ترجماتها الى اللغة الويغورية قد حلت محلها فيما بعد ، وترجمة الشيخ شمس الدين هى الاشهر من نوعها . وفى سنة ١٩٨٦ قام العالم الاسلامى محمد صالح من قومية الويغور بترجمة معانى القرآن الكريم الى اللغة الويغورية العصرية ، وقد طبعت مع النص الاصلى للكتاب الكريم ، وهى تحظى بالاقبال الشديد من المسلمين المحليين من مختلف القوميات .

وبالاضافة الى ذلك ظل المسلمون الصينيون يركزون الاهتمام على طبع وترجمة الاحاديث النبوية والكتب الاسلامية الاخرى . ومن بين الاحاديث المطبوعة فى الصين « احاديث خاتم الانبياء » المطبوع على الكليشيهات الخشبية تحت اشراف مسجد مدينة تشنجيانغ سنة ١٨٩٣ و« سنة خاتم الانبياء » المطبوع تحت اشراف الشيخ ما ليان يوان سنة ١٨٩٤ ، و« الاربعون » المطبوع على الكليشيهات الحجرية سنة ١٩٣٥ تحت اشراف ما يوى لونغ فى دار الكتب والصحف الاسلامية فى بكين . ومن بين الاحاديث المترجمة الى اللغة الصينية « توضيح الاحاديث» و« احاديث الاربعين النووية » و« التاج الجامع للاصول فى احاديث الرسول » (تم تأليفه على يد المحدث المصرى الكبير منصور وترجمته على يد المرحوم الاستاذ الصينى امين تشن كه لى) و« جواهر البخارى وشرح القسطان » (قام بترجمته محمد صالح وباو ون آن) .

٢ ــ التحف الاسلامية الصينية

لقد ابدع قدامى المسلمين الصينيين فى حياتهم الدينية والاجتماعية الطويلة الامد كميات كبيرة من الادوات الفنية الزخرفية المميزة بالسمات

الاسلامية والصينية معا ، منها صناديق كتب ومباخر ويافطات ونقوش وانصاب صخرية وغيرها من روائع التحف الاسلامية الصينية .

اما صناديق القرآن الكريم لدى المسلمين الصينيين فقد ابدعت استلهاما من صناديق الكتب وصناديق المرايا وصناديق المحابر ، ومنها نماذج رائعة التصميم دقيقة الصنع . وقد القى فنغ تشنغ ليه عالم الاسلام المعاصر فى مقالته « بحث موجز حول التحف الاسلامية من طراز هان » الضوء على ثلاثة اصناف من صناديق القرآن الكريم ، يبدو بعضها على شكل صندوق كتب عادى وبعضها الآخر على شكل قصر او على شكل لوحة مكتبية زخرفية . وتتجلى مزايا هذه الصناديق فى انها صنعت من خشب الجوز وخشب النانمو (نوع من الخشب الراقى) ، وتصاميمها تجمع بين سمات الحضارة الصينية والحضارة العربية الاسلامية الى جانب دقة نقوشها وصناعتها . فهناك صندوق للقرآن الكريم مرصع فى اعالى واجهته بدوبيت عربى زخرفى من عظام السمك ، وتبدو قمته على شكل غرفة مستطيلة ، وفى وسط سطحها برج مخروطى الشكل . وهناك صندوق للقرآن الكريم على شكل قصر صينى الطراز له سقف مرفوع الافاريز وقاعدة رباعية الارجل . ويرى على واجهته ٥ ابواب مركبة بالزجاج فى اجزائها العلوية المخرمة ، وبالالواح الخشبية فى اجزائها السفلية الصامتة . وامام هذه الابواب دهليز يبعد عنها ١٠ سم ويقوم على اربعة اعمدة مستديرة فى الزوايا الاربع . ولا تفوتنا الاشارة الى ان جميع الزخارف الخشبية والدرابزينات والاعمدة جيدة النحت ، مما اظهر مهارة النحات الفائقة .

اما المباخر التى لا غنى للمسلمين الصينيين عنها عند تلاوة الآيات القرآنية ، فهى صغيرة الاحجام على وجه العموم . وما يمكن رؤيته من المباخر الكبيرة حاليا هو مبخرة فى مسجد نيوجيه بيكين تزن ٧٥,٢٥ كغ . وتنقسم

مباخر المسلمين الصينيين الى مباخر نحاسية ومباخر مموهة بالذهب ومباخر خزفية ومباخر مموهة بالمينا الزرقاء ومباخر خشبية من حيث موادها ، والى مباخر منبسطة ومباخر راقودية الشكل ومباخر اسطوانية الشكل ومباخر اصيصية الشكل ومباخر ثلاثية الارجل من حيث اشكالها . وعلى الرغم من ان هذه المباخر هى طبق الاصل للمباخر الصينية التقليدية الا ان جميع جدرانها مزخرفة بـ " الكلمة الطيبة " والآيات القرآنية . وهناك تشكيلات من ادوات البخور الثلاثية وهى تضم القنانى المحتوية على مجارف رماد البخور والعلب المعدة لخزن بخور الصندل الى جانب المباخر . وهذا النوع من الادوات المجمعة غالبا ما يصنع من النحاس الاصفر او النحاس الاحمر . ويبلغ ارتفاع المباخر حوالى ٢٠ سم ، وقطر محيطها حوالى ٧٥ سم فى اغلب الاحيان. وترى " الكلمة الطيبة " والتسابيح الالهية على جدران القنانى والمباخر واغطية العلب . وجدير بالذكر ان ادوات البخور الثلاثية هذه عادة ما توضع على القواعد الخاصة بها ، مما يزيد من زخرفتها الى حد بعيد .

ومن عادة اهل الصين ان يزخرفوا مبانيهم بالالواح الافقية والرأسية المنقوشة بالكتابات . واستلهاما من ذلك ابدع المسلمون الصينيون انواعا شتى من الالواح المنقوشة بالكتابات العربية والدوبيتات الزخرفية المخطوطة بنفس الكتابات . وبما ان الصينيين من ابناء قومية هان عادة ما يزخرفون العتبات العليا لأبواب بيوتهم باليافطات المخطوطة بكلمات مباركة مثل " يا ليتنا محظوظون جيلا بعد جيل " و" لعل الحظ الوفير يحالفنا " ، فان المسلمين الصينيين يزخرفون العتبات العليا لأبواب بيوتهم وابواب مساجدهم ومطاعمهم باليافطات المخطوطة بالعبارات العربية مثل : " بسم الله الرحمن الرحيم " و" لا اله الا الله محمد رسول الله " و" اللهم افتح لنا ابواب الرحمة " .. الخ . ولو انك ذهبت الى مسجد تشينغشيو بمدينة شيآن لوجدت فيه لوحا

بقياس ٩٠ × ٦٠ سم يعود تاريخه الى عهد اسرة مينغ (١٣٦٨ - ١٦٤٤) ، وترى عليه كتابات عربية مثل " الله " و" محمد " و" ابو بكر" و" عمر" و" عثمان" و" علي" . والطريف ان حروف هذه الاسماء تتشابك فيما بينها بكل مهارة . وفي زاوية اللوح اثر لختم الخطاط .

وتعرض في عدد كبير من بيوت المسلمين الصينيين لافتات زخرفية تضم كتابات عربية ، وفي اعلاها كلمة "شو" (العمر المديد) . ومن اجل كتابة هذا النوع من اللافتات لا بد للخطاط من ان يرسم خطوطا محيطية غليظة لكلمة "شو" الصينية اولا وقبل كل شيء ، ثم عليه ان يقسم الفراغات بين الخطوط المحيطية الى ثلاثة اجزاء : خارجي وداخلي واوسط ، ويملأ الجزأين الخارجي والداخلي بالخطوط العربية ، ويترك الجزء الاوسط فارغا . وبعد الكتابة تبدو هذه الكلمة الصينية المكونة من الكتابات العربية في غاية الروعة والمهابة . وعادة ما تعلق على جانبي لافتة "شو" عبارتان عربيتان متوازيتان على اشكال معينة .

ويعتبر ذلك خير دمج بين الحضارة الاسلامية والحضارة الصينية . وبالاضافة الى ذلك هناك لافتات رأسية رباعية او ثمانية الاجزاء ولافتات افقية مكتوب على ارضيتها الحمراء بخطوط منسقة ذهبية اللون . وهناك خطاطون قاموا بكتابة العبارات العربية على شكل دائري او مربع او معين او صليبي ، مما يزيد من زخرفتها الى ابعد حد .

ومن بين الذخائر الثقافية للمسلمين الصينيين عدد كبير من الاختام المنقوشة بالكتابات العربية . فأختام الويغوريين منهم تنقسم الى شكلين مستدير ومربع على وجه العموم ، وهي اما ان تنقش بأسماء اصحابها باللغة الويغورية المكونة من الحروف العربية واما ان ينقش على النصف العلوي منها اسماؤهم الويغورية وعلى النصف السفلي منها اسماؤهم الهانية (الهانية

هى اللغة الدارجة فى كل انحاء الصين) . وقد خاف يوسف دو ون شيو زعيم انتفاضة قومية هوى المسلمة فى مقاطعة يوننان ختما من الذهب الخالص مقاسه ١٠ × ١٠ × ١٠ سم ووزنه ٨٦ تايلا (وحدة وزن صينية تعادل ١٫٣٣ اونس) ، وينقسم سطحه الى جزأين يمينى ويسارى ، ترى على الجزء الاول مقاطع كتابية هانية : " تسونغ تونغ بينغ ما دا يوان شواى" (المارشال دو قائد القوات الاعلى) ، وعلى الجزء الثانى كتابات عربية : " قائد المسلمين " وهى من المخطوطات العربية الجميلة من طراز صينى .

لقد شكل فن الخط العربى وفن الرسم للمسلمين الصينيين فنا اسلاميا فريدا فى الصين بفضل اندماج احدهما فى الآخر . ومن بين الاعمال الفنية الاسلامية الصينية : سفينة نوح عليه السلام و " ذو الفقار" المكون من الكتابات العربية والبسملة على شكل 山 ، وهذه الاعمال الفنية تعلق على جدران كثير من مساجد الصين . ومن بينها رسوم للحياة الساكنة تماثل رسوم الازهار الاصطناعية لدى ابناء قومية هان . وتشتمل محتويات هذه الرسوم على زهريات صينية الطراز ومباخر طويلة الارجل واوعية خزفية ومرايا . وجميع هذه الرسوم ترمز الى الخير والبركة . وعلى هذه الاعمال الفنية الاسلامية كتابات عربية مرتبة على شكل رأسى ، وتختلف اساليبها بعض الشىء وان كانت من قبيل الخط الرقعى . وهناك نماذج من الرسوم الاسلامية ترى على زواياها العليا الى اليمين كتابات مثلما تلاحظ على نفس المواقع من الرسومات الصينية التقليدية ، ولكن هذه الكتابات عربية وليس صينية . زد على ذلك ان هناك اعمالا فنية اسلامية لا ترى عليها كتابات عربية ، ولكن صبغاتها الدينية قوية جدا . من ذلك ان رسوم بعض الشارات على واجهات المطاعم الاسلامية تتكون من مصحف من القرآن الكريم ووعاء للوضوء ومبخرة تستعمل عادة عند تلاوة الآيات القرآنية ، الى جانب زخرفتها بالكتابات الصينية التالية : " تشينغ

تشن هوى هوى" (قومية هوى المسلمة) او "تشينغ تشن قو جياو" (دين الاسلام العريق) او "شي يوى هوى هوى" (قومية هوى المسلمة القادمة من المنطقة الغربية) .. الخ .

وهناك كثير من الانصاب الصخرية الاسلامية الصينية الرائعة حسب ما ورد فى «النقوش الصخرية الاسلامية فى تشيوانتشو» . ولو ذهبت الى مسجد زقاق مياوجيا خارج البوابة الجنوبية لمدينة تشنجيانغ للفت نظرك نصب صخرى يبلغ ارتفاعه ١٣٠ سم وعرضه ٥٨ سم وسماكته ١٥ سم ، تبدو قمته على شكل قبة ، وقاعدته على شكل مربع ، مما يرمز الى السماء المقببة والارض المربعة حسب تصور قدامى الصينيين لهما . وتزخرف حواشيه بالرسوم النباتية وفى صدره ثلاث مجموعات من الكتابات العربية ، منها "بسم الله الرحمن الرحيم" وهى مكتوبة فى اطار على شكل زهرة اللوطس ، و"والهكم اله واحد لا اله الا هو الرحمن الرحيم" (آية ١٦٣ من سورة البقرة) وهى مكتوبة فى اطار على شكل بدر ، وكلمتا "اسجدوا" و"اعبدوا" وهما مكتوبتان فى اطار على شكل معين . وهذه الكتابات ان دلت على شىء ، فانما تدل على ان النصب الصخرى المذكور كان قائما فى محراب المسجد . وتتجلى روعة هذا النصب فى دقة نقوشه وبدعة رسومه ، وقوة كتاباته فى اطار زهرة اللوطس وجمال كتاباته فى اطار البدر ، وكلاسيكية كتاباته فى اطار معين الشكل . وجملة القول ان هذه الكتابات العربية تسر الناظرين الى ابعد الحدود بخطوطها المميزة بالسمات الصينية . ولا تفوتنا الاشارة الى ان الافكار الصينية التقليدية قد تركت اثرها فى هذا النصب الصخرى الاسلامى بزخرفته بشكل زهرة اللوطس التى غالبا ما يرمز بها الصينيون الى صاحب الصفات الحميدة التى لا تشوبها شائبة ابدا فى اى ظرف من الظروف ، وذلك ان هذه الزهرة ناصعة البياض وان كانت تنمو فى الوحل .

ان مثل هذا النوع من التحف الاسلامية متوفر فى كافة المناطق المأهولة بالمسلمين من هوى والويغور وغيرهما من القوميات . وهى مميزة بالصبغات الاسلامية القوية ، كما انها زاخرة بالسمات الصينية . ولها قيمة استعمالية وزخرفية فى آن واحد ، مما يجسد مواهب المسلمين الصينيين . فجاز لنا القول بأن هذه التحف هى جزء هام من الحضارة الاسلامية الصينية كما هى من فرائد حضارة الامة الصينية .

٣ ــ عادات المسلمين الصينيين

يشار بعادات اى قومية الى تقاليدها فيما يختص بالحضارة المادية والتمدن المعنوى والحياة الاجتماعية . . الخ . وهى تنعكس فى ازياء ابناء هذه القومية ومأكولاتهم ومساكنهم ووسائل انتاجهم وزواجهم وتناسلهم وضيافتهم ونشاطاتهم الترويحية واعيادهم وجنائزهم وتحريماتهم . فهناك قوميات تظهر عاداتها ثقافتها وفنونها ، وهناك قوميات ترتبط عاداتها بعقيدتها الدينية ارتباطا وثيقا . اما عادات القوميات المسلمة فى الصين فقد تأثرت بالاسلام على نحو مباشر وغير مباشر . من ذلك ان الشؤون الادارية والقضائية والحرف اليدوية والتجارة والتربية والتعليم فى المجتمع الويغورى قبل تأسيس الصين الجديدة كانت خاضعة للشريعة الاسلامية دون استثناء . وليس هذا فقط بل كانت معالجة شؤون التجارة والرهن والاقتراض والزواج والجنازة وانتقال الملكية والوراثة ورفع الدعاوى لا تتم الا بحضور رجال الدين . اما تأثير الاسلام فى العوامل النفسية المشتركة لدى ابناء قومية هوى واسلوب حياتهم فهو واضح كل الوضوح . والدليل على ذلك ان جرأتهم على الاستثمار والتقدم الى الامام ، وشدة حماستهم للذود عن قوميتهم ودينهم وامتيازهم بالتقاليد الوطنية ، وتفوقهم فى التضامن القومى ، وبراعتهم فى ممارسة النشاطات التجارية ،

ومحافظتهم على تقاليد حب النظافة والعناية بالصحة وصمودهم للمصاعب والمشقات ، ومروءتهم وسعة صدورهم وتفاؤلهم ومرحهم واهتمامهم بالادب . . الخ ، كل هذا له علاقته بالاسلام ، وان كان هناك عوامل اخرى تركت اثرها فى تكوين جبلاتهم هذه . وللاسلام تأثير مماثل فى حياة القوميات المسلمة الصينية الثمانية الاخرى وعاداتها . ان حضارة الاسلام قد تغلغلت حقا فى حياة وعادات جميع المسلمين الصينيين من مختلف القوميات ، واصبحت جزءا هاما من حضارتهم القومية .

تشتمل الاعياد الاسلامية فى الصين على عيد الفطر وعيد الاضحى وذكرى مولد النبى عليه السلام . اما شهر رمضان فيبتدئ وينتهى برؤية الهلال حسب ما جاء فى حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم . ففى عيد الفطر الذى اصبح عيدا قوميا للمسلمين الصينيين تراهم يتدفقون الى المساجد وهم فى ازيائهم القومية النظيفة لأداء صلاة العيد وللاستماع الى المواعظ الحسنة من الخطباء . واثر ذلك يتوجهون الى المقابر لزيارة امواتهم ، ثم يتزاورون ويتعايدون . وجدير بالذكر ان عائلات المسلمين فى الصين غالبا ما تصنع الكعك والشعيرية المقلية فى عيد الفطر لتكريم الضيوف او لاهدائها الى الاقارب . وقد حددت الحكومة الشعبية عطلة للمسلمين فى العيد تتراوح بين ١ و٣ ايام ، وليس هذا فقط بل تبيعهم خلال ذلك كميات محددة من الزيت والدقيق بالسعر الرسمى .

يسمى المسلمون الصينيون عيد الاضحى بـ "عيد القربان" او عيد "الاخلاص والاحسان" . . الخ . وقد اصبح هذا العيد عيدا تقليديا للقوميات المسلمة الصينية . وتجد المسلمين فى الصين يتدفقون فى عيد الاضحى الى المساجد فى ازيائهم النظيفة لأداء صلاة العيد وللاستماع الى المواعظ الحسنة . وعقب ذلك يتزاورون ويتعايدون . اما المسلمون الميسورو الحال فعادة ما يذبحون الابقار او الاغنام او الجمال ، ويهدون من لحومها الى اقربائهم

واصدقائهم ، كما يوزعون منها على الفقراء والمساكين الى جانب احتفاظهم بكميات منها لأنفسهم . ويستغرق عيد الاضحى فى شينجيانغ والمناطق الاخرى فى شمال غربى الصين اسبوعا كاملا ، مما يقدم دليلا على مدى اهتمامهم بهذا العيد . ومن عادة المسلمين من قومية قازاق والقرغيز والطاجيك ان يقوموا بنشاطات رياضية كاختطاف الخروف عن ظهر الحصان وسباق الخيل احتفالا بهذا العيد المبارك .

وعادة ما يحتفل المسلمون الصينيون بمولد النبى عليه السلام ، ويحيون ذكرى وفاته فى آن واحد ، ويسمون هذا النوع من النشاطات بـ " المهرجان النبوى" . وفى هذه المناسبة يجتمعون فى المساجد للاستماع الى قراءة القرآن الكريم وتمجيد النبى عليه السلام . وتقام فى بعض المناطق ولائم فى هذه المناسبة .

وبالاضافة الى الاعياد الثلاثة المذكورة يحتفل المسلمون الصينيون بيوم عاشوراء وبذكرى المعراج وبالبراءة (اى ليلة النصف من شعبان) وليلة القدر وذكرى فاطمة رضى الله عنها .

وتختلف طرق الاحتفال بهذه الاعياد باختلاف القوميات والمذاهب الدينية . والمتصوفون فى شمال غربى الصين يحترمون دراويشهم ومرشديهم احتراما شديدا ويخاطبونهم بـ " الشيوخ" و" الاولياء " و" الرؤساء" .. الخ . ولا يكتفون بتشييد المبانى المقببة الى جانب قبورهم بل يتبرعون عادة بالاموال لتنفق فى ذكرى اعياد ميلادهم عن طريق اقامة الولائم الدينية .

ولا يفتر المسلمون الصينيون فى اجراء عمليات الختن لأولادهم اليافعين عملا بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ويأكل المسلمون الصينيون القمح والرز والذرة ولحوم الابقار والاغنام والدجاج والبط والسمك ، شأنهم شأن بنى وطنهم من غير المسلمين ، ويمتنعون



ضريح صاحب الفضيلة بهاء الدين فى يانغتشو



ضريح البحار تشنغ خه فى نانجينغ

ضريح محمد الكاشغرى



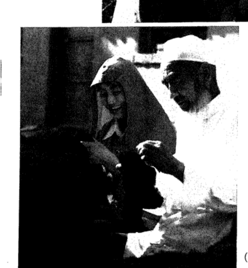
الكتابات العربية على جدران مسجد تشنجيانغ فى جيانغسو



قبعات مطرزة محببة الى الويغوريات فى بويتيان من منطقة شينجيانغ الويغورية الذاتية الحكم



عروس من قومية هوى المسلمة فى منطقة نينغشيا الذاتية الحكم لقومية هوى



يا لوفرة النسطوك (نوع من الخضروات)



فتاتان ويغوريتان

مسجد غاص بالمصلين



مطربة من قومية الطاجيك المسلمة تغنى بملء حنجرتها



فتاتان من قومية دونغشيانغ
المسلمة تمعنان النظر فى
تطريزاتهما الجميلة

خناجر قومية باو آن
معروفة للدانى والقاصى

عن اكل لحم الخنزير والكلب والبغل والحمار والحيوانات المفترسة والاحياء المائية الغريبة الشكل والميتة والدم وما اهل لغير الله به . ولكن لحم الخنزير هو اشد ما يدعو الى التقزز لدى المسلمين الصينيين . وذلك لسبب دينى من جهة ، ولدافع من الخلفيات التاريخية والظروف الاجتماعية فى الصين من جهة اخرى . وحيث ان ابناء قومية هان (اكبر قومية فى الصين) يأكلون لحم الخنزير منذ قديم الزمان فقد كانت الطبقة الحاكمة دائما ما تحرض على اهانة المسلمين الذين يمتنعون عن اكل هذا اللحم ، مما اثار حوادث كثيرة ضد المسلمين اتيحت فيها فرصة قمعهم قمعا دمويا . وفى ظل هذا الوضع ازدادت كراهية المسلمين للخنزير حتى انهم اصبحوا يعتبرون مجرد الحديث عن لحم الخنزير امامهم اهانة لهم . هذا وقد اصبح الامتناع عن لحم الخنزير ميزة خاصة بحياتهم فى نهاية الامر ، تميزهم عن غير المسلمين . ولذلك شدد رئيس مجلس الدولة الراحل شو ان لاى فى خطابه « حول المسائل الخاصة بالسياسة القومية فى الصين » على هذا الامر قائلا :
" لا بد لنا من احترام عادة قومية هوى وقوميات شينجيانغ المسلمة المتمثلة فى الامتناع عن لحم الخنزير . "

وللمسلمين الصينيين ولع خاص بالشاى . وهم لا يكتفون بشربه ، بل يكرمون به الضيوف ايضا . فالمسلمون فى منطقة نينغشيا الذاتية الحكم لقومية هوى يفضلون شرب الشاى بالسلطانيات ذات الاغطية ، وغالبا ما ينقعون فيه التمر الاحمر واللونغآن (نوع من المجففات) والسكر مما يزيد من لذة طعمه الى حد كبير . ويسمون " طلب اليد للزواج" بـ " شوه تشا " (الحديث عن الشاى) ، و" عقد الخطبة " بـ " دينغ تشا " (حجز الشاى) او " خه شى تشا " (شرب الشاى الخير) . زد على ذلك ان الهدايا المقدمة من اهل الخاطب الى اهل الخطيبة لا بد ان تشتمل على كميات من الشاى . وكفى

بذلك دليلا على اهمية الشاى فى حياة المسلمين من قومية هوى . وهم يمتنعون عن الخمر عملا بالآية القرآنية التالية : " ان الخمر والميسر والانصاب والازلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه . " غير انهم يرون ان المشروبات المصنوعة من عصير التمر والعنب واللبن حلال . ويمتنع المسلمون الصينيون عن تعاطى الافيون والمورفين والهيروبين وغيره من المخدرات لأنها تؤدى الى تبديد الاموال وتضر بالصحة وتفسد الاخلاق وتضعف الايمان وتحمل على الكفر . وليس هذا فقط ، بل يعارض المسلمون الصينيون تدخين السجائر ، ولذلك فان المدخنين ، وهم لا يمثلون الا قلة قليلة منهم ، لا يدخنون فى داخل المساجد او امام الائمة ابدا .

وتعتبر مراسم المسلمين الصينيين التقليدية فى الزواج من ابهى عاداتهم . وعلى الرغم من ان لجميع القوميات المسلمة مراسم مشتركة فى الزواج ، الا ان لكل منها ميزات خاصة فى هذه الناحية تكونت فى مجرى تطورها الطويل الامد . وقد اصبحت مختلف المراسم الزواجية جزءا من الحضارة الاسلامية الصينية .

وتتجلى المزايا المشتركة لمراسم الزواج لدى هذه القوميات فى تأثرها بنظام الزواج الاسلامى . فلا يخفى على احد ان الاسلام يدعو الى السعى وراء السعادة فى دار الفناء والبقاء ، وعليه فان الزواج باذن الله وبسنة النبى عليه السلام وسنن الانبياء عليهم السلام . هذا وقد اشار ليو تشى — احد العلماء المرموقين فى الصين — الى " ان الزواج هو اهم شىء فى الحياة الدنيا . . وسنة للانبياء من مختلف العصور ، فلا يجوز الغاء الزواج ، وان الغاءه بدعة . " ويرى ابناء القوميات المسلمة فى الصين ضرورة الزواج بين المسلمين والمسلمات. ويحرم على المسلمات ان يتزوجن بغير المسلمين قطعا . فلا يمكن لأى مسلم ان يتزوج بغير مسلمة الا بعد ان تسلم ، ولا يمكن لأى مسلمة ان

تتزوج بغير مسلم الا بعد ان يسلم . وفى التجمعات الاسلامية الصينية لا يتم عقد الزواج الا عن طريق وسيط الزواج وموافقة الطرفين . وعلى الرغم من ان المسلمين يطبقون النظام الاحادى الزوجة حسب القانون الصينى الا انهم لا يجدون مانعا من تعدد الزوجات حسب ما جاء فى القرآن الكريم : " فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع فان خفتم ألا تعدلوا فواحدة " . ويرى المسلمون الصينيون انه على الزوجين ان يتحابا فى حياتهما المشتركة . ولا يتم الزواج الا بعد اجراء سلسلة من العمليات والمراسم تشتمل على طلب اليد وعقد الزواج وكتابة شهادة الزواج وقراءة الخطبة وتوزيع المأكولات (الجوز والتمر . . الخ) على المهنئين واحضار العروس واقامة وليمة العرس . وعادة ما تقام مراسم القران فى بيت العروس او فى المسجد شريطة ان يرأسها الامام ويشهدها . وخلال ذلك لا بد للامام من ان يسأل العروسين عما اذا كانا راضيين بالقران بينهما ام لا . فاذا كان جوابهما " نعم " صح الزواج . اما ولائم الاعراس عند المسلمين الصينيين فهى فاخرة فى اغلب الاحيان ، الا انها تخلو من الخمور والسجائر خلافا لولائم غير المسلمين فى الصين . ومن عادة المسلمين الصينيين ان يختاروا يوم الجمعة لطلب اليد للزواج وعقد الخطبة والزواج تبركا به ، والا يختاروا الايام التى يراها الصينيون من غير المسلمين مباركة . وما يفضلونه هو ان يتعايش الزوج والزوجة فى محبة وألفة مدى حياتهما ، وان يبتعدا عن التفكير فى الطلاق وان كان الطلاق مباحا فى نظرهم وفقا لما جاء فى القرآن . والزوج من ابناء القوميات المسلمة فى الصين هو الذى يمسك بزمام المبادرة فى الطلاق حسب التعاليم الاسلامية . فاذا قال للزوجة " طلقتك " ثلاث مرات طلقت . واذا رغب فى ان يتزوج بها مرة اخرى فلا يسمح بذلك الا ان تكون قد تزوجت من رجل آخر وتم بينهما الطلاق .

ولكل قومية من القوميات المسلمة الصينية عادات خاصة بها فى الزواج . وفيما يلى بعض التوضيح لهذه العادات :

فى المناطق المأهولة بالمسلمين من قومية هوى فى شمال غربى الصين يلزم العريس ان يدخل الى عش الزوجية قبل العروس ثم يختفى وراء الباب . وبعد ان تدخل العروس الى الغرفة يزلج الباب بيديه الممتدتين الى ما وراء ظهره ، ثم يرفع الحجاب عن وجهها لكى يقطف "زهرة الزواج" من على رأسها . واثر ذلك يسلمها كيسا احمر مماوءا بالنقود ، ثم يبحث عن قطعة مثلثة من القماش الاحمر مختفية تحت لباسها ، وليس من الصعوبة اكتشافها ابدا ، وهذا يرمز الى انه سيرزق من عروسه بالبنين . وفى الوقت الذى يبذل فيه جهده لاكتشاف تلك القطعة القماشية داخل ثياب العروس ، وهى تخفض رأسها خجلا ، تمد الشابات والشباب الذين يقفون خارج نافذة الغرفة اعناقهم لينظروا الى ذلك بكل انتباه . فاذا وجدوا يد العريس قد وصلت الى تلك القطعة من القماش ، تدفقوا الى الغرفة مسرورين مبتهجين لينتزعوا "زهرة الزواج" وقطعة القماش من يدى العريس . وقيل ان اى سيدة شابة سوف تلد بنتا جميلة جمال الزهرة اذا حصلت على "زهرة الزواج" ، وان اى شاب سوف يرزق من زوجته بولد وسيم اذا حصل على "قطعة القماش" .

ولهؤلاء المسلمين من قومية هوى عادة مداعبة والدى العريس . فبعد انتهاء وليمة العرس يعمد اصدقاء العريس واقرباؤه الى صبغ وجه كل من والدى العريس بالسواد ، ولا يكتفون بذلك بل يلبسون كلا منهما طرطورا من الورق . ويعلقون على آذانهما خيوطا من الفلفل الاحمر ، ويلبسونهما الازياء البالية ، ويعلقون على ظهريهما مروحة من اوراق نبات ذنب الهر ، ويحضرون حمارا هزيلا ليركبه والد العريس ركوبا معاكسا ، كما يحضرون بقرة هرمة لتركبها والدته . وهكذا تبدأ الوالدة على ظهر البقرة بمطاردة الوالد وهو على ظهر الحمار .

وحين تصبح البقرة من الحمار قاب قوسين او ادنى يضربون دبره ، فيجفل وينطلق الى الامام بعيدا ، مما يثير ضحك الجميع . وقد علق احد المسلمين من قومية هوى على ذلك قائلا : " نحن الهويين نحب التسلية . ففي الايام الثلاثة الاولى من الزفاف يسمح للصغار ان يداعبوا الكبار مهما كانت مكانتهم الاجتماعية . ويعتبر ذلك تعظيما لهم . "

وللويغوريين مزاياهم في الغرام والزواج . فعادة ما يتخذ الشباب والشابات منهم الاغاني وسيلة للتعبير عن الحب المتبادل بينهم . اما العرائس من هذه القومية فيغنين بصوت شجي تعبيرا عن رفضهن مغادرة آبائهن وامهاتهن ومواطنهن ، بينما تغني قريباتهن وصديقاتهن اغاني " الدعوة الى الزواج" الغنية بالمعاني الفلسفية لاقناعهن . وليس هذا فقط بل يرفع الشباب من اهل العريس ، اثر ذلك ، اصواتهم بأغاني " الحث على الزواج" ، ملحين عليها بمغادرة بيتها بأسرع ما يمكن . ثم يجلسون العروس المستور وجهها بحجاب احمر على سجادة ، ثم يمسكون بأطراف السجادة ويسيرون وراء العريس المزدان بثياب الحرير ، باتجاه جواد معد لهما مسبقا . وبعد ركوب العروسين على الجواد يبدأ موكب الزفاف بشق طريقه الى بيت العريس وسط المهنئين الذين يرقصون على الالحان الموسيقية الجميلة . وعلى امتداد طريق الموكب حواجز متتالية من الاحزمة والاشرطة الحريرية والحبال تعترض الموكب . وهذه الحواجز تعكس رغبة اهل العروس في استبقاء ابنتهم ، كما انها محك لمدى حب العريس للعروس . وفي هذه الحالة تجده يحيي اهل العروس مرارا وتكرارا ، ويضع مع كل تحية يده اليمنى على صدره تعبيرا عن احترامه للحاضرين ، كما يوزع الحلويات عليهم بسخاء . ومهما يكن من امر فانهم لا يسمحون للموكب بمواصلة السير الى الامام الا بعد تقديمه برنامجا فنيا مرضيا لهم . وبعد ان تصبح العروس امام بيت العريس يجب ان تقفز

بجرأة من جانب مشعلة ملتهبة بجوارها ، وهذا يرمز الى انها تستطيع اجتياز البحار النارية من اجل زوجها عند الضرورة . وعندها يرفع احد الحاضرين الحجاب عن وجه العروس ، فيشرع المحتشدون يغنون ويرقصون بحماسة ما بعدها حماسة ، متمنين للعروسين السعادة فى حياتهما الزوجية ، ويشارك العروسان فى هذا الغناء والرقص بسرور وابتهاج .

وللقازاقيين مراسم الزواج الخاصة بهم. فما ان تدخل العروس الى عش الزوجية حتى تغص الغرفة بالفتيان والفتيات الذين يأخذون فى معابثتها بوسادات موجودة هناك لاجبارها على رفع الحجاب عن وجهها وفتح صناديقها ، مما يتيح لهم التأمل فى ملامحها والنظر الى جهازها وابداء ملاحظاتهم لها . ومن عادة اهل القرغيز ان يربطوا كلا من العروسين بصورة محكمة ليتسنى لهم معابثتهما كما يريدون . اما الفتيات من قومية سالار فمن عادتهن ان يغنين بصوت حزين قبل زواجهن . زد على ذلك انه لا بد لهن من مغادرة بيوتهن بالرجوع الى الوراء بدلا من التقدم الى الامام ، ولا بد لهن من نثر كميات من الحبوب المختلفة الالوان عند توديع اهلهم لدى الباب . وبعد وصولهن الى بيوت ازواجهن يتزاحم اهل العروس واهل العريس تحت البوابة . واما الشباب والشابات من قومية الطاجيك فيجعلون من الاكياس المطرزة وسيلة لتبادل المشاعر الغرامية فيما بينهم . والطريف ان العريس الذى يأتى الى موطن العروس لاستقبالها غالبا ما يمنع من دخول بيت العروس مرتين . ومن اجل الاحتفال بالزواج تقام النشاطات الترفيهية مثل اختطاف الخروف عن ظهر الحصان وسباق الخيل . . الخ . ولقومية الاوزبك عادة تباحث اهل العروس مع وسيط الزواج فى طلب المهر من اهل العريس قبل كل شىء . وبعد وقت وجيز من مجىء العروس الى بيت العريس يأتى وفد من اهلها لاستعادتها . وفى هذه الحالة لا يجد العريس بدا من ان يتوجه الى بيت العروس مقتفيا

اثرها واثر الوفد المرافق لها ليعود بها الى بيته بعد تقديمه الاموال المطلوبة الى اهلها . ويسمح اهل باوآن لشبابهم فى قرية بيت العروس باثارة البلبلة خلال اقامة ولائم الزفاف ، وهم يصبغون وجوه الضيوف بالسناج الاسود ويجردون وسيط الزواج من حذائه وجوربه على سبيل الدعابة . وكلما وصل مرافقو العروس الى بيت العريس اغلق الباب فى وجوههم للدعابة . والغريب ان العروس لا تأكل طعاما من بيت العريس فى الايام الثلاثة الاولى من مجيئها اليه . وفى حفلات العرس لدى قومية التتار يشرب العروسان كوبا مشتركا من الماء المحلى . وبعد انتهاء الحفلة ينصرف مرافقو العريس ويتركونه فى بيت العروس زمنا طويلا . وقيل ان بعض العرسان لا يعود الى بيته الا بعد ان يرزق بمولوده الاول .

وجميع هذه العادات المذكورة آنفا تزيد الى حد كبير من بهجة العرس لدى القوميات المسلمة .

اما العادات المتبعة فى الجنائز عند المسلمين الصينيين فليس فيها اختلاف كبير بين هذه القومية وتلك ، ومرد ذلك الى تأثر هذه القوميات جميعا بالاسلام . وابرز هذه العادات هى الاسراع فى دفن الاموات وعدم تبديد الاموال بهذه المناسبة .

يبادر اهل المحتضر الى استدعاء إمام المسجد كى يذكر هذا الانسان بالتوبة الى الله تعالى والاستغفار من ذنبه . وحين يموت هذا المحتضر يجرى اغلاق فمه وعينيه وتمديد اطرافه . واثر ذلك يأتى مغسل ليغسل جثمانه ويكفنه ، ثم ينقل الى النعش ليصلى عليه الامام وعامة المسلمين ويشيعوه الى مثواه الاخير .

طبعا يدفن اموات المسلمين فى التراب عموما ، ولكن يجوز إلقاء الميت فى البحر اذا كان على ظهر سفينة مبحرة بعيدا عن اليابسة .

ولا بد من دفن اموات المسلمين بسرعة . وهذه كما اسلفنا ميزة بارزة فى النظام الجنائزى الاسلامى . وعليه يتوجب ايصال الاموات الى مراقدهم الاخيرة فى حدود ثلاثة ايام من وفاتهم . ومن المستحسن ان يدفن الميت يوم وفاته او فى اليوم الثانى لوفاته . وحيث ان الرسول صلى الله عليه وسلم قال : " من مات غريبا مات شهيدا . " فان المسلمين الصينيين عادة ما يعمدون الى دفن اموات الغرباء بدلا من نقلهم الى مواطنهم .

وتتجلى المزية الثالثة للنظام الجنائزى الاسلامى فى عدم تبديد الاموال فى دفن الموتى . من ذلك انهم يقومون بتكفين الميت بثوب محدد من القماش الابيض ودفنه فى قطعة معينة من الارض سواء أكان غنيا ام فقيرا ، نبيلا ام وضيعا . ولا يدفنون مع الميت ايا من الادوات والحاجات باستثناء لجوء بعض للناس الى وضع كميات من الكافور والعطور فى القبر . وجدير بالذكر ان التوابيت الموجودة فى المساجد تستعمل لنقل الموتى الى القبور ، ليس غير . وبعد دفن الموتى تعاد هذه التوابيت الى مواضعها . ومعنى ذلك ان قبور المسلمين تخلو من التوابيت خلافا لقبور بنى وطنهم من غير المسلمين . وعلى المسلمين ان يمتنعوا عن ارتداء ثوب الحداد حسب التقاليد الاسلامية ، ولكن المسلمين فى بعض المناطق الصينية صاروا يلبسون ثوب الحداد المبسط او المعقد متأثرين بعادات قومية هان والحضارة البوذية . وهناك بالاضافة الى ذلك عدد من المسلمين الصينيين يلفون شرائط سوداء على الذراع . وكل ذلك بدعة فى نظر الائمة والمسلمين المتعمقين فى المعارف الاسلامية . وجدير بالذكر ان المسلمين فى بعض المناطق الصينية يهتمون باحياء ذكرى امواتهم فى اليوم السابع ، والرابع عشر ، والحادى والعشرين ، والاربعين ، والمئة ، وفى الذكرى السنوية الاولى والثالثة والعاشرة . . الخ ، وذلك باقامة المآدب على شرف رجال الدين الذين يقومون بتلاوة الآيات القرآنية والدعاء للميت بأن يتغمده الله سبحانه

وتعالى برحمته ورضوانه . ومن عادة المسلمين الصينيين ان يبكوا على فقيدهم بصمت ، فلا يندبوا او يولولوا ، او يقوموا بأفعال غير معقولة مثل ضرب الصدور بالايدى او لطم الوجوه او ضرب الارض بالارجل . وللمسلمين الصينيين عادة حميدة تتمثل فى تطوعهم بتقديم الخدمات لأهل الاموات فى الامور الجنائزية ، وهذا يؤدى الى توفير النفقات عليهم ، ويجسد الاخوة السائدة فيما بينهم .

الفصل الثانى

اسهام المسلمين فى تاريخ العلوم والتكنولوجيا الصينى

قدم المسلمون اسهامات متنوعة فى تاريخ العلوم والتكنولوجيا الصينى ، اهمها اسهامهم فى علم الفلك وعلم التقويم وعلم الحساب والطب والصيدلة .

١ ـ علم الفلك وعلم التقويم وعلم الحساب

تفيدنا التدوينات التاريخية الصينية انه كان هناك تقويم فى عهد اسرة تانغ (٦١٨ ـ ٩٠٧) يدعى «جيوتشى» . وهو يختلف عن التقويم الصينى الشائع ، ذلك ان كتاب «سجلات تانغ الجديدة» يشير الى ان دوران الارض حول الشمس دورة واحدة يستغرق ٣٦٠ يوما فقط حسب تقويم «جيوتشى» وليس ٣٦٥ يوما حسب التقويم الصينى الشائع . اما فى عهد اسرة مينغ (١٣٦٨ ـ ١٦٤٤) فقد تم ابداع «تقويم هوى هوى» الاكثر دقة

على اساس تقويم « جيوتشى » . ولذلك اشار كتاب « جدول الوظائف الحكومية فى مختلف العصور » فى عهد اسرة تشينغ بكل وضوح الى ان تقويم « جيوتشى » هو عبارة عن باكورة « تقويم هوى هوى » فى الصين . زد على ذلك ان الفلكى مى ون دينغ (١٦٣٣ — ١٧٢١) قد اشار الى ان اتخاذ ٣٦٠ يوما دورة واحدة مقتبس من « تقويم هوى هوى » ، وان تقويم « جيوتشى » الشائع فى عهد اسرة تانغ هو برعم « تقويم هوى هوى » النامى فى الصين . ونعرف من ذلك ان المسلمين الوافدين الى الصين فى عهد اسرة تانغ قد اسهموا بقسط معين فى تطوير علم الفلك والتقويم الصينى .

وفى عهد اسرة سونغ الشمالية (٩٦٠ — ١١٢٧) ظهر فلكى كبير من المسلمين فى مقاطعة آنهوى يدعى ما يى تسه . وقد قام بتصحيح الاخطاء الشائعة فى علم الفلك وابداع التقويم الجديد المعروف باسم « تقويم ينغتيان » .

وفى عهد الامبراطور تشينغ لى (١٠٤١ — ١٠٤٨) لأسرة سونغ الشمالية قام تسنغ قونغ ليانغ ودينغ دو ويانغ وى ده وغيرهم من الفلكيين بتأليف « موسوعة المعارف العسكرية » بأمر من البلاط الامبراطورى . وقد استفادوا فى كتابهم من اسماء بروج الافلاك العربية : برج الاسد والثور والجدى والجوزاء والحمل والحوت والدلو والسرطان والسنبلة والعقرب والقوس والميزان فى ايضاح ١٢ من ٢٤ فصلا موسميا (تنقسم السنة الواحدة الى ٢٤ فصلا موسميا حسب التقويم القمرى الصينى . ولكن ١٢ فصلا موسميا منها تدل على ازدياد طول الاحداثيات ، اى ٣٦٠ درجة ، فى دائرة البروج ، ومعنى ذلك ان كل فصل من هذه الفصول الاثنى عشر يبتدئ بعد ازدياد هذا الطول ٣٠ درجة) ، كما اتخذوها رموزا للتنجيم وسط العسكريين .

ان استخدام اسماء بروج الافلاك العربية فى « موسوعة المعارف العسكرية » يقدم دليلا على ان المعارف الفلكية الاسلامية قد تركت اثرها فى الحضارة

الصينية آنذاك . وقد اشار العالم ما يى يوى (١٩٠٠ — ١٩٦١) من قومية هوى الى ان اسماء بروج الافلاك العربية ما زالت مستعملة فى الصين . ونعرف من ذلك ان استفادة الصين من هذه الاسماء قد امتدت اكثر من ٩٤٠ سنة اعتبارا من تأليف « موسوعة المعارف العسكرية » .

وقد قال الشاعر الويغورى الكبير يوسف خاص حاجب انه فرغ من تأليف كتابه : « قوتاد غوبيليك » * (معناه علم السعادة) فى سنة ٤٦٢ هـ ، فى الفترة ما بين ٢٠ اكتوبر ١٠٦٩ و ٨ اكتوبر ١٠٧٠ م . ويعتبر هذا الكتاب اول كتاب ادبى مؤرخ بالهجرية فى الصين اكتشف حتى الآن . ويركز الفصل الخامس من هذا الكتاب تحت عنوان « حول اسماء الكواكب السبعة واسماء ابراج الافلاك الاثنى عشر » على وجهات نظر الكاتب الفلكية التالية :

يدور الكون كله بلا انقطاع ؛

تتقيد الكواكب فى كبد السماء ببعضها بعضا . وكل واحد يسبح فى فلك خاص به ؛

تدور الاجرام الفلكية السبعة (الشمس والقمر والمشترى والمريخ والزهرة

---

* من هذا الكتاب نسخة بالخط العربى فى دار الكتب المصرية ظلت فريدة الى ان ظهرت نسخة اخرى بالحروف العربية ، وهى النسخة التى وجدت بفرغانه ونقلت الى ليننجراد . وكان اول ظهور هذا الكتاب سنة ١٨٩١ حيث عثر المستشرق الروسى ف . رادلف على نسخة مكتوبة بالحروف الويغورية بمكتبة فينا . ثم نشر متن الكتاب مطبوعا بحروف سبكت بصورة خاصة بهذا الكتاب ، مع ترجمته الالمانية سنة ١٩٠٠ . ثم جمع المجمع اللغوى التركى هذه النسخ الثلاث باستخراج صورها الفوتوغرافية ، ودرسها مع مقارنتها ببعضها بعضا ، واصلح ما وقع من الاغلاط فى ترجمة رادلف بعد جهد شاق فى نحو ٨ سنوات . ثم نشر صور النسخ الثلاث الزنكوغرافية فى ٣ مجلدات سنة ١٩٤٢ .

وعطارد وزحل) حول الارض ، ولكن اطوال دوراتها فى المدارات الفلكية غير متساوية ؛

ان الشمس هى الكوكب المشع الوحيد من بين الكواكب السبعة المذكورة اعلاه ؛

تتغير ملامح القمر مع مرور الايام كل شهر ؛

وبروج الافلاك الاثنى عشر هى بروج الافلاك المتجاورة فى كبد السماء .

ويحق لنا القول بأن ابداء يوسف خاص حاجب وجهات نظره الفلكية هذه قبل ٩٠٠ سنة يعد حدثا عظيم الشأن ، ذلك ان بعض وجهات نظره لم يفقد قيمته العلمية حتى يومنا هذا . واهم من ذلك ان هذا الاديب الويغورى الكبير قد استفاد من لغته الشاعرية الممتعة فى سبر غور المعارف الفلكية ، مما ادى الى اغناء محتويات كتابه الخالد : « قوتاد غوبيليك » الى حد كبير . ويعتبر هذا صفحة مميزة فى تاريخ آداب الاقليات القومية الصينى وتاريخ علم الفلك الصينى .

كما قدم المسلمون الصينيون اسهامات هامة فى ميدان الابحاث الفلكية والتقويمية والحساب فى عهد اسرة يوان (١٢٧١ — ١٣٦٨) ، الامر الذى جعل الصين آنذاك تشهد تقدما ملحوظا فى هذا الميدان .

وقد جلبوا الى الصين اعدادا كبيرة من الكتب العربية والفارسية ، وهى تشتمل بصورة رئيسية على الكتب الفلكية والرياضية وغيرها . وكان من ذلك ان كتاب «الزيج الكبير الحاكمى» لابن يونس على بن عبد الرحمن وغيره من الكتب قد تركت اثرها الكبير فى علم الفلك والتقويم الصينى . وجدير بالذكر ان «الزيج الكبير الحاكمى» كان مرجعا لكل من « تقويم ما دا با » من اعداد يه ليوى تشو تساى (١١٩٠ — ١٢٤٤) و« تقويم شوشى» من اعداد قوه شو جينغ (١٢٣١ — ١٣١٦) .

وفى سنة ١٢٦٧ تقدم الفلكى المسلم جمال الدين الى الصين بـ ٧ انواع من الاجهزة الفلكية : ذات حلق ، وذات سموت ، ولحمه معوج ولحمه مستوى ، وكره سماء ، وكره ارض ، واسطرلاب . وكانت هذه الاجهزة نادرة الوجود فى العالم آنذاك . وقد علق الدكتور ليجونس البريطانى على هذه الاجهزة قائلا : ساد الاعتقاد بأن جهاز كرة الارض الذى اخترعه مارت بويهايم سنة ١٤٩٢ هو الاقدم من نوعه بعد ضياع الجهاز المماثل الذى اخترعه كرادس فى القرن الثانى قبل الميلاد . ولكن جهاز كرة الارض الذى اخترعه جمال الدين هو اقدم من جهاز بويهايم بمائتين وخمس وعشرين سنة . وجدير بالذكر ان الصينيين القدامى كانوا يعتقدون ان السماء تبدو مستديرة وان الارض تبدو مربعة . وعلى الرغم من ان هذه الفكرة كانت مترسخة فى نفوسهم ، الا انها بدأت تتزعزع نتيجة لظهور جهاز كرة الارض الذى اخترعه جمال الدين الى حيز الوجود . فجاز لنا القول بأن اختراعات هذا الفلكى المسلم الكبير كانت على جانب عظيم من الاهمية فى توسيع مدارك الصينيين .

وقد اهتم جمال الدين بعض الاهتمام بالاستفادة من المعارف الفلكية الصينية التقليدية فى صنع اجهزته المذكورة . فعلى جهاز كرة السماء الذى صنعه ترى مثلا علامات منقوشة تشير الى اسماء ٢٨ برجا فلكيا (وتسمى ٢٨ جرما فلكيا او ٢٨ نجما ايضا) . وكان الفلكيون الصينيون القدامى يستفيدون من هذه العلامات فى رصد الظواهر الفلكية واوضاع القمرين والمشترى والمريخ والزهرة وعطارد وزحل . وقد ذكرت البروج الفلكية الثمانية والعشرون فى التدوينات التاريخية الصينية العائدة فى تاريخها الى القرن الخامس قبل الميلاد ، وهى اقدم تدوين خاص بالبروج السماوية اكتشف حتى الآن . وبديهى ان ظهور هذه التسمية قد سبق ذلك العهد بكل تأكيد . وهذا يدل على ان اصطلاح

البروج السماوية من قبيل الحضارة الصينية مائة بالمائة . ان استفادة جمال الدين من المعارف الفلكية الصينية التقليدية فى صنع اجهزته الفلكية تدل على انه كان مخترعا بارعا فى اقتباس كل ما هو مفيد له من المعارف العلمية .

وفى اوائل عهد اسرة يوان كان « تقويم دامينغ » المتبقى من عهد اسرة جين (١١١٥ — ١١٦١) سائدا فى الصين ، غير انه سرعان ما ألغى بسبب التفاوت بينه وبين الظواهر الفلكية ، وحل محله « تقويم واننيان » الذى وضعه جمال الدين على ضوء التقويم العربى . وقد استعمل تقويمه هذا فى الصين ١٤ سنة فقط . واستنتج بعض العلماء الصينيين ان هذا التقويم قد تم وضعه حسب التقويم الشمسى العربى .

وهناك بالاضافة الى ذلك تقويم يدعى « تقويم هوى هوى» ، وهو التقويم القمرى العربى او التقويم الهجرى المعروف . وحسب هذا التقويم يبدأ الشهر برؤية الهلال وينتهى برؤيته مرة ثانية . وقد انتقل هذا التقويم الى الصين منذ سنة ١٢٧٢ على الاقل ، اذ اصدرت السلطة المنغولية فى عهد اسرة يوان امرا بتحريم شراء او بيع روزنامات « تقويم هوى هوى» دون تحريم الاستفادة من التقويم ذاته .

وقد انتقل علم الرياضيات المتقدم الى الصين على ايدى المسلمين ، مما جعل الصين تتقدم الى الامام فى هذا المضمار . ففى ظل ذلك ظهر رياضى عظيم فى الصين يدعى قوه شو جينغ صاحب « تقويم شوشى» ، قد استفاد من المثلث المتساوى الساقين وقانون قوقو وشكل القوس والسهم فى حسابه الدقيق . وكان اول من اتخذ اصول المثلثات القوسية الشكل التى ابتكرها المسلمون لقطع الدائرة فى الصين . وبفضل دقة حسابه الفلكى حظى باطراء العلماء على كر العصور . ومما يستحق الذكر انه كان هناك ١٥ كتابا عربيا بما فيها « اصول الهندسة » قد انتقلت الى الصين ، واصبحت

مصدرا غنيا لهذا الرياضى الصينى العظيم . اما « تقويم شوشى» الذى وضعه قوه شو جينغ فقد شاع فى الصين مدة ٣٦٠ سنة ، فلم يكن له مثيل من حيث مدة شيوعه ، وذلك بفضل تفوقه فى الدقة على امثاله من التقاويم السابقة . ولا تفوتنا الاشارة الى ان الارقام العربية (1 ، 2 ، 3 ، 4 ، .. الخ) قد انتقلت الى الصين فى عهد اسرة يوان .

وقد امتدت تأثيرات الفلكيين المسلمين فى عهد اسرة يوان الى عهد اسرتى مينغ وتشينغ (١٣٦٨ — ١٩١١) . وظلوا يحتلون مكانة هامة فى الصين طوال عهد اسرة مينغ (١٣٦٨ — ١٦٤٤) . فمثلا بعد تغيير اسم هيئة الارصاد الفلكية الى هيئة الارصاد الفلكية الامبراطورية فى يونيو ١٣٧٠ تأسست ٤ اقسام تابعة لها ، وهى قسم الفلك وقسم الساعة المائية النحاسية وقسم تقويم " داتونغ" وقسم التقويم الهجرى . ونظرا لأن سالف الشيخ وانغ داى يوى — عالم مسلم كبير من قومية هوى — كان متخصصا بعلم الفلك والرياضيات فقد عين مديرا لهيئة الارصاد الفلكية الامبراطورية فى عهد الامبراطور تشو يوان تشانغ (١٣٦٨ — ١٣٩٨) . وقد ظل احفاد هذا الفلكى العظيم يتوارثون هذه الوظيفة من بعده حتى سقوط اسرة مينغ سنة ١٦٤٤ .

وفى اغسطس ١٣٨٢ مجد الامبراطور تشو يوان تشانغ التقويم الهجرى قائلا : " ان تقويم المنطقة الغربية (التقويم الهجرى) هو الادق من نوعه فى رصد الظواهر الفلكية . كما ان درجة عرض النجوم الخمسة المبينة فيه كانت غير معروفة فى الصين . " ولم يكتف بذلك بل امر لى تشونغ ووو يوه تسونغ — وهما من كبار الموظفين — بمشاركة مشايخ واحمد وغيرهما من العلماء المسلمين فى ترجمة ما حصل عليه فى دادو (بكين اليوم) فى الايام الاولى من تأسيس اسرة مينغ من الكتب العربية البالغ عددها اكثر من ٦٠٠

مجلد الى اللغة الصينية ، وفيها كتاب خاص بـ « التقويم الهجرى» . وفى مايو ١٣٨٣ تم ترجمة « علم الفلك العربى» الى اللغة الصينية . وقد وضع كل من وو بوه تسونغ ومشايخ مقدمة لهذا الكتاب المترجم اشار فيها هذا الاخير الى ان الكتاب قد ألفه الحكيم العربى كثير من اجل نشر حقيقة الاسلام ، وان بين دفتيه معلومات رائعة . هذا وقد انعم الامبراطور على كل من المترجمين بلقب " الحكيم الخالد " .

وكان مشايخ وغيره من العلماء المسلمين جديرين بهذا الشرف السامى ، اذ كانوا يساعدون الصينيين فى عهد اسرة مينغ على استكناه التقويم العربى .

وفى نوفمبر ١٥٨٤ قدم موظف مسؤول عن التقويم تقريرا الى قيادته اشار فيه الى ان « التقويم الهجرى» اكثر دقة فى ضبط تواريخ خسوف القمر وكسوف الشمس ، فمن المستحسن ان يستفاد منه الى جانب « تقويم داتونغ» لكى يتكامل احدهما مع الآخر . ولما وافق الامبراطور آنذاك على تقريره ، بدئ بالاستفادة من التقويمين المذكورين فى آن واحد . وقد دام استعمالهما فى الصين اكثر من ٢٧٠ سنة . ونعرف من ذلك ان « التقويم الهجرى» قد لعب دورا هاما فى تاريخ التقويم الصينى .

اما « تقويم داتونغ» المستعمل فى عهد اسرة مينغ فقد تطور على اساس « تقويم شوشى» الشائع فى عهد اسرة يوان ، علما ان هذا الاخير قد تأثر بـ « التقويم الهجرى» كما اسلفنا . وجدير بالذكر ان عددا من المسلمين مثل هدار وعلى تشنغ وغيرهما قد اسهموا بقسط معين فى وضع « تقويم داتونغ» . زد على ذلك ان الصينيين آنذاك صاروا يستفيدون من « التقويم الهجرى» الى جانب « تقويم داتونغ» ، الامر الذى قدم دليلا على مدى اسهام المسلمين فى ميدان التقويم الصينى آنذاك .

لقد انتقل لوح العد والاعداد المكتوبة المستعملة فى بلاد العرب الى

الصين على ايدى المسلمين فى عهد اسرة مينغ . وقد دبج الرياضى الصينى الكبير المعاصر لى يان مقالة بعنوان «العلاقة بين الاسلام والحساب الصينى» ألقى فيها المزيد من الضوء على لوح العد مشيرا الى انه صالح للضرب والقسمة ومفيد كذلك لاستخراج الجذر . وقيل ان هذا اللوح قد ظهر اول ما ظهر فى الهند ، ثم انتقل الى بلاد العرب فأصبح الاداة الحسابية المفضلة لدى المسلمين على كر العصور . وفى الوقت الذى انتقل فيه «التقويم الهجرى» الى الصين انتقل اليها لوح العد ايضا . وقد عرفنا من الجزء رقم ٣٧ من «تاريخ مينغ» ان الرياضيين من قومية هان فى عهد اسرة مينغ كانوا قد عرفوا كيف يستفيدون من لوح العد فى الحسابات . وليس هذا فقط ، بل كتبوا ابحاثا خاصة به . وكان الفلكيون المسلمون العاملون فى مرصد "هوى هوى" يستفيدون من لوح العد فى الحسابات التقويمية ، و"يستخدمون رموزهم للاعداد" . فقد سمى الفلكى وانغ شى تشيان (١٦٣٣ — ١٧٢١) فى اوائل عهد اسرة تشينغ والفلكى مى ون دينغ «التقويم الهجرى» تقويم اللوح . فاذا قلنا ان لـ «التقويم الهجرى» مكانة معينة فى تاريخ التقويم الصينى عزى الفضل فى ذلك الى لوح العد الذى كان يستعمل فى عده .

وهناك نوع آخر من طرائق العد كان شائعا فى بلاد العرب . وقد انتقلت طريقة العد هذه الى الصين والهند فى آن واحد على وجه التقريب ، وذلك على ايدى التجار العرب فى اواخر القرن الرابع عشر .

وفى اوائل عهد اسرة تشينغ (١٦٤٤ — ١٩١١) كان «التقويم الهجرى» ما يزال مستعملا فى الصين . فيومها كان هناك مرصد امبراطورى يضم اربعة اقسام مسؤولة عن الفلك وتقويم شيشيان والساعة المائية والتقويم الهجرى . وفى سنة ١٦٦٧ اشار فيرديناند فيربيست — احد المبشرين المسيحيين البلجيكيين — الى ان السنة الكبيسة التى حددها يانغ قوانغ شيان مدير المرصد

المذكور حسب «التقويم الهجرى» غير مضبوطة . وفى سنة ١٦٦٩ تسابق هذا المبشر الداعى الى تعميم التقويم الافرنجى ووو مينغ شيوان عالم التقويم الهجرى – نائب مدير المرصد الامبراطورى – فى تحديد ظل الشمس . وانتهى الامر بانتصار الاول على الاخير بحيث اعتلى منصب نائب مدير المرصد بدلا منه . ومنذئذ حل التقويم الافرنجى محل نظيره الهجرى فى الصين .

ومع ذلك فقد قدم المسلمون الصينيون اسهاماتهم فى الميدان الفلكى مستفيدين من « التقويم الهجرى» باستمرار .

ففى جامع هواجيويه بمدينة شيآن لوح صخرى نصب فى ١٣ مارس ١٧٣٢ ، ونقشت عليه احكام حول الصيام والفطر تم استنباطها طبقا لقول رسول الله * وقد اصبح هذا اللوح الصخرى اثرا لتطور ثقافة المسلمين الصينيين وتحفة فلكية اسلامية قيمة فى الصين .

وعلى ضوء روح التطبيق العملى التى اتصف بها الفلكيون المسلمون القدامى عمد العالم المسلم ما فو تشو (١٧٩٤ – ١٨٧٤) من قومية هوى فى طريق عودته من تحصيل العلم فى بلاد العرب واداء فريضة الحج فى مكة المكرمة، الى البقاء فى سنغافورة القريبة من خط الاستواء مدة طويلة لمراقبة الظواهر الفلكية هناك . وعلى هذا النحو وضع ما فى حوزته من المعلومات الفلكية موضع التطبيق ، مما مكنه من تأليف كتابين علميين : « مختصر علم الكون » باللغة العربية و« اصول التقويم الهجرى» باللغة الصينية . وقد اصبحا من اهم المواد الدراسية لطلاب العلم فى المدارس المسجدية الصينية .

---

* حديث عبد الله بن عمر رضى الله عنه ان النبى صلى الله عليه وسلم ذكر رمضان فقال : لا تصوموا حتى تروا الهلال ولا تفطروا حتى تروه ، فان غم عليكم فقدروا له .

وفى غضون القرن الجارى ظهرت الى حيز الوجود مجموعة من الكتب الخاصة بالتقويم الهجرى وعلم الفلك ألفها علماء مسلمون من قومية هوى ، ومن ضمنها « دليل مشاهدة الهلال » بقلم دينغ تسى يوى و« التقويم الهجرى» بقلم ما يى يوى و« تفاصيل التقويم الاسلامى» بقلم هوانغ مينغ تشى و« الوقت والتقويم » بقلم هو جى له و« مختصر التقويم الهجرى» بقلم محمد مكين . وعلى الرغم من ان هذه الكتب قد ألفت تيسيرا لأداء المسلمين عباداتهم على وجه العموم ، الا انها جديرة بأن تعد من انجازات الفلكيين الصينيين ايضا .

ان التقويم الهجرى وطرق الحساب منذ انتقلا الى الصين على ايدى المسلمين قد تركا اثرهما فى اكمال التقويم الصينى وتدارك نقصه ، مما سجل صفحة باهرة فى تاريخ العلوم الصينى .

٢ — علم الطب والصيدلة

لقد قدم المسلمون اسهامات ملحوظة فى علم الطب وعلم العقاقير الصينية ، وتمثل ذلك فى استيراد العقاقير والوصفات والمعارف الطبية والكتب الطبية . وبالاضافة الى ذلك كدس الاطباء المسلمون من مختلف القوميات الصينية تجاربهم فى الممارسات الطبية .

(١) دخول العقاقير والوصفات الطبية العربية

دخلت العقاقير والوصفات الطبية العربية الى الصين منذ عهد اسرتى تانغ وسونغ (٦١٨ — ١٢٧٩) . لقد اصبحت قوانغتشو ويانغتشو كلتاهما فى الفترة ما بين القرن السابع والتاسع مجمعا للتجار الاجانب وسوقا ضخمة للعطور . وقد ورد فى كتاب « قصة رحلة الراهب تانغ دا الى الشرق » ان سفن المسلمين التجارية فى نهر اللؤلؤ فى عهد الامبراطور تيان باو (٧٤٢ — ٧٥٦) "كانت كثيرة الى حد لا يحصى ، وحيث ان قمراتها تبلغ حوالى ٢٠ مترا ، فان

مشحوناتها من العطور والعقاقير والمجوهرات غالبا ما كانت تكدس كالتلال . "
اما فى عهد اسرة سونغ فازدادت العقاقير العربية المستوردة الى الصين كما ونوعا . وعرفنا من «تاريخ الداشى» (وهو جزء من «تاريخ سونغ») ان المبعوثين من بلاد العرب او التجار العرب الوافدين الى الصين من سنة ٩٦٨ الى سنة ١١٦٨ قد قدموا الاتاوات الى السلطة الصينية ٤٩ مرة حسب الاحصاءات الموثوق بها . ومعنى ذلك انهم قدموا الاتاوات اليها مرة فى كل اربع سنوات تقريبا . وكانت العقاقير تمثل نسبة كبيرة من تلك الاتاوات . ويشير كتاب «تاريخ الامصار المختلفة» بقلم تشاو رو شى الى ان العقاقير العربية المستوردة الى الصين قد شملت ١٧ نوعا فى الفترة ما بين عام ١٢٠٨ وعام ١٢٢٧ ، وهى مقبولة لدى الاطباء الصينيين دون استثناء . وما ان اعلن الامبراطور تاى تسونغ من اسرة سونغ امرا باستيراد ٣٧ نوعا من العقاقير سنة ٩٨٢ م حتى عممت هذه العقاقير فى الصين بجهود التجار المسلمين الوافدين على الارجح . وهذه العقاقير العربية المستوردة الى الصين كثيرة نوعا وحجما . ويفيدنا «تاريخ سونغ» ان اللبان الذكر (الكندر) المقدم الى الصين فى اوائل عهد اسرة سونغ غالبا ما كان يزن ٥ آلاف كيلوغرام ، وان سائر العقاقير العربية المستوردة كانت تزن مئات الكيلوغرامات على الاقل ومئات الآلاف من الكيلوغرامات على الاكثر . ولكن كتاب «جامع الاحداث العظيمة الشأن فى سونغ» قال بأن كميات العقاقير العربية المستوردة آنذاك كانت اكثر مما ذكر فى «تاريخ سونغ» .

وفى الوقت الذى استوردت فيه العقاقير العربية الى الصين بكميات كبيرة دخلت اليها الوصفات العربية والفارسية . ويدل على ذلك ان «ملحقات الوصفات الطبية القيمة» المعروفة فى الصين تشتمل على وصفات فارسية . وهناك بالاضافة الى ذلك وصفات طبية صينية مكونة من العقاقير العربية بصورة رئيسية . وعلى

سبيل المثال فان من بين « وصفات صيدلية تايبينغ ــ هويمين » ١٠ وصفات مكونة من العقاقير العربية بصورة رئيسية قبل سنة ١١٣١ ، ولكن هذه الوصفات ازدادت الى ١٣ وصفة فى الفترة ما بين سنة ١١٣١ وسنة ١١٦٢ ، وازدادت الى ١٧ وصفة فى الفترة ما بين سنة ١٢٢٥ وسنة ١٢٢٧ ، وازدادت الى ٢٨ وصفة فى الفترة ما بين سنة ١٢٤١ وسنة ١٢٥٢ . وكفى بذلك دليلا على مكانة العقاقير العربية فى الوصفات الصينية . وفى مجرى إلمام الاطباء الصينيين بالعقاقير والوصفات العربية اكثر فأكثر قاموا بتطويرها وترقيتها ، مما ادى الى اغناء محتويات الوصفات الطبية الصينية وتوسيع افق الاطباء الصينيين العلمى .

(٢) استيراد الكتب الطبية العربية وظهور كتب طبية من تأليف المسلمين الصينيين

لقد ورد فى « فهرست العلوم » بقلم ابن النديم (محمد بن اسحق ، ابو الفرج) ما يلى : كان هناك عالم صينى جاء الى بلاد العرب لدراسة علم الطب ، وكان يسكن فى بيت الرازى (٨٦٤ ــ ٩٣٢) . وقبل عودته الى بلده طلب من مضيفه ان يشرح له ترجمة ١٦ جزءا من مؤلفات عالم الطب اليونانى كاوديوس جالينوس (١٢٩ ــ ١٩٩) الى اللغة العربية ، مما اتاح له ان يدونها بكتابة الاختزال الصينية تدوينا مضبوطا ، ثم عاد بتدويناته هذه الى الصين . وقد ذكر لى يوه سه هذا الامر فى كتابه : « تاريخ العلوم والتكنولوجيا فى الصين » . وهذا يدل على ان هذا العالم الصينى قد اتى بمؤلفات جالينوس الى بلده بمساعدة الرازى فى اوائل القرن العاشر على الاقل .

كما ذكر ١٣ نوعا من الكتب الطبية المستوردة من بلاد العرب فى تدوينات يوان التاريخية . وارجح الظن ان هذه الكتب تشمل « الحاوى » بقلم الرازى و« كامل الصناعة الطبية » بقلم المجوسى (ابو الحسن على بن

العباس المتوفى سنة ٩٩٤) و« علم الطب» بقلم ابن سينا (٩٨٠ — ١٠٣٧) . ويعتقد بأن هذه الكتب الطبية قد تركت اثرها فى تطوير الطب الصينى .

اما كتاب « الاعشاب الطبية فيما وراء البحار» بقلم لى شيون فى عهد الاسر الخمس (٩٠٧ — ٩٦٠) فهو اول كتاب طبى ألفه المسلمون الصينيون . ويبين هذا الكتاب بصورة شاملة اسماء ١٥ نوعا من العقاقير الاجنبية واشكالها وروائحها وفعالياتها المختلفة فى علاج الامراض ، مما ادى الى اكمال العقاقير الصينية واغناء الوصفات الطبية الصينية .

ويعتبر لى شيون من علماء العقاقير المجدين فى الدراسات العلمية ، وكان يتفانى فى اكتناه ماهية مختلف الاعشاب الطبية لتدارك نواقص الاسلاف وتصحيح اخطائهم بدلا من ان ينتهج طريقهم على غير هدى . وقد تركت جهوده اثرا ايجابيا فى تطور علم العقاقير الصينى .

ويرى علماء العقاقير الصينية التقليدية ان لكل نوع من العقاقير الصينية رائحة وطبيعة وفعالية خاصة به . وهناك ١٨ نوعا من العقاقير الصينية لا يجوز للمرء ابدا ان يتناولها مع بعضها بعضا ، لأن تناولها على نحو مختلط يؤدى الى اختلال الوظائف البدنية ، ويسبب امراضا جديدة . هذا وقد اشار الطبيبان الشهيران تشانغ تشونغ جينغ وسون سى مياو فى قديم الزمان الى ان "صحة الانسان تتوقف على حسن الاعتناء الذاتى . فاياك وتناول الدواء تناولا عشوائيا لأن ذلك يزيد احشاء البدن خللا ويصيبك بأمراض فى نهاية المطاف ، وان كان الدواء يخفف الم المريض مؤقتا" (مقدمة كتاب « بستان الاعشاب الطبية القيمة ») . وقد استفاد لى شيون من هذه النظرية فى تحليل الاعشاب الطبية الاجنبية الواحد تلو الآخر ، وتكللت جهوده بالنجاح فى هذا المضمار . وفى الوقت نفسه قدم هذا العالم المسلم دليلا على ان النظرية الصينية الخاصة

بالعقاقير على جانب عظيم من الاهمية العلمية .

وبالاضافة الى « الاعشاب الطبية فيما وراء البحار » ألف المسلمون الصينيون « وصفات هوى هوى » (٣٦ جزءا) و « الوصفات الفعالة لصيدلية سعد » (١٥ جزءا) . وقد كتب الكتاب الاول بلغة هان وألحقت به الكتابات الفارسية ، ولم يبق من الكتاب الا نسخة ناقصة ، وهى محفوظة فى مكتبة بكين حاليا . اما الكتاب الثانى فقد ذكر فى كتاب « تدوينات الفنون والآداب من تاريخ يوان الاضافى » ولكنه احتجب عن الانظار . وقد تم تأليف هذين الكتابين فى عهد اسرة يوان (١٢٧١ — ١٣٦٨) .

(٣) تطبيقات المسلمين الطبية فى الصين

تشتمل تطبيقات المسلمين الطبية على بيع العقاقير وتعميم الوصفات الطبية والتطبيب .

فمنذ عهد اسرتى تانغ وسونغ (٩٠٧ — ١٢٧٩) استوردت كميات كبيرة من العقاقير العربية الى الصين ، وكان من بين الجاليات العربية عدد من تجار العقاقير . وهم اما يفتتحون الصيدليات واما يتجولون من شارع لآخر لبيع العقاقير . وهناك حكايات ممتعة عنهم تتناقلها ألسنة الناس حتى الآن . فقد ورد فى « سجلات تانغ القديمة » انه كان هناك فارسى يدعى لى سو شا قد قدم كشك عطور (الى الصينيين) ، وتجنس صينيا . وكان من اوائل المسلمين الذين مارسوا تجارة العقاقير فى الصين . وقد وصف كتاب « موسوعة تايبينغ » الذى تم تأليفه فى عهد اسرة سونغ الشمالية كيف كان العرب فى عهد اسرة تانغ يفتتحون الصيدليات ويبيعون العقاقير فى مدينة تشانغآن . كما يصور كيف كان باعة العقاقير يترددون على صيدليات العرب ليشتروا منهم ما يفتقرون اليه من العقاقير . ويفيدنا كتاب « حوار فى كوخ » ان لى شيوان (شقيق لى شيون) فى عهد الاسر الخمس (٩٠٧ — ٩٦٠) كان يحصل

على رزقه من تجارته بالعقاقير . ولم تكن لديه ذخيرة مالية فى شيخوخته . وما كان فى حوزته هو كتب دينية واكياس للعقاقير ليس غير . وهناك انشودة لتاجر عقاقير اجنبى مسن ، تصف وصفا حيا كيف كان التاجر القادم من المنطقة الغربية — وهو فى الثمانين من عمره — يتجول من شارع الى آخر لبيع ما لديه من العقاقير التى حظيت بشعبية واسعة لدى الناس . فكانوا يهرولون الى موقعه فور سماعهم اصوات جرسه النحاسى المجلجلة ، ويشترون منه العقاقير التى تؤكل عموما ويبتاعون منه اللصوق الطبية بوجه خاص . وفى عهد اسرتى مينغ وتشينغ (١٣٦٨ — ١٩١١) ظهرت عدة انواع من الادوية التى ركبها المسلمون ، ومن بينها لصوق وانغ هوى هوى وكرامل ما سى يوان الطبية وكحل باى جينغ يوى . وما تزال لهذه الادوية شعبية واسعة فى بلدية بكين ومقاطعة خبى حتى يومنا هذا .

وكان هناك عدد من المسلمين قاموا بتعميم وصفاتهم الطبية بين اهل الصين . ويروى لنا كتاب « اعشاب توجينغ الطبية » بقلم سو سونغ القصة التالية : عندما كان تشنغ شيانغ قوه واليا على منطقة نانهاى تقدمت به ألسن الى الخامسة والسبعين . وقد اصيب بمرض خطير جدا بسبب عدم تأقلمه مع الرطوبة هناك ، ولم ينفعه العلاج على هذا النحو او ذاك . وكان من باب المصادفة ان يقابل محمد " لى " مالك السفن من اهل كالينجا ، فأعطاه هذا الاخير دواء ابرأه بسرعة .

وقد انبثق عدد كبير من الاطباء من بين المسلمين فى عهد اسرة يوان ، وكان من بينهم اطباء عسكريون الى جانب الاطباء المدنيين . فقد اسست حكومة اسرة يوان قسم قوانغهوى تحت اشراف المستشفى الامبراطورى ، وهو مسؤول عن اعداد عقاقير هوى هوى للبلاط الامبراطورى والحرس الامبراطورى والمساكين المتشردين فى دادو . وفى سنة ١٢٩٢ اسست صيدليتان

من نوع صيدليات هوى هوى ، كانت احداهما فى دادو ، والاخرى فى شانغدو . وقد اتخذتا فى سنة ١٣٢٢ هيئتين تابعتين لقسم قوانغهوى الذى كان مجمعا لمشاهير اطباء هوى هوى مثل دلمان وغيره الذين كانوا موضع الاعجاب ببراعتهم فى العلاج .

ومن بين المسلمين الصينيين المعاصرين اعداد من الاطباء الاكفاء ، وقد اسهموا فى تطوير علم الطب وعلم العقاقير الصينيين بفضل جدهم فى الممارسات الطبية شأنهم شأن اسلافهم تماما . ومثال ذلك ان البروفيسور تشاو بينغ نان (١٨٩٩ — ١٩٨٤) هو من مشاهير الجراحين فى الطب الصينى التقليدى . انه ينتمى الى قومية هوى . وقد سبق له ان عمل نائبا لرئيس جمعية الطب الصينى التقليدى لعموم الصين ، ورئيسا فخريا لمستشفى بكين للطب الصينى التقليدى ، ونائبا لرئيس جمعية بكين الاسلامية . وبالاضافة الى براعته فى الجراحة كان معروفا بعلاج الامراض الجلدية بالطب الصينى التقليدى . وقد تم له إعداد كثير من الاطباء ، ومن بينهم ما ليان شنغ نائب مدير مستشفى هويمين ببكين ، وهم يتوزعون فى جميع المشافى الكبيرة بالمدينة . وقد بذل تشاو كل طاقته طيلة حياته لتخليص المرضى من الآلام . والى جانب ذلك اقبل بعد ولادة الصين الجديدة على تلخيص الخبرات الطبية التى كدسها فى حياته ، وقام بتدوينها فى السجلات الطبية ، مما قدم لعلم الطب الصينى التقليدى اسهامات نظرية وتطبيقية ، فلا غرو ان يكون موضع حب واحترام من ابناء الشعب الصينى على اختلاف قومياته .

واما تشانغ روى يى (١٨٩٩ — ١٩٦٤) ، لقبه رن فو وينتمى الى قومية هوى ، فقد كان من مشاهير الاطباء بالطب الصينى التقليدى فى بكين . وهو من مواليد قرية بيوو بمحافظة داتشانغ فى مقاطعة خبى . وقد احترفت اسرته الطب الصينى التقليدى جيلا بعد جيل . فقد اخذ تشانغ روى يى

يتعلم الطب الصينى التقليدى على يد والده منذ طفولته . ولما بلغ السادسة عشرة اصبح طبيبا معروفا . وفى سنة ١٩٢١ افتتح مستوصفا فى حاضرة محافظة دانشانغ يحمل اسم شيبوى . وعرف خلالها بلقب " الطبيب تشانغ الصغير " . وفى سنة ١٩٣٨ افتتح مستوصفا فى شارع دونغسى ببكين . اضف الى ذلك انه شارك سنة ١٩٥٠ فى فتح عيادة طبية متحدة بالطب الصينى التقليدى فى ضاحية بكين الشرقية . وفى مجرى ممارساته السريرية الممتدة اكثر من ٤٠ سنة تم له ابراء الآلاف المؤلفة من المرضى الذين جاءوا اليه من مختلف انحاء الصين . هذا وقد اطراه الجميع بأنه " طبيب فذ " تقديرا له واحتراما .

وكان الحاج قادر بن الحاج يوسف (١٨٧٦ — ١٩٦١) الويغورى واحدا من مشاهير الاطباء فى منطقة كاشغر بشينجيانغ . وقد التحق بمدرسة اسلامية محلية منذ طفولته ، حيث درس اللغة العربية والفارسية والاوردية . وعندما اصبح فى العشرين من عمره عدل الى تعلم الطب الويغورى التقليدى من الطبيب المحلى الشهير سوبى آهوند وغيره . وفى سنة ١٨٩٩ اخذ يعمل طبيبا محترفا . ولم يمض على ذلك الا وقت قصير حتى توجه مع أبيه وعمه الى مكة المكرمة لأداء فريضة الحج مرتين ، كما عرج على تركيا حيث درس النظريات الطبية هناك . وبعد عودته الى الصين واصل ممارسة مهنته من جهة ، وقام من جهة اخرى بترجمة المعلومات الطبية من اللغتين العربية والفارسية الى الويغورية وتنقيحها . وقد تم له تأليف تراجمه فى كتاب بعنوان «طريق الى معرفة الامراض الباطنية والجراحية وعلاجها» . وفى سنة ١٩٥٧ شارك زملاءه فى تأسيس اول عيادة متحدة بالطب الويغورى التقليدى ، الامر الذى ادى الى استعادة حيوية هذا الطب الذى اوشك على الزوال عشية تأسيس الصين الجديدة . وقد تطورت العيادة المتحدة المذكورة حتى اصبحت مستشفى للطب الويغورى التقليدى فى مدينة كاشغر . وكان للحاج يوسف

يد بيضاء خاصة فى علاج مرض الوضح ، مما ارسى اساسا لعلاج هذا المرض بالطب الويغورى التقليدى . وقدم اسهامات قيمة لوراثة هذا الطب القومى العريق وسبر غوره وتنقيته .

٣ - علم الهندسة المعمارية

ان اسهامات المسلمين الصينيين فى الهندسة المعمارية تتمثل تمثلا رئيسيا فى مبانيهم الاسلامية ، وفى اول تصميم وضعه المعمارى المسلم اختيار الدين لمدينة دادو (بكين اليوم) عاصمة الصين فى عهد اسرة يوان (١٢٧١ - ١٣٦٨) .

(١) المبانى الاسلامية

ان المبانى ليست من لوازم البشرية فحسب ، بل هى جزء هام من حضارتها . اما الاسلام فقد اثر فى المسلمين الصينيين سياسيا واقتصاديا وفكريا وثقافيا وحياتيا كما اثر فى مبانى مساجدهم ومدارسهم الدينية وخانقاهاتهم ومقابرهم ، ووسمها بالسمات القومية والميزات الفنية الواضحة .

وليس من الضرورى ان نكرر الحديث عن اساليب مساجد الصين المعمارية ومزاياها التى سلف ذكرها فى الباب الثانى من هذا الكتاب . ولكن ما يستدعى التأكيد هنا هو ان مئات الآلاف من المساجد والمبانى المتنوعة الاخرى تعتبر تجسيدا لمواهب المسلمين الصينيين من مختلف القوميات ولجهودهم الدائبة على امتداد اكثر من الف سنة ، وان مزاياها البارزة فى التصاميم المعمارية والمبادئ التخطيطية والتقنية الهندسية والفنون الزخرفية هى ابداعات تاريخية عظيمة جاء بها المسلمون من مختلف القوميات ، كما انها نتيجة للتعلم المتبادل والتضامن بين المسلمين وبنى وطنهم من غير المسلمين (وخاصة ابناء قومية هان) . وقد ادت المبانى الاسلامية الصينية بمزاياها

الواضحة الى اغناء كنز الحضارة المعمارية الصينية وتركت اثرا معينا فى المبانى الصينية التقليدية ، كما دفعت تطور المبانى الصينية الخشبية والطوبية والصخرية التركيبات . ولكن المبانى الاسلامية الصينية تتميز بالسمات القومية الواضحة الخاصة بها . وهذا ما جعلها تختلف اختلافا كبيرا عن مثيلاتها فى البلدان العربية والبلدان الاخرى . ونعرف من ذلك ان المسلمين الصينيين لم يقتبسوا من الفن المعمارى العربى او نظيره الصينى فى بناء الانشاءات الدينية مائة بالمئة ، بل قاموا بالدمج بين هذين الفنين لكى يكمل احدهما الآخر ، الامر الذى ابدع فنا معماريا جديدا ، الا وهو الفن المعمارى الاسلامى الصينى الذى يشكل جزءا من كنز الفن المعمارى الاسلامى العالمى وكنز الحضارة البشرية .

(٢) اختيار الدين ودادو — عاصمة اسرة يوان

لا تمتاز بكين بأنها عاصمة الصين فحسب ، بل هى اول مدينة تاريخية فى الشرق ، تتوفر فيها الآثار الحضارية بسبب عراقتها . لقد كانت بكين مركزا سياسيا واقتصاديا وثقافيا وعسكريا للكثير من السلالات الملكية فى تاريخ الصين . وقد سميت هذه المدينة "جى" فى اقدم الازمنة . واصبحت عاصمة لمملكة " يان " فى عهد " الربيع والخريف" و" الممالك المتحاربة " (٧٧٠ ق . م — ٢٢١ ق . م) ، كما اتخذت ثانى عاصمة لمملكة لياو (٩١٦ — ١١٢٥) ، وسميت " يانجينغ" . وقد اصبحت عاصمة مملكة جين (١١١٥ — ١٢٣٤) بعد الاطاحة بمملكة لياو فعرفت باسم تشونغدو . واصبحت عاصمة للصين فى عهد اسرات يوان ومينغ وتشينغ (١٢٧١ — ١٩١١) ، والايام الاولى بعد تأسيس جمهورية الصين (١٩١٢ — ١٩٤٩) . وخلال هذه الفترة سميت هذه المدينة دادو وجينغشى وبكين .

بيد ان بكين اليوم قد خلت من آثار مدينة جى ويانجينغ وتشونغدو

تماما ، ذلك انها تطورت على اساس مدينة دادو فى عهد اسرة يوان . ولما استولى المنغول على تشونغدو عاصمة مملكة جين سنة ١٢١٥ اغتصبوا الحسان واحرقوا كل المبانى فى المدينة التى ظلت الحرائق مشتعلة فيها شهرا واحدا تحولت بعده الى انقاض . وفى سنة ١٢٦٧ اقبل المعمارى المسلم اختيار الدين على اعادة التخطيط لبناء مدينة جديدة باتخاذ انقاض قصر دانينغ الذى كان فى ضاحية تشونغدو الشمالية الشرقية مركزا لها .

يعتقد بأن اختيار الدين قد ولد فى المنطقة الغربية . ومنذ اغسطس ١٢٦٦ اخذ يتولى رئاسة ادارة شؤون القصور والمرافق العامة فى حكومة اسرة يوان . " يومها لم يكن الوضع مستقرا ، اذ لم تظهر السلطة (ساطة يوان) جبروتها الا منذ وقت قريب . فما استطاعت ان تثير الاعجاب فى كل الربوع لتواضع مبانى البلاط الامبراطورى ومعالم العاصمة . " ومما ورد فى الكتابات المنقوشة على نصب " ماهاماشا " والمدونة فى كتاب «سجل كويتشاى» نستنتج ان سلطة يوان الجبارة كانت بحاجة الى بناء انشاءات فاخرة وضخمة فى عاصمتها اظهارا لقوتها وجبروتها . ولما كان نصب الخيام حسب عادات المنغول غير متفق مع مقتضيات الحال ، فقد عقد اختيار الدين المكلف بوضع الخطط المعمارية فى العاصمة عزمه على تخطيط البنايات فى دادو على ضوء الاسلوب المعمارى الصينى التقليدى لتكون مثار الاعجاب فى العالم . و"كان يواظب على العمل ليل نهار دون ان تفتر له حماسة ابدا . وراح يتفنن فى وضع الرسوم تارة ، ويمعن النظر فى رسومه تارة اخرى . زد على ذلك انه كان يستفيد من اصابعه وذراعيه فى اعمال القياس بلا انقطاع . "

وقبل النهوض ببناء مدينة دادو شارك اختيار الدين زملاءه فى مسح طوبوغرافيتها ومد البلاليع وتجهيز مصارف المياه حسب انحدارات الارض . وعلى هذا الاساس وضع هذا المعمارى المسلم خطة عامة لبناء المدينة مراعيا

التقاليد الصينية وظروف تطور التاريخ والمزايا الجغرافية هناك . ومن اجل تجسيد جبروت الحكام الاقطاعيين فى عهد اسرة يوان تجسيدا تاما جعل اختيار الدين البلاط الامبراطورى فى صدر مدينة دادو . ولم يكتف بذلك ، بل اظهر لوذعيته الفنية الفائقة فى التنسيق بين القصور الفخمة والبيئة الطبيعية الجميلة المحيطة بها على نحو افضل . وهذا جعل جمال المباني وجمال المناظر الطبيعية يكمل كل منهما الآخر .

وتتوزع مباني دادو على النحو التالى : تنتصب مجموعة من القصور الامبراطورية على ضفة بحيرة تايبه الشرقية (اى البحر الشمالى والبحر الاوسط الجنوبى اليوم) وجزيرة تشيونغهوا . وتدعى هذه القصور دانى ، وهى سلف المدينة المحرمة اليوم . وتقوم مجموعتان من القصور على الضفة الغربية تدعى احداهما شينغشنغ (وهى خاصة بالامراء) وتدعى الاخرى لونغفو (وهى خاصة بالامبراطورات) . وكان هناك جسر خشبى يربط بين ضفتى البحيرة الشرقية والغربية وهو سلف جسر بيهاى اليوم . اما المنطقة فى شمال قصور دانى فهى مقر حديقة جينغشان اليوم . وكانت هذه المنطقة مكسوة بالأشجار ومرتبطة بجزيرة تشيونغهوا الواقعة فى غربها بواسطة جسر بينهما . كما كانت فيها حديقة حيوان امبراطورية لوحظت فيها انواع من الحيوانات الفريدة والطيور النادرة . وكانت القصور وبحيرة تايبه وجزيرة تشيونغهوا وحديقة الحيوان تشكل مجموعة كاملة مرتبطا بعض اجزائها ببعض فى قلب المدينة . وحول هذه البقعة سور يدعى السور الامبراطورى . وكانت وراء السور ثلاث مجموعات من المباني ، وهى المعبد السلفى الامبراطورى فى الجهة الشرقية (فى موقع شارع دونغسى اليوم) ، ومعبد آلهة الاراضى والحبوب فى الجهة الغربية (فى موقع شارع شيسى اليوم) ، وبرج الجرس وبرج الطبل فى الشمال (اى الضفة الشمالية لبحيرة شيتشا اليوم) وهما يذيعان

الوقت المضبوط لأهل دادو . وكان حول هذين البرجين سوق مزدهرة هى المركز التجارى للمدينة . وكان برج الجرس على ابعاد متساوية مع القطع الشرقية والغربية والجنوبية والشمالية من السور . وبالاضافة الى احتواء قطعة السور الشمالية على بوابتين كانت على كل من قطعه الثلاث الاخرى ثلاث بوابات . ومعنى ذلك انه كان لمدينة دادو ١١ بوابة . وكان بين كل بوابتين متقابلتين من البوابات طريق فسيحة صالحة لمرور العربات . وكان هناك شوارع عرضها ٢٤ قدما وشوارع عرضها ١٢ قدما الى جانب ٣٦٤ زقاقا كبيرا و٢٩٠٠ زقاق صغير . وكانت الشوارع المتشابكة تقسم المدينة الى ٥٠ وحدة اقليمية ، كل منها تحمل اسما خاصا .

وبدهى ان دادو كانت مدينة ضخمة تم تصميمها بكل عناية . وحسب تقاليد الصين ينبغى لكل عاصمة نموذجية ان تكون مربعة الشكل ولكل جهة من جهاتها الاربع ثلاث بوابات ، وتتشابك فيها طرق مستقيمة ، ويتكون قلب المدينة من البلاط الامبراطورى جنوبا ، ومن السوق شمالا ، ومن المعبد السلفى الامبراطورى شرقا ، ومن معبد آلهة الارض والحبوب غربا . وكانت دادو المصممة على يد اختيار الدين هى تجسيدا لهذه الفكرة اجمالا . وعلى الرغم من انها ليست مربعة تماما ، الا ان ذلك لم يخالف مبادئ بناء عاصمة البلاد المتبعة فى التاريخ . وجدير بالذكر ان موقع برجى الجرس والطبل فى المدينة يبدو كأنه موقع لبرج مشاهدة الهلال فى المساجد المبنية على الاسلوب الصينى التقليدى ، وان اختلاف عدد بوابات المدينة ربما تأثر بالاسلوب المعمارى العربى الذى لا يشدد على التناسق بين المبانى . وجملة القول ان اختيار الدين لم ينقل نظام البناء المعمارى الصينى التقليدى حرفيا ، ولم يقلده آليا فى مجرى تصميم مدينة دادو ، بل طوره وادخل عليه اساليب جديدة فى مجرى وراثته اياه . وبكلمة اخرى ان هذا المعمارى العظيم

المسلم قد طور فن البناء المديني الصيني القديم بصورة خلاقة .

وقد اشار المهندس المعماري الصيني الكبير الاستاذ ليانغ سي تشنغ (١٩٠١ ــ ١٩٧٢) الى ان : "بكين مدينة فريدة فى التاريخ" و"كنز للروائع فى المجتمع الاقطاعي ، ومتحف ضخم تنعكس فيه سياسة واقتصاد وثقافة وايديولوجية المجتمع الاقطاعي ."

٤ ــ البحار تشنغ خه وفن بناء السفن والملاحة فى عهد اسرة مينغ (١٣٦٨ ــ ١٦٤٤)

لقد كان تشنغ خه (١٣٧١ ــ ١٤٣٥) بحارا صينيا عظيما معروفا فى كل انحاء العالم . ففى غضون ٢٨ عاما من سنة ١٤٠٥ الى سنة ١٤٣٣ قام بالابحار الى المحيط الهادى والمحيط الهندى ٧ مرات على رأس اسطوله الضخم . وزار خلال ذلك اكثر من ٣٠ بلدا . وقد امتدت رحلته فى نهاية الامر الى منباشا فى كينيا اليوم ، وهى بقعة تقع على بعد ٤ درجات الى الجنوب من خط العرض الجنوبى فى افريقيا الشرقية . وقد قطع هذا البحار الصينى العظيم فى رحلاته السبع ٧٠ ألف ميل بحرى ، اى اكثر من ثلاثة اضعاف المسافة التى تقطعها دورة واحدة حول الارض . وقد ادت رحلات تشنغ خه هذه الى تمهيد "طريق الحرير وطريق الخزف البحرى" بين الصين من جهة وآسيا وافريقيا من جهة اخرى ، والى تطوير تجارة الصين مع الخارج ، وتنمية التفاهم والصداقة بين الشعب الصينى والشعوب الافروآسيوية ، وتهيئة الظروف لاستقرار الصينيين المغتربين فيما وراء البحار ، وقيامهم بالاعمال الاستثمارية هناك ، كما ادت الى تهييج حماسة الصين لتطوير صناعة السفن ، ورفع فن ملاحة البحارة الصينيين واغناء معارفهم الجغرافية ، مما سجل صفحة باهرة فى تاريخ الملاحة الصينى والعالمى .

(١) تشنغ خه بحار عظيم

قيل ان تشنغ خه من ذرية " احد ملوك بخارى الممتدة فى المنطقة الغربية " (اى فى غرب الصين) . وحين عانت مملكته من العدوان الخارجى غادر بلده الى الصين سنة ١٠٧٠ م . وقد عرف جد تشنغ خه ووالده بلقب الحاج بعد ان اديا فريضة الحج فى مكة المكرمة .

وقد جاء فى «قصة تشنغ خه» من «تاريخ مينغ» : " ان الامبراطور تشنغ تسو امر تشنغ خه وغيره فى يونيو ١٤٠٥ بالابحار الى المحيط الغربى (اى المحيط الهندى) لاقتفاء اثر الامبراطور هوى دى الذى خيل اليه انه هرب الى ما وراء البحار هذا من جهة ، ولاظهار جبروت سلاحه ويسر بلده وقوته من جهة اخرى . " وكان هناك بالاضافة الى السببين المذكورين سبب ثالث حدا بالامبراطور تشنغ تسو الى ان يأمر تشنغ خه وغيره بالابحار ، الا هو حرصه على تطوير تجارة الصين مع الخارج وشراء فرائد المجوهرات مما وراء البحار ليتمتع بها الحكام الاقطاعيون . وهذا مرتبط بازدهار الرأسمال التجارى الناشئ عن النهضة والتطور الاقتصاديين فى اوائل عهد اسرة مينغ .

ولكن ما يهمنا من هذا كله وما يجدر بنا التأكيد عليه هو المواهب التنظيمية والجرأة الفائقة التى اظهرها هذا البحار العظيم ، اذ لعب دورا رئيسيا فى تلك النشاطات الابحارية العارمة . وهذا ما جعله عملاقا فى تاريخ الابحار الصينى والعالمى ، كما جعل مآثره تبقى خالدة فى التاريخ .

اما تواريخ ابحار تشنغ خه فى المحيط الهندى ٧ مرات فهى على النحو التالى : فى مايو ١٤٠٥ ابحر الى البلدان الواقعة غرب الصين لأول مرة ، حاملا معه رسائل من الامبراطور . وفى سبتمبر سنة ١٤٠٧ عاد من حيث اتى . ولكن القرصان تشن تسو يى واتباعه نهبوا سلاحه فى طريق العودة . وفى السنة ذاتها ابحر الى تلك البلدان مرة ثانية وعاد الى الصين سنة ١٤٠٩ .

ولم يمض على ذلك سوى وقت قصير حتى ابحر الى هناك مرة ثالثة ، وعاد الى الصين فى يونيو ١٤١١ مصطحبا معه اسيره ملك شيلانشان وافراد عائلته . وقد ورد فى كتاب « سيرة الامبراطور تشنغ تسو لأسرة مينغ » ان تشنغ خه ابحر فى نوفمبر ١٤١٢ الى ما وراء البحار للمرة الرابعة حاملا معه رسائل من الامبراطور . وكان من المقرر ان يتوجه الى جاوة وغيرها من البلدان التى تفتقر الى النسيج الحريرى المقصب والدمقس والشاش والنسيج الحريرى القوى . والواقع ان تشنغ قد استعد للسفر الى هناك ، ولكنه لم يغادر بلده ، وانما بقى هو ورجاله فى شارع شيبانغ بمحافظة تشانغله حيث استأذن الامبراطور ببناء ڤيلا امبراطورية بين جوانح جبل نانشان فى المحافظة . وفى السنة التالية (اى سنة ١٤١٣) اشرف تشنغ خه على بناء معبد سانفنغتا فى الجبل المذكور . وفى ابريل من السنة نفسها توجه الى شنشى لاختيار متقن للغة العربية ليعمل مترجما له . وقد وقع الاختيار على الشيخ حسن امام جامع يانغشى فى مدينة شيآن (عاصمة شنشى) . وبعد حلول الشتاء توجه على رأس اسطوله الى البلدان الواقعة على سواحل مضيق هرمز . وفى يوليو ١٤١٥ اكمل تشنغ خه رحلته البحرية الرابعة وعاد الى الصين . وفى سبتمبر سلم تشنغ خه سوقالا — قطب القراصنة فى سوماطرا — الذى اسره وساقه الى المحكمة . وفى ١٦ مايو ١٤١٧ اقام تشنغ خه الشعائر التى من شأنها تخليد ذكرى الموتى فى المقبرة الاسلامية بمدينة تشيوانتشو (مدينة الزيتون) . وبعد ذلك بوقت وجيز استهل رحلته البحرية الخامسة . وبعد ان امضى اكثر من سنتين فيما وراء البحار عاد الى الصين فى يوليو ١٤١٩ سالما غانما ، فأنعم عليه الامبراطور تشنغ تسو بالمكافأة . وقد بدأ تشنغ خه رحلته البحرية السادسة بأمر من الامبراطور فى يناير ١٤٢١ ، وعاد من حيث اتى فى اغسطس ١٤٢٢ . وكان مبعوثون من تايلاند وسوماطرا وعدن يرافقون تشنغ خه فى طريق عودته لتقديم الاتاوات

الى البلاط الامبراطورى الصينى . وفى يونيو ١٤٣٠ امر تشنغ خه بالابحار حاملا معه رسائل من امبراطور الصين الى رؤساء البلدان المقصودة . فكان من اللازم ان يقوم تشنغ خه الذى كان على عتبة العقد السابع من عمره برحلته البحرية السابعة . ولكنه لم ينطلق فور وصول امر الامبراطور اليه . وفى يناير ١٤٣١ قام فى قصر " المحظية السماوية " الواقع فى ليوجياقانغ بمحافظة تايتسانغ بتدشين نصب صخرى نقشت عليه معلومات عن العلاقات بين الصين والبلدان الاخرى . وفى نوفمبر من نفس السنة قام ، فى معبد نانشان بمحافظة تشانغله ، بتدشين نصب صخرى آخر من شأنه تخليد " المحظية السماوية " . وبعدئذ توجه الى ميناء بوتسى حيث انتظر الرياح الصالحة للابحار . وغادر اسطوله ووهومن فى ٩ ديسمبر من نفس السنة بادئا برحلته البحرية السابعة رسميا . وفى سنة ١٤٣٣ عاد تشنغ خه البالغ من العمر يومها ٦٣ سنة الى الصين بعد ان زار ١٧ بلدا على سواحل هرمز . وفى سنة ١٤٣٥ توفى فى نانجينغ وهو فى الخامسة والستين من عمره ، ودفن تحت السفح الجنوبى لجبل نيوشو فى الضاحية الجنوبية لمدينة نانجينغ . وقد عرف قبره باسم " قبر ما هوى هوى" . وما زال أنساله يواظبون على زيارة قبره حتى الآن .

وتفيدنا «سيرة تشنغ خه» من «تاريخ مينغ» ان هذا البحار العظيم قد ترك خلال رحلاته البحرية السبع آثار قدميه فى ٣٦ بلدا ومنطقة وهى : تشانتشنغ وجاوة وتشنلا وجيوقانغ وتايلاند وكولى ومانتسيجيا وبونى وسوماطرا وآلو وكوتشى وقولان الكبرى وقولان الصغرى وشيبيانغسولى وسواو والجزيرة وعدن ونانوول وقانبالى رشيلانشان وبنغهنغ وجيلانداان وهرمز وليوشان وسونتسى ومقديشو وماليندى وتسيسا وظفر وجوب ومنباشا ومكة المكرمة وليداى وناهور وسالوان (فى اقصى جنوب شبه جزيرة الهند اليوم) وبوتسيوا (فى حدود الصومال اليوم) .

ونعرف من البلدان والمناطق المذكورة آنفا ان اسطول تشنغ خه قد وصل الى الهند الصينية وارخبيل جنوب آسيا الشرقى وخليج البنغال والخليج الفارسى وارخبيل مالديف والبحر العربى وخليج عدن . زد على ذلك ان اسطوله قد اجتاز المحيط الهندى من ادناه الى اقصاه ٤ مرات . لقد ضرب تشنغ خه بلا شك مثلا منقطع النظير فى تاريخ الابحار العالمى ، اذ انه قطع مئات الآلاف من الاميال البحرية خلال ما يقرب من ٣٠ سنة دون ان تثنى عزمه المخاوف والاهوال ، شاقا طريقه وسط الرياح العاتية والامواج الهائلة .

(٢) زملاء تشنغ خه المسلمون فى الابحار

لقد قدم زملاء تشنغ خه المسلمون اسهامات قيمة فى الملاحة لم يسبق لها مثيل ، وهم ما يلى :

ما هوان : ولقبه تسونغ داو ، وكنيته رو تشين ، وكنيته الثانية هويجى شان تشياو . انه من مواليد هويجى بمقاطعة تشجيانغ ، وينتمى الى قومية هوى . وقد قطع شوطا كبيرا فى دراسة اللغة العربية معتمدا على ذكائه واجتهاده ، فأتاح له هذا ان يعمل مترجما لتشنغ خه خلال رحلاته البحرية الرابعة والسادسة والسابعة . وفيما كان ما هوان الحصيف يتجول من بلد الى آخر متجشما مشقات السفر الطويل وضع نصب عينيه التعرف على شمائل كل امة ونواقصها وعاداتها ومنتجاتها وانظمتها الاجتماعية . ولم يكتف بذلك بل سجل ما شاهده فى كتاب تحت عنوان « مشاهداتى فيما وراء البحار» . ويضم هذا الكتاب ١٨ فصلا دونت فيها العادات والمنتجات والمعلومات الجغرافية والتاريخية لـ ١٩ بلدا بما فيها تشانتشنغ وجاوة وظفر . . الخ ، الامر الذى خلف معلومات قيمة حول رحلات تشنغ خه البحرية المتعددة .

قوه تشونغ لى : وهو من مواليد رنخه بمدينة هانغتشو ، من قومية هوى . وبفضل استيعابه اللغة العربية اختير مترجما لتشنغ خه فى رحلاته الثلاث ،

وقطع معه آلاف الاميال البحرية ، وقد قدم قوه تشونغ لى خدمات كبيرة فى تأليف «مشاهداتى فيما وراء البحار» وخاصة فى طباعته والحصول على كاتب ديباجة له . فلا غرو ان يقوم قو بو احد كبار المسؤولين فى البلاط الامبراطورى لأسرة مينغ باطراء قوه تشونغ لى وما هوان قائلا : "انهما من المسلمين الجريئين فى مجال الابداع والتجديد ."

فى شين : لقبه قونغ شياو ، وهو من مواليد كونشان من قومية هوى . وقد رافق البحار تشنغ خه فى الابحار ٤ مرات مترجما له ، وذلك بفضل إتقانه اللغة العربية . وكان فى شين عاقدا العزم على الاستفادة من رحلاته ؛ فكلما وصل الى مكان سجل ما شاهده من المناظر الطبيعية والشخصيات والمنتجات والعادات وغرائب الامور ، واتخذها مواد اولية لتأليف كتابه : «مشاهداتى فى الابحار» . ويضم هذا الكتاب جزأين ، يصور جزؤه الاول ما شاهده فى رحلاته ، ويجمع جزؤه الثانى تراجم المعلومات التى حصل عليها خلال ذلك . ويجوز لنا القول بأن كتابه هذا هو توأم لكتاب ما هوان : «مشاهداتى فيما وراء البحار» ، وله قيمة وثائقية جيدة .

الشيخ حسن : وهو من اهل شيآن من قومية هوى . وكان يعمل إماما فى جامع يانغشى بالمدينة . وفيما كان تشنغ خه يستعد للابحار للمرة الرابعة جاء الى شيآن فى ابريل ١٤١٣ ، وطلب من الشيخ حسن ان يعمل ترجمانا ومستشارا له خلال رحلته البحرية الرابعة ، فانطلق معه . و"كان الشيخ حسن يقابل بالترحاب اينما ذهب خلال مصاحبته تشنغ خه فى رحلته . " وكانت فضائله موضع الاعجاب فى بلاد العرب . وعندما كان اسطول تشنغ خه فى طريق عودته من حيث اتى ثارت الاعاصير مهددة الاسطول بالغرق ، فابتهل الشيخ حسن الى الله ان يجعل الاسطول فى مأمن من الاذى . فما لبثت الاعاصير ان هدأت ونجا الجميع من الغرق من جراء ذلك . " وبالرغم

من ان هذه الرواية — وقد نقشت على نصب صخرى لترميم المسجد خلال حكم الامبراطور وان لى (١٥٧٣ — ١٦٢٠) — تبالغ فى اطراء الشيخ حسن ، الا انه لا مجال للشك فى ان هذا الشيخ الفاضل قد ادى مهمته ترجمانا ولعب دوره فى تهدئة النفوس فى الاوقات العصيبة . وبعد عودة الشيخ حسن الى الصين اعطاه تشنغ خه كثيرا من الاموال تقديرا لخدماته فى الابحار ، فاستفاد منها فى اعادة بناء مسجده .

بو رى خه : لقبه قوى فو ، من مواليد تشيوانتشو من قومية هوى . انه من ذرية بو شو قنغ (ابو الشوق) . . المسؤول عن الملاحة البحرية فى تشيوانتشو فى اواخر عهد اسرة سونغ . وكان بو رى خه متحمسا للاسلام ، وقد شارك جين على فى بناء مسجد تشينغجينغ فى تشيوانتشو فى اواخر عهد اسرة يوان . ونظرا الى انحداره من عائلة ابحارية عظيمة وسعة المامه بالابحار سمح له تشنغ بمصاحبته فى رحلته البحرية الخامسة سنة ١٤١٧ . وقد قام بزيارة للبلدان والمناطق فى الخليج الفارسى وشبه جزيرة العرب وسواحل افريقيا الشرقية . وقبل بدء الابحار توجه تشنغ خه الى المقبرة الاسلامية فى تشيوانتشو لتلاوة الآيات القرآنية على ارواح الموتى من المسلمين . واثر ذلك دبج بو رى خه مقالة تذكارية بهذا الامر نقشت على نصب صخرى فيما بعد ، وهى من المعلومات الاولية الفريدة الخاصة بتشنغ خه وابحاره . وبعد عودة بو رى خه من الابحار عين موظفا اداريا ومسؤولا عن شؤون المقبرة الاسلامية .

وبالاضافة الى ما هوان وقوه تشونغ لى وفى شين وحسن وبو رى خه كان فى عداد مرافقى تشنغ خه فى الابحار عدد كبير من المسلمين المغمورين ، اسهموا بدورهم فى تطوير التبادلات الثقافية بين الصين وبلاد العرب مستفيدين من اجادتهم اللغة العربية . ونعرف من «مشاهداتى فيما وراء البحار» ان تشنغ قد اوفد فى رحلته البحرية السابعة سنة ١٤٣٢ سبعة مترجمين للغة

العربية الى مكة المكرمة حاملين معهم كميات من المسك والخزفيات . واستغرقت رحلتهم هذه سنة واحدة ذهابا وايابا . و"كان من بين مشترياتهم مجوهرات فريدة وتشيلين (حيوان خرافى) واسد ونعامة .. الخ . وبالاضافة الى ذلك رسموا صورة « الكعبة » على الطبيعة ، وعادوا بها الى العاصمة (اى بكين) . اما حاكم مكة المكرمة فقد ارسل مبعوثه وزوده بالهدايا ليقدمها الى البلاط الامبراطورى بمصاحبة المترجمين السبعة المذكورين . " والحقيقة ان هؤلاء المترجمين المبعوثين هم بعثة الحج الصينية آنذاك . وارجح الظن ان صورة « الكعبة » هى اول صورة من نوعها فى الصين .

(٣) فن صناعة السفن والابحار فى عهد اسرة مينغ

معروف ان صناعة السفن والابحار ترتبط بعلم ميكانيكا الموائع وعلم الميكانيكا المادية وعلم الحركة المجردة وعلم الفلك وعلم الحساب وعلم المغناطيس وعلم الجغرافيا وعلم الارصاد الجوية والتكنولوجيا الصناعية . لذلك يحق لنا القول بأن تطور صناعة السفن والابحار يتوقف على تطور جميع هذه العلوم والتكنولوجيا السابقة الذكر .

كانت الصين عبر مراحل تاريخها متطورة جدا فى صناعة السفن والابحار . اما السفن الشراعية الصينية التى شاع استعمالها منذ عهد اسرتى ين وشانغ (القرن السادس عشر — القرن الحادى عشر قبل الميلاد) ، والجنك الكبير الذى اعجب ابن بطوطة فى عهد اسرة يوان (١٢٧١ — ١٣٦٨) فيقدمان دليلا على ان صناعة السفن والابحار فى الصين فى قديم الزمان كانت على ارقى مستوى فى العالم كله . وفى عهد اسرة مينغ (١٣٦٨ — ١٦٤٤) دخلت الصين مرحلة جديدة فى هذا المضمار بفضل نجاح تشنغ خه فى ابحاره سبع مرات . وبالمقابل فان صناعة السفن المتطورة والابحار المتصاعد فى عهد اسرة مينغ يبرهنان من زاوية اخرى على تطور العلوم والتكنولوجيا فى الصين آنذاك .

١) فن صناعة السفن

يتمثل تقدم صناعة السفن فى عهد اسرة مينغ فى ازدياد احجام السفن . ونعرف من «سيرة تشنغ خه» من «تاريخ مينغ» ان " هناك سفينة عجيبة وكبيرة الحجم رقم ٦٣ يبلغ طولها ٤٤ر٤ تشانغ * وعرضها ١٨ تشانغ" وكانت سفن تشنغ خه تنقسم الى ٥ اصناف : سفن عجيبة ، وسفن خيول ، وسفن حبوب ، وسفن ركوب ، وسفن حربية . ولكن السفن العجيبة هى اكبر من اخواتها حجما ، ذلك لأن لكل سفينة من هذه السفن ٩ صوار بالاضافة الى كبر حجمها (اى ٤٤ر٤ × ١٨ تشانغ) كما ذكرنا سابقا . واذا غيرنا تشانغ الى امتار تبين لنا ان السفينة العجيبة تبلغ ١٣٨ م طولا ، و٥٦ م عرضا . وهذا النوع من السفن الكبيرة لم يكن له مثيل فى العالم آنذاك ، وكفى بهذا دليلا على تفوق الصين فى صناعة السفن فى ذلك الوقت .

ان صناعة هذا النوع من السفن الكبيرة تتطلب ، اولا وقبل كل شىء ، توفر المعدات اللازمة والترسانات والموانئ الكبيرة . وهذه جميعها كانت متوفرة فى عهد تشنغ خه . وخير دليل على ذلك ان ترسانة لونغجيانغ للسفن العجيبة فى نانجينغ كانت من الترسانات والمراسى الكبيرة فى الصين آنذاك . اما احواض السفن الاربعة العليا ومثيلاتها الدنيا والمسالك المائية الصالحة لمرور السفن فما زالت محافظة على وضعها السابق . وتمتد جميع هذه الاحواض من الشرق الى الغرب ، وترتبط بمياه نهر جياجيانغ — رافد نهر اليانغتسى — تيسيرا لنزول السفن الى المياه . ومن بين هذه الاحواض حوض حجمه حوالى ٥٠٠ م × ٤٠ م . وكان مرفأ تايبينغ فى محافظة تشانغله بمقاطعة فوجيان مرفأ اساسيا لابحار اسطول تشنغ خه ، اذ انه ما من مرة ابحر فيها الى المحيط الهندى الا رسا فيه مدة تتراوح بين شهرين وعشرة اشهر ، مما اتاح

* تشانغ واحد فى عهد اسرة مينغ يساوى ١١ر٣ م .

له ان يصون سفنه ويختار الملاحين وينتظر هبوب الرياح الصالحة للملاحة . ان قاعدة صناعة السفن والمرفأ الكبير المذكورين آنفا لم يكن لهما اى مثيل فى العالم آنذاك . ويشير « تاريخ الدول الغربية » الى ان كافة السفن العجيبة "كانت ترسو فى المياه البعيدة عن السواحل لعدم وجود المرافئ الصالحة لرسوها ، مما اضطر الملاحين الى ركوب القوارب للصعود الى اليابسة ."

ثانيا : لأجل بناء السفن الكبيرة لا بد من ايجاد حلول ناجحة لمشكلة وقاية السفن من الغرق وضمان ملاحتها باستقرار . وعلى ضوء تجارب الاسلاف التقليدية قام مصممو السفن العجيبة بتوسيع بدن هذا النوع من السفن الى ٥٦ مترا ، وجعلوا النسبة ما بين طولها وعرضها ٢ر٤٥ . وذلك للحيلولة دون انقطاع بدن السفينة فى امواج المحيط الهندى الهائلة بسبب طوله المفرط . وكانت نسبة السفن الطولية والعرضية معقولة جدا فى ذلك الزمان . ومن اجل زيادة متانة السفن (عرضها ٥٦ م) الافقية لوقايتها من الغرق والحفاظ على استقراربة ملاحتها رفعوا من قدرتها على تحمل الضغط خلال ارتجاجها فى الامواج عموديا . وفى السنوات القليلة الماضية تم اكتشاف سفينة فى خليج تشيوانتشو صنعت فى عهد اسرة سونغ (١٢٧١ — ١٣٦٨) . ويبلغ طولها ٣٥ر٥ م وعرضها ١٠ر٢٦ امتار . وهى اصغر من سفن تشنغ خه بكثير . ولهذه السفينة المكتشفة ١٣ عنبرا يقسمها ١٢ فاصلا من العوارض الخشبية البالغ سمكها ١٠ — ١٢ سم ، علما ان كل فاصل من هذه الفواصل مكون من ٣ — ٤ قطع من الالواح الخشبية المتعشق بعضها بعضا والمرتبطة بأضلاع السفينة . اما الجدران فيما بين عنابر السفينة فهى مسيكة لا تنضح ابدا . ويعتقد بأن سفن تشنغ خه قد شهدت تطورا كبيرا على اساس السفينة المكتشفة التى تصغرها بأربع مرات .

ثالثا : من اجل صناعة هذا النوع من السفن الكبيرة لا بد من ايجاد

حلول ناجحة لمشكلة الالواح ولكيفية الوصل بين اجزاء السفينة طوليا . وخلال السنوات المنصرمة قام العلماء بدراسات نظرية لمدى المتانة التى يتمتع بها بدن سفينة تشنغ خه ، فوجدوا فى انحناء البدن العام قوة تمكنه من تحمل ضغطه الطولى ، واستنتجوا ان سماكة الواح السفينة السفلى تبلغ حوالى ٣٤٠ ميليمترا وان سماكة ظهرها تبلغ حوالى ٣٨٠ ميليمترا . وتبدو هذه النتيجة بعيدة عن الصحة لأول وهلة ، الا انها حقيقة تاريخية لا تدعو الى الشك ابدا . وتفيدنا هذه الحقيقة بأنه كان من المستحيل صنع السفينة البالغ طولها ١٣٨م وعرضها ٥٦ م من دون الواح خشبية سميكة الى هذا الحد ، اذ لولاها انقصت متانة بدن السفينة . وتجدر الاشارة الى ان السفينة المكتشفة فى خليج تشيوانتشو قد استفيد من فن التعشيق والتسمير فى تقوية اجزائها المركبة ، ومن المحاشى فى سد فجوات بدنها ، مما ادى الى الحيلولة دون تسرب المياه الى عنابرها . ويعتقد ايضا بأن صناع السفن فى عهد تشنغ خه لم يكتفوا بوراثة فن صناعة السفن المتقدم هذا بل عملوا على تطويره الى حد ما .

ان ظهور السفن العجيبة خلال ابحار تشنغ خه ٧ مرات جاء نتاجا لتطور صناعة السفن فى عهد اسرة مينغ على اساس تطورها فى عهد اسرتى تانغ وسونغ . وقد كللت جهود صناع السفن فى عهد اسرة مينغ بالنجاح فى صنع اكبر سفينة عجيبة فى تاريخ الصين لمواكبة مقتضيات السياسة والاقتصاد فى ظل الظروف التاريخية الاستثنائية . وجدير بالذكر ان تقدم صناعة السفن المستمر كان مرتبطا بتطور القوة الانتاجية آنذاك ، وان الفضل فى صناعة تلك السفينة الكبيرة يعود ايضا الى تشنغ خه الذى ابحر ٧ مرات .

٢) الابحار

لقد شق ابحار تشنغ خه طريقا بحريا من الصين الى المحيط الهندى والبحر الاحمر وافريقيا الشرقية ، وفتح عهدا جديدا فى تاريخ الابحار الصينى

ونظيره العالمى ، ورفع مستوى الابحار لدى الصينيين ، كما ادى الى اغناء معارفهم فى هذا المضمار .

وفى وقت سابق لعهد اسرة سونغ (٩٦٠ ـ ١٢٧٩) كان البحارة يستفيدون من الشمس والقمر والنجوم فى معرفة اتجاه الابحار بصورة رئيسية . فلا غرو اذن فى انهم غالبا ما كانوا يضلون الطريق . وقد دون ذلك بكل وضوح فى « سيرة فا شيان » من « تاريخ جين » . ومنذ استخدام البوصلة (وهى من الاختراعات الصينية الاربعة العظيمة) فى الابحار بعد عهد اسرة سونغ تغير الوضع كما قال تشو يوى فى كتابه « احاديث فى بينغتشو » " لا بد للمرء من مشاهدة النجوم فى الليل ، ومشاهدة الشمس فى النهار ورؤية البوصلة فى الايام الغائمة " . اما فى عهد اسرة مينغ (١٣٦٨ ـ ١٦٤٤) فقد شهدت الصين تطورا ملحوظا فى استخدام البوصلة . يومها كانت البوصلة " مصنوعة من لوح خشبى مقعر قرصى الشكل منقوش بالرموز ، ومن ابرة عائمة على المياه فى اللوح . وكانت السفن تسير حسب الاتجاه الذى تشير اليه الابرة . " وفقا لما ورد ذكره فى « تاريخ الدول الغربية » . وفيما كان احد الاساطيل لتشنغ خه يبحر فى المحيط الهندى استفاد من علم الفلك والبوصلة والعلامات البرية وجهاز سبر غور المياه وجهاز مسح قعر البحر فى خدمة الملاحة . ونتيجة لذلك قطعت الصين شوطا كبيرا فى فن الابحار . وتفيدنا « خريطة ابحار تشنغ خه » ان البحارة كان باستطاعتهم تعديل اتجاه ابحار السفن اعتمادا على البوصلة عندهم لكى تتساير مع جهة نهر وسرنغ الذى كان علامة لها فى البر . وكان فن الملاحة الصينى هذا متقدما جدا فى العالم ، ذلك ان البحارة فى سائر البلدان كانوا يعتمدون فى ملاحتهم على الاجهزة البسيطة التى استخدمت فى مشاهدة نجمة القطب الجنوبى وسائر النجوم ، وبقوا على هذه الحالة حتى اواخر القرن الخامس عشر .

وتعتبر « خريطة ابحار تشنغ خه » من منجزات الملاحة العظيمة فى عهد اسرة مينغ . وكانت هذه الخريطة تدعى « خريطة ابحار السفن العجيبة الى الدول الاجنبية بعد مغادرتها الترسانة والمرور بمصب نهر التنين » . وقد ألحقت بكتاب « تاريخ الشؤون العسكرية » الذى ألفه ماو يوان يى فى اسرة مينغ ، وهى اقدم خريطة بحرية فى تاريخ علم الخرائط الصينى . وتفيدنا هذه الخريطة بأن رحلة اسطول تشنغ خه تبتدئ من نانجينغ وتنتهى بمنباشا على ٤ درجات من خط العرض الجنوبى فى كينيا بافريقيا الشرقية . ويصل عدد الاماكن التى تضمها هذه الخريطة الى اكثر من ٥٠٠ مكان ، منها ٣٠٠ مكان فى آسيا وافريقيا . ولذلك اعتبرت اكمل خريطة لآسيا وافريقيا ظهرت فى الصين قبل القرن الخامس عشر . وقد تم رسم هذه الخريطة بالفرشاة المستعملة فى الرسوم الصينية التقليدية . وتظهر عليها خطوط الملاحة ومواقع المناطق والاماكن . واذا قورنت الى الخرائط البحرية العصرية تبين لنا ان ما يظهر عليها مضبوط جدا ، وان امتدادات الإبحار وابعاده ومرافئ رسو السفن والصخور المغمورة والاماكن الضحلة واضحة ايضا كل الوضوح . ان هذه الخريطة العظيمة الشأن كانت نادرة الوجود فى تاريخ عام الخرائط العالمى فى القرن الخامس عشر . وعلى الرغم من ان اسلوب رسم هذه الخريطة يختلف عن الاسلوب الذى استخدمه العربى ادريس فى رسم خريطته ، الا ان بعض الاصطلاحات فى الخريطتين المذكورتين متشابه . وليس هناك استنتاج نهائى حتى الآن يحدد هوية مخترع هذه الاصطلاحات أصينى هو ام عربى . فلا غرابة اذا قلنا ان استخدام الاصطلاحات المشتركة فى الخريطتين الصينية والعربية هو تجسيد للتبادلات الثقافية الصينية والعربية .

لقد قام اسطول تشنغ خه بالابحار البعيد المسافة والطويل الزمن مرارا وتكرارا ، وهذا ألزمه زيارة كثير من البلدان وممارسة النشاطات الدبلوماسية

والتجارية معها . وفى ذلك ما يدل على مدى قوة ابحاره . ومما يستحق الذكر ان خطوط ملاحة هذا الاسطول متعرجة ومعقدة للغاية . والدليل على ذلك انه دائما ما كان يعدل عن ابحاره الطبيعى الطويل ليمارس ابحاره القصير المسافة على خطوط ملاحة مؤقتة ، يبلغ عددها خطا او خطين تارة و٥ — ٦ خطوط تارة اخرى . هذا وقد شق ابحار اسطول تشنغ خه مسلكا بحريا جديدا امتد من الصين الى افريقيا الشرقية ، كما شق مسالك بحرية جديدة اخرى . وحسب الاحصائيات الواردة فى «جامع المعلومات حول ابحار تشنغ خه فى المحيط الهندى» ، من تأليف تشنغ خه شنغ وتشنغ يى جيون ، فان عدد المرافئ الهامة التى بدأ فيها اسطول تشنغ خه ابحاره قد بلغ اكثر من ٢٠ مرفأ ، وعدد المسالك البحرية الرئيسية السليكة لديه قد باغ ٤٢ مسلكا بحريا . ويدل ذلك على مدى تطور قضية الابحار الصينية آنذاك ! وجملة القول ان ابحار هذا الاسطول قد فتح عهدا جديدا فى تاريخ الابحار الصينى كما ترك اثره الكبير فى اختيار المتأخرين للمسالك البحرية فى المحيط الهندى والمحيط الهادى .

الفصل الثالث

اسهامات المسلمين فى تاريخ الادب والفن الصينى

١ — الآداب

ان ازهار المسلمين الصينيين من مختلف القوميات تتباهى بنضرتها فى بستان الادب الصينى ، وتفخر بألوانها الزاهية ورائحتها الذكية المنقطعة النظير .

(١) المنجزات الادبية للمسلمين الصينيين

تنقسم هذه المنجزات الادبية الى ٣ اصناف : اعمال الكتاب الادبية والاعمال الادبية الشعبية والاعمال الادبية المترجمة .

لا يخلو المسلمون الصينيون من العلماء والكتاب والشعراء المعروفين فى حقل الادب الرسمى والشعبى فى كل عهد من العهود . فمنهم لى شون واخته لى شون شيوان فى القرن العاشر ، ويوسف خاص حاجب فى القرن الحادى عشر ، واحمد يوقناك ، وسعد الله ، وبو شو تشنغ ، ودينغ خه نيان ، ولى تشى ، وسوه ماو جيان ، ولطفى ، وسايكاك ، وناوى ، وعبد الرحمن الجامى فى الفترة ما بين القرن الثانى عشر واواسط القرن السادس عشر ، ودينغ بنغ ، وشا تشن ، وما تشى لونغ ، وسا دا تسى ، وتساى لى لى ، وعبد الرحيم نضال ، الملا بلال ، وتوردوش ، وخضر ، وتاجرك جاود ، ومتلف فى الفترة ما بين اواسط القرن السادس عشر واواسط القرن العشرين . ولكل من هؤلاء المذكورين اعمال خالدة يحتل الكثير منها مكانة هامة سواء أكان ذلك فى تاريخ الادب القومى ام فى تاريخ الادب الصينى ام فى تاريخ الادب العالمى . اما « ديوان شعر يانمن » بقلم سعد الله من قومية هوى ، و« الكتاب المؤلف للاحراق » و« ملحق الكتاب المؤلف للاحراق » و« الكتاب المخزون » و« ملحق الكتاب المخزون » بقلم لى تشى من قومية هوى ، و« قوتاد غوبيليك» بقلم يوسف خاص حاجب من قومية الويغور ، و« مخرج الى الحقيقة » بقلم احمد يوقناك من قومية الويغور ، و« رابية وسعد الدين » بقلم عبد الرحيم نضال من قومية الويغور ، والاشعار والمقالات النثرية لعبد الرحمن جامى من قومية الطاجيك و« صالح وسلمى» بقلم خضر من قومية القازاق ، فتعتبر كلها من روائع الاعمال فى تاريخ الادب الصينى . ولكل من القوميات المسلمة الصينية كثير من الاغانى الشعبية والقصص والروايات والامثال وقصص

الاطفال والهزليات والاشعار الروائية والملاحم والاقوال المأثورة والاماليح والالغاز .. الخ . وهذه الآداب الشعبية على اختلافها مشرقة بمحتوياتها الغنية وجديرة بأن تعتبر مرآة لتطور تاريخ القوميات المسلمة فى الصين وحياتها الاقتصادية ومنابعها الثقافية وعاداتها ومزاياها . واشد ما يدعو الى الاهتمام فى كنز المسلمين الصينيين هو الاغانى الشعبية المتنوعة والحكايات الشعبية الزاهية الالوان والاماليح المشوقة والملاحم البطولية المهيبة والاشعار الروائية الرائعة .

لقد عرف ابناء قومية هوى وسالار ودونغشيانغ وباوآن فى شمال غربى الصين ببراعتهم فى اغانى " هوا — أر" والاناشيد الشعبية وانشودة " الوليمة" وانشودة " سالار" وترديد صيحات العمل الايقاعية واغانى الاطفال الى جانب براعة ابناء قومية هوى فى مقاطعة يوننان فى ترتيل الاناشيد .. الخ . لكن اغانى " هوا — أر" هى اوسع شعبية من اخواتها ، وتدعى " هوا — أر" بـ " الاغانى الفلكورية" ايضا . ولها فتنة فنية قوية بسبب جهار اصواتها ورخامتها من جهة ، وبسبب شدة قابليتها للاعراب عن العواطف من جهة اخرى . وهذا هو سر حظرتها باستحسان ابناء مختلف القوميات فى شمال غربى الصين . وقد عرفت ولاية لينشيا الذاتية الحكم لقومية هوى (اى خنشو فى السابق) بأنها موطن لأغانى " هوا — أر" ، ذلك لأن هذه الاغانى الشعبية المتأصلة فى نفوس جماهير الشعب تعكس الحياة الاجتماعية المحلية بعمق ، وتتناقلها ألسنة المسلمين من مختلف القوميات جيلا بعد جيل . فلا نبالغ اذا قلنا انها نجمة متألقة فى سماء الفن داخل الوطن الام ، لا تأفل ابدا . وفى غضون السنوات القليلة الماضية تكللت فرقة الغناء والرقص التابعة لولاية لينشيا الذاتية الحكم بالنجاح فى اخراج مسرحية «الانتقام فى بحر من الازهار» بأغانى " هوا — أر" . وقد حازت هذه المسرحية المتميزة بالسمات

القومية والمحلية جائزة خاصة فى مهرجان مقاطعة قانسو المسرحى الذى اقيم سنة ١٩٨٥ ، مما اضاف شكلا فنيا جديدا الى خشبة المسرح الصينية . اما اغانى " تسايدياو " المحببة الى ابناء قومية هوى فى يوننان فهى من اروع الاغانى الشعبية . وتتجلى روعتها فى حيوية لغتها وبساطتها ، ونبضها بالسمات الحياتية القوية وتميزها بالخيال الخصب وشدة قابليتها للغناء الى جانب بقاء تأثيراتها فى نفوس المشاهدين ردحا طويلا من الزمن . والدليل على ذلك ان اغنية « يا بنى ! » من هذه الاغانى قد عمت كافة انحاء الصين منذ الخمسينات من هذا القرن بعد ان ادخلت عليها بعض التحسينات .

والروايات الشعبية الشائعة وسط المسلمين الصينيين من مختلف القوميات زاخرة بالمحتويات الممتعة . ومن بين روايات قومية هوى وحدها روايات دينية مثل « قصة آدم وحواء » و« نجاة على من الموت بأعجوبة » . وروايات تتعلق بتاريخ قومية هوى مثل « منشأ هوى هوى» و« مطاردة الخيول فى حفلات الزفاف لدى قومية هوى» . وروايات تشيد بأبطال قومية هوى وعلمائها مثل « قصة يوسف دو ون شيو» و« قصة السيد شمس الدين » و« قصة تشنغ خه » و« وانغ داى يوى يناقش رجال الاديان الاخرى مدافعا عن الدين الحنيف» و« معلم كلمة واحدة » . وروايات تعكس مكافحة الآفات الطبيعية مثل « نصب لوح التنين » و« البقرة الذهبية » و« الشيخ . . قاتل الثعبان الشرير» . وروايات لتمجيد مواهب الشغيلة مثل « بقرة تخترق الجبل » و« تغطية حاجب العين » . وروايات لاستنكار الشراهة والبخل والكسل مثل « امرأة كسول » . وروايات لتمجيد البر والامانة مثل « احمرار الازهار المطلة على المياه الرقراقة » و« الجد كانغ شى يأكل ابسط طعام » . وروايات حول تواريخ بعض المناطق مثل « جبال ليوبان الغنية بالاعشاب الطبية » و« انتقال البقرة النحاسية الى مكان جديد » و« تاريخ قرية ناجيا » الى جانب « قصة شياو شين تسى» وانواع

شتى من الروايات حول الحيوانات والتى تنتشر بين مسلمى مقاطعة يوننان . وجدير بالذكر ان جميع هذه الروايات اظهار لمفاهيم المسلمين الاخلاقية ومقاييسهم المتبعة فى تمييز الحق من الباطل والخير من الشر ، وعاداتهم وتاريخ نشوئها . وجملة القول ان هذه الروايات متميزة بأسلوبها القومى القوى :

وهناك قصص فكاهية كثيرة ذات شعبية واسعة وسط المسلمين من القوميات الناطقة باللغة التركية فى منطقة شينجيانغ ، منها « قصص ناصر الدين افندى» و« قصص الملا زيد » و« قصص صالح اسحاق » و« قصص خوجه ناصر» و« قصص اردار كوشا » و« قصص جرس » .. الخ . وهذه القصص غالبا ما تكون قصيرة وبديعة ، فكاهية وممتعة . وابطالها الاذكياء انواع شتى من الناس ، فيهم الامراء والوزراء والتجار ورجال الدين والاناس العاديين . ومهما تختلف مكاناتهم فانهم دائما ما يقفون موقف الكادحين ، وبجانب البر والعدل ، ويسخرون من الطغاة ويفضحون مساوئهم ، وينقدون الطغيان ، ويدعون الى العدل . اما « قصص ناصر الدين افندى» فقد انتشرت انتشارا واسعا حتى اصبحت معروفة لدى جميع القوميات الصينية . زد على ذلك ان ناصر الدين افندى — بطل القصص — صار مضرب المثل فى الهزل والذكاء وانصاف المظلومين من ابناء الشعب الصينى قاطبة . وعلى امتداد مئات السنين ظلت هذه القصص شائعة بين مسلمى شينجيانغ من مختلف القوميات حتى تطورت وتكاملت ، ودخلت اثر ذلك الى مصاف الروائع فى حقل الادب الصينى .

وهناك ملاحم بطولية واشعار روائية عميقة وضخمة الحجم تنتشر وسط قوميتى القازاق والقرغيز فى شينجيانغ . وقيل ان عدد القصائد الروائية الشعبية الشائعة وسط القازاقيين يربو على ٢٠٠ قصيدة تتناقلها ألسنة المغنين القازاقيين جيلا بعد جيل . ومن بين نماذجها : « الابامس » و« كوبولاند » .. الخ . اما « ماناس » — ملحمة اهالى القرغيز — فهى ذائعة الصيت داخل الصين

وخارجها . وتنقسم هذه الملحمة الضخمة الى ٨ اجزاء ، وتتكون من اكثر من ٢٠٠ الف بيت . وهى تسجل المآثر البطولية لـ ٨ اجيال من اسرة ماناس ، ويصور بعض ابياتها نيران الحرب الرهيبة ، ويتناول بعضها الآخر قصص الحب المؤثرة او الاساطير الساحرة او العادات وواقع الحياة الشعبية . وهذه الملحمة الزاخرة بالبطولة والرومانسية مبعث فخر بالنسبة لقومية القرغيز ، كما تعد من الفرائد فى كنز آداب الامة الصينية .

وبالاضافة الى اعمال الكتاب الادبية والاعمال الادبية الشعبية اسهم المسلمون من مختلف القوميات فى ترجمة الاعمال الادبية . من ذلك ان الشيخ ما آن لى – وهو عالم من قومية هوى – قام سنة ١٨٩٠ بترجمة قصيدة « البردة » للشاعر المصرى الشهير البوصيرى (حوالى ١٢١٣ – ١٢٩٥) الى اللغة الصينية على شكل اشعار « شى جينغ » (وهو اقدم ديوان شعر فى الصين) ، واطلق على ترجمته هذه اسم « تيان فانغ شى جينغ » (اى ديوان الشعر العربى) . وقام الشيخ وانغ جينغ تشاى سنة ١٩٤٧ بترجمة « كلستان » للشاعر الفارسى العظيم سعدى شيرازى (حوالى ١١٩٣ – ١٢٩١) فى القرن الثالث عشر الى اللغة الصينية ، وسمى ترجمته هذه « تشن جينغ هوا يوان » (حديقة المناظر الحقيقية) ، وهذا ساعد طلاب العلم فى المدارس المسجدية على فهم معانى ديوان الشعر العظيم . اما الويغورى باتسولى حمزة شركندى – المتخصص فى ترجمة الاعمال الادبية فقد قام سنة ١٧٩٦ بنقل « شاه نامه » العظيم للشاعر الفارسى فردوسى الى اللغة الصينية بنجاح . وبالاضافة الى ذلك جمع الشاعر الويغورى الآخر المناخ سنة ١٨١١ اشعار اكثر من ٢٠ شاعرا معروفا فى مناطق آسيا الوسطى ومنطقة شينجيانغ ، وضمنها ديوان شعر نشره باللغة الويغورية تحت عنوان « باياتسى » . ولا تفوتنا الاشارة الى ان السيد نا شيون والسيد ما شينغ تشو قد ترجما « ألف ليلة وليلة » و « قصص

الاطفال العربية » الى اللغة الصينية ، كل على حدة ، كما قام الاستاذ محمد مكين بتعريب « الحوارات » (وهو كتاب كرنفوشي معروف) . وقد لعب كل ذلك دورا كبيرا وفعالا فى تعزيز التفاهم والتبادلات الثقافية بين الشعب الصينى من جهة وشعوب بلاد العرب وبلاد الفرس ومناطق آسيا الوسطى من جهة اخرى .

(٢) مزايا آداب المسلمين الصينيين

تتميز الاعمال الادبية للمسلمين الصينيين اولا وقبل كل شيء بتأثرها بالحضارة الاسلامية التى انتقلت الى الصين من بلاد العرب وبلاد الفرس .

ان دواوين الشعر الويغورية الكلاسيكية التى يمثلها « قوتاد غوبيليك » تشبه مثيلاتها العربية من حيث الشكل درن استثناء . وهى تبتدئ بـ " البسملة " وتسبيح الله والصلوات على النبى وعلى آله وصحابته اجمعين . ولأغلبية الاشعار الويغورية عروض عربية وفارسية الشكل ، ذلك ان عروضها تقوم على اساس استخدام الحروف الممدودة والمقصورة فى الروى بصورة متناوبة ، وتكرير استخدام هذه الممدودات او المقصورات عند الضرورة . وتتكون هذه الاشعار من المثنويات او الرباعيات الشائعة فى بلاد العرب والفرس ومناطق آسيا الوسطى . ومما يستحق الذكر ان دواوين الشعر الويغورية هذه غالبا ما تضاف اليها بعض الآيات القرآنية والاحاديث النبوية ، مما يزيد من صبغتها الاسلامية . وتشتمل « اربعون غصنا » و« حكاية الببغاء » ، وهما من القصائد الروائية الطويلة لقومية القازاق ، على عشرات القصص المستقلة والمتسلسلة فى آن واحد ، شأنهما شأن « ألف ليلة وليلة » . واما « قصص الافندى» لقومية الويغور فلا تختلف عن « قصص خوجه ناصر الدين » التركية و« عجائب فى بلاد الفرس » و« نوادر جحا » العربية شكلا ومضمونا واسلوبا . وكفى بذلك دليلا على ان لكل هذه الاعمال الادبية مصدرا ثقافيا مشتركا .

وللاسلام تأثير لغوى واضح فى الاعمال الادبية للمسلمين الصينيين . ودليل ذلك انها تقتبس كثيرا من الآيات القرآنية والاحاديث النبوية ، وتستخدم فيها المفردات العربية والفارسية مباشرة مثل " القام " و" دوست" (كلمة فارسية تحمل معنى " الصديق ") و" الدنيا " و" دوشمان " (كلمة فارسية تحمل معنى " العدو") و" ابليس " . . الخ .

اما محتويات هذه الاعمال وموضوعاتها فتأثرها بالاسلام اعمق واشد . من ذلك ان القصص القرآنية وقصص الانبياء والائمة والصالحين والاولياء والشيوخ . . الخ قد شكلت آدابا شفوية لدى المسلمين الصينيين من مختلف القوميات ، كما ان القصص الواردة الى الصين من بلاد العرب وبلاد الفرس قد تحولت بعد ان نقاها وحسنها المسلمون الصينيون الى اعمال ادبية صينية جميلة . وقصيدة الحب الروائية : « ليلى والمجنون » و« فرهاد وسيرين » و« اسطورة اسكندر» كلها من قبيل هذه الاعمال الادبية . اما الاعمال الادبية التى تعكس التعاليم الاسلامية وتدعو الى المبادئ الاخلاقية الاسلامية فهى كثيرة يتعذر احصاؤها . و« مدخل الى الحقيقة » بقلم احمد يوقناك هو من نماذج هذا النوع من الاعمال الادبية ، اذ انه يقوم على تهذيب العقل بالمبادئ الاخلاقية الاسلامية والاحاديث النبوية ، ويخلو من الشخصيات والحبكات الروائية . وبالاضافة الى ذلك فقد تركت المبادئ الاخلاقية الاسلامية اثرها حتى فى اشعار الشعراء المسلمين المتأثرين بالحضارة الصينية تأثرا عميقا . من ذلك ان قصيدة « المقتنع دائما غنى ما بعده غنى» بقلم لى تشى و« تمجيد السخاء » بقلم سا دا تسى وقصيدة « الاقتناع » بقلم سعد الله وغيره هى من الاشعار المعبرة عن الحنين الى الماضى ، وكلها انعكاس لوجهة النظر الاسلامية الى الحياة ، شأنها شأن كتاب « مدخل الى الحقيقة » . ويعتقد بأن ذلك لا ينفصل عن تطبعهم الفطرى بالتعاليم الاسلامية .

ثانيا : تأثر الاعمال الادبية للمسلمين الصينيين بالحضارة الصينية التقليدية .

اذا تصفحت اشعار الشعراء القدامى من قومية هوى وجدتها اعمالا صينية مثالية من حيث شكلها ومضمونها واسلوبها ولغتها . وقد جاء ذلك نتاجا لمواظبة اسلاف ابناء قومية هوى على دراسة الحضارة الصينية بعد مجيئهم الى الصين . وهذا خير دليل على انهم كانوا متمسكين نصا وروحا بالحديث الشريف : " اطلب العلم ولو فى الصين " . ومن المعروف ان قومية هوى الصينية قد تشكلت خلال فترة الذوبان القومى الواسع النطاق فى عهد اسرتى يوان ومينغ (١٢٧١ - ١٦٤٤) . وقد تم ذلك فى مجرى تعامل المسلمين من مختلف القوميات مع ابناء قومية هان الصينية واقامتهم صلة القرابة معهم واتخاذهم لغة هان لغة لأنفسهم . وهم لم يستوعبوا هذه اللغة نطقا وكتابة فحسب ، بل انبثق منهم كثير من الشعراء مثل بو شو تشنغ ، وشمس الدين ، وقاو كه قونغ ، وما جيو قاو ودينغ خه نيان وحتى سعد الله الذى اعتبر شاعرا مفلقا فى عهد اسرة يوان . وقد اغنت اشعارهم الباهرة كنز الآداب الصينية الكلاسيكية .

اما الآداب الشعبية لقومية هوى والقوميات المسلمة الاخرى فقد تأثرت بحضارة هان ايضا . فهنالك مثلا كثير من الروايات حول القضاة الحكوميين والقضاة الاسلاميين العادلين تتناقلها ألسنة ابناء قومية هوى ، منها « استجواب البلاطة الزرقاء » و« ارملة شابة تبكى بجانب قبر زوجها » و« زوبعة تتهم » و« قضية المسمارين » . . الخ . ولكن اغلبية هذه الروايات الشفوية هى طبق الاصل للروايات المماثلة الشائعة وسط ابناء قومية هان نحو « القاضى باو يحكم بين الناس بالعدل » وامثالها . فقد اعاد الكتاب من ابناء قومية هوى ابداعها ، وادخلوا عليها الشخصيات والعادات والاصطلاحات الدينية تيسيرا لشيوعها وسط قوميتهم . ومن بين الروايات الشائعة بين مسلمى مقاطعة يوننان

رواية بعنوان « غرز لوح للتنين » تتلخص فيما يلى : هناك شاب من قومية هوى تكلف فى ايام الجفاف بمهمة استمطار الله المياه فى قصر التنين . ولما اخذ لوح تنين برونزيا من المسجد عبر جهود مضنية ، توجه الى موقع التنين وقتله . فما لبث ان تحول عندها الى تنين كبير وانزل المطر على الارض القاحلة . وبدهى ان هذه الرواية اسطورة لا صلة لها بالاسلام الذى يدعو الى عبادة الله وحده واستعانته فى كل شىء بما فيه الاستمطار . فشيوع الرواية المذكورة وسط مسلمى يوننان ما هو الا انعكاس لتأثرهم بحضارة قومية هان .

ولا تخلو الاعمال الادبية الكلاسيكية لقومية الويغور واخواتها فى شينجيانغ من تأثيرات حضارة قومية هان . ففى متحف منطقة شينجيانغ الويغورية الذاتية الحكم نسختان لمخطوطات الشاعر كمال ، ترى فى احداهما ثلاث قصائد نظمها سنة ٨١٥ ، وهى « استذكار دراسة المقاطع الصينية » و« تهذيب الاولاد » و« استنكار الذئاب» ، بينما ترى فى النسخة الثانية قصيدة للشاعر الفذ باى جيوى يى (٧٧٢ — ٨٤٧) من قومية هان بعنوان « بائع الفحم النباتى» ، وهذه القصيدة نسخها كمال سنة ٨٢٠ . اما قصيدة « استذكار دراسة المقاطع الصينية » فتتلخص معانيها فيما يلى :

نتعلم المقاطع الكتابية من اهل هان منذ القدم ،
ونتعلمها جيلا بعد جيل تعلما غير وان .
لقد تعلمها جدى عقدا من الاعوام ،
وتعلمها والدى اثنى عشر من الاعوام ،
واما انا فقد تعلمتها ثلاثة عشر من الاعوام .
فكلنا معجبون بأشعار لى — دو * اشد الاعجاب .

* يشار بـ " لى — دو " الى الشاعرين الكبيرين لى باى ودو فو فى تاريخ الصين .

هذا خير دليل على ان حضارة قومية هان قد انتقلت الى المنطقة الغربية منذ عهد اسرة تانغ . وفيما ظهر « قوتاد عوبيليك » فى القرن الحادى عشر كانت المنطقة الغربية (شينجيانغ اليوم) مركزا للتبادلات الثقافية بين الشرق والغرب وملتقى جمع بين حضارة هان والحضارة الاسلامية . ويعتبر « قوتاد غوبيليك » من الانجازات الادبية الهامة لتطور هاتين الحضارتين المشترك آنذاك . وتشير مقدمة « قوتاد غوبيليك » الى ان هذه القصيدة الروائية " قد تم نظمها من اقوال الحكماء فى الصين ومن اشعار الشعراء فى مكة (يشار بها الى بلاد العرب) " . ونعرف من ذلك ان لهذه القصيدة علاقات وثيقة بحضارة هان الصينية . فلا غرو ان يرى كثير من العلماء ان وجهات النظر الفلسفية فى « قوتاد غوبيليك » كونفوشية تماما .

ثالثا : لآداب القوميات المسلمة فى الصين مزاياها العامة ومزاياها الخاصة . وتتمثل المزايا العامة فى حب الوطن الام وحسن المعاشرة بينهم وبين بنى وطنهم والوقوف بجانب العدل والحماسة والاريحية والتقوى والامانة والدهاء والشجاعة والصمود ورباطة الجأش . الا انه لكل قومية من القوميات المسلمة الصينية ميزاتها الخاصة بسبب اختلاف اساليب حياتها وانتاجها ومصادرها الثقافية وعواملها النفسية ومفاهيمها للجمال . وهذا ما جعل آداب كل قومية منها تتميز بالسمة والاسلوب الخاصين بها . فالملاحم البطولية للقوميات الرعوية مثلا مفعمة بالفخر والبأس والشجاعة ، وتقوم آداب القوميات الزراعية بايضاح المعانى الفلسفية بتصوراتها العميقة والدقيقة . زد على ذلك ان الاغانى الشعبية الشائعة وسط الفلاحين الويغوريين تختلف عن مثيلاتها الشائعة بين فلاحى قومية هوى اختلافا كبيرا . فلنأخذ اغنية حب شعبية ويغورية فيما يلى مثلا :

في ليلة مقمرة جميلة ،
جئنا نحن الاثنين الى مقبرة الخوجه المهيبة ،
حيث وضعنا يدينا على صدرينا ،
وأدينا اليمين لاظهار الحب فى قلبينا .

* * *

قلت وانت تشيرين الى قبة القبر الذهبية اللون :
" احبك يا حبيبى بهمة قوية كالذهب ! "
واقسمت انا قبالة قبر المحظية العطرية :
" لن يأخذنى اى خوف من اذى القوى الشريرة ! "

* * *

فوجدتك تصافحيننى بكل ما اوتيت من قوة ،
ووجدتنى ارتمى على صدرك بسرور .
وفيما كانت النجوم تغمزنا بفضول ،
اختفى القمر فيما وراء السماء .

وهناك اغنية حب شائعة وسط الفلاحين من قومية هوى ، تعبر عن الحب بين شاب وحبيبته بصلابة وصراحة وجرأة وحماسة ووضوح . وهى تخلو من التعابير المزوقة التى نراها فى الاغنية الويغورية السالفة الذكر . وقد جاء فى هذه الاغنية :

لن تغرينى النوافذ والابواب الزاهرة ،
ولن تغرينى الثريا فى سقف القاعة الفاخرة .
لن تهددنى السيوف وسائر الادوات القاتلة ،
ولن اخاف الموت من اجل حبيبتى الفاتنة .

* * *

باستطاعة الحداد ان يسبك السيوف ،
وباستطاعة الدباغ ان يصنع القراب .
وما يسعنى هو ان اموت من اجل الغرام ،
فعليك يا حبيبتى ان تفتحى لى ابواب الحب .

ويظهر نفس الاسلوب الانشائى فى اعمال الشعراء من قومية هوى . خذ مثلا قول لى تشى فى شعره « لست بطلا » :

لست بطلا لو نسيت التضحية بالحياة ،
ولست بطلا لو نسيت بذل الذات .
ماذا انتظر فى هذه الدنيا الظالمة ؟
يا ليت نفسى ترجع الى الرب اليوم راضية !

فهذا الشعر يعبر عن عزيمة الشاعر فى معارضة القوى الرجعية ، وعن روحه فى عدم الخوف من التضحية فى سبيل الحق . وما يظهر فى هذا الشعر من اسلوب مقابلة المثل بالمثل يختلف اختلافا تاما عن اسلوب الافندى المتمثل فى سخريته من الحكام سخرية ذكية مرحة .

٢ ــ فن الخط والرسوم

لقد شهدت الصين عددا من الخطاطين والرسامين المسلمين فى كل فترة من فتراتها ، منذ قديم الزمان حتى يومنا هذا . وبعض هؤلاء الخطاطين والرسامين من المتعمقين فى الادب والشعر . فقد كان شمس الدين (١٢٧٧ ــ ١٣٥١) سياسيا وعالما واسع الاطلاع وخطاطا شهيرا فى عهد اسرة يوان (١٢٧١ ــ ١٣٦٨) . وقد علق المؤرخ المرموق المكانة تشن يوان على كتابات شمس الدين على احد الانصاب الحجرية قائلا : ان هذه الكتابات هى الفريدة من

نوعها بخطوطها القوية والمنسقة . واما سعد الله فقد عرف ببراعته فى الخط والرسم . من ذلك ان رسمه « مصطبة صيد الاسماك بالصنارة فى يانلينغ» ورسمه «ازهار البرقوق الاحمر والعصافير» قد حفظا فى المتحف الامبراطورى ببكين باعتبارهما من فرائد الرسومات المتبقية من قديم الزمان . وحيث انه كان يؤكد ضرورة الاهتمام بتصورات الرسوم الفنية وتأثيراتها الاجتماعية فقد تركت اعماله تأثيرات معينة فى التاريخ . وكان ساى جينغ تشو — ابن حفيد السيد شمس الدين — مولعا بفن الخط منذ طفولته ، وقد حظى باطراء استاذه كانغ لى ناو ناو لبراعته فى هذا المضمار . ولما تدهور وضع عائلته الاقتصادى ارتزق بعائد كتاباته مقتنعا ببساطة حياته وزاهدا فى الحياة الدنيا . وكان جديرا بوصفه خطاطا مسلما مستقيما . ويعتبر قاو كه قونغ (١٢٤٨ — ١٣١٠) من امهر الرسامين فى الصين ، ويذكر مع نظيره تشاو منغ فو (١٢٥٤ — ١٣٢٢) فى آن واحد . وقد جرت العادة على اعتبار "تشاو" رساما عظيما فى جنوب الصين ، واعتبار "قاو" رساما فذا فى شمالها . وقد سبق له ان تتلمذ على كبار الرسامين مثل دونغ يوان وجيوى ران ومى فى وابنه ، مما اتاح له ان يستفيد من مختلف الاساليب الفنية ، وان يبدع فى نهاية الامر اسلوبا جديدا خاصا به . لقد كان رساما فذا فى زمانه ، وترك تأثيرا واضحا فى حقل الرسوم الصينى لا يمحوه الزمان . ومن روائع اعماله «الجبل الجميل المدثر بالسحاب» و«صخور على المنحدرات المكسوة بشجيرات الخيزران القاتمة الخضرة» و«الجبل فى الرذاذ» .. الخ . هذا وقد اثنى دونغ تشى تشانغ (١٥٥٥ — ١٦٣٦) احد الرسامين المعروفين فى عهد اسرة مينغ على قاو كه قونغ قائلا " انه جامع لمزايا مشاهير الرسامين . وقد ابدع اسلوبا جديدا خاصا به دون ان يخالف العرف الملتزم به فى ميدان الرسم . وكان يوضح الموضوع بخطوطه الشديدة القوة والاسترسال . لقد كان وما زال مضرب

المثل فى استخدام الفرشاة بمهارة ." زد على ذلك ان مو تشونغ يى ، ودينغ يه فو ، والاخوين ما جيو قاو وما جيو شياو كانوا من مشاهير الرسامين والخطاطين المسلمين فى عهد اسرة يوان .

فى عهد اسرة تشينغ (١٦٤٤ — ١٩١١) ظهر عدد كبير من الرسامين والخطاطين المسلمين مثل ما شى جيون ، وتشانغ شو خه ، ويوان مى آن ، ومو جينغ يى ، وما قوانغ هوا ، وبان جى تانغ ، ويوان سن ولى دينغ تسن . وكانت لجميع هؤلاء الرسامين والخطاطين تأثيرات فى زمانهم . فيوان مى آن ، وهو من مواليد محافظة تونغشيان ، كان معروفا للدانى والقاصى ببراعته فى رسم البرقوق الصينى فى الفترة ما بين ١٨٦٢ — ١٩٠٨ . اما الرسام مو جينغ يى من مواليد مقاطعة خنان فكان بارعا فى رسم شجيرات البامبو والصخور بفضل تأثره بالرسام الكبير تشنغ بان تشياو (١٦٩٣ — ١٧٦٥) . ولا ننسى ان الرسام ما قوانغ هوا كان ممن يشار اليهم بالبنان فى رسم الازهار والارياش والجبال والانهار بالحبر والالوان الزاهية على حد سواء .

وليس بالقليل عدد الرسامين والخطاطين المسلمين المعاصرين . ومن بينهم الرسام خى بوه لونغ من مواليد مقاطعة شاندونغ الذى عرف ببراعته وتعمقه فى رسم المناظر الطبيعية بالخطوط الرمزية بالحبر الغزير . وقد حفظ كثير من اعماله فى معرض الفنون الجميلة الصينى ومتحف مقاطعة شاندونغ . اما الخطاط جين فن من مواليد مدينة جينان فقد تكون له الاسلوب الخاص به فى الكتابة على ضوء الكتابات المنسوخة من نصب السيد وى الصخرى وعرف ببراعته فى كتابة اليافطات الكبيرة الحجم بصورة خاصة . فلا غرو انه معروف فى كل انحاء مقاطعة شاندونغ . وللرسام المخضرم دونغ شو شى من اهالى مقاطعة قويتشو اليد الطولى فى الكتابة بالخطوط النسخية والرقعية والريحانية والكلاسيكية . وقد عرضت كتاباته فى مدينة قوييانغ جاضرة مقاطعة قويتشو

وبكين مرارا ، كما حظيت بالترحاب فى اليابان . وفى سنة ١٩٨٦ اقيم معرض المخطوطات والرسوم للاقليات القومية فى مقاطعة شاندونغ ، وكان من بين المعروضات البالغ عددها ١٨٠ قطعة ١٥٠ قطعة من اعمال الخطاطين والرسامين المسلمين . وقد بلغ عدد الفائزين بالجوائز فى هذا المعرض ثلاثين فردا ، وثمانون بالمائة منهم من المسلمين .

وبالاضافة الى خطاطى اللغة الصينية انبثق من بين المسلمين الصينيين جماعة من خطاطى اللغة العربية .

لقد نشأ فن الخط العربى لدى المسلمين الصينيين فى مجرى نسخهم للكتب الدينية منذ زمن يعود الى عهد اسرة يوان (١٢٧١ — ١٣٦٨) على الارجح . ولمعرفة المزيد من احوال نسخ الكتب الدينية عند المسلمين الصينيين القدامى يمكن الرجوع الى الباب الرابع من هذا الكتاب .

وبالاضافة الى الكتب الدينية المنسوخة يدويا هناك كثير من المخطوطات العربية المميزة بالسمات الصينية ، وهى اما تظهر على الانصاب الصخرية واما ترى على الالواح الخشبية او على اللفائف الجدارية (لفائف من الاوراق الملصقة جيدا ترى عليها المخطوطات او الرسوم) او على اللافتات . ويبدو هذا النوع من المخطوطات فى غاية المهابة والجمال والاناقة . وهناك قطعة من الانصاب الصخرية فى مسجد مياوجياشيانغ بمدينة تشنجيانغ يبلغ حجمها ١٣٠ × ٥٨ × ١٥ سم . ويقوم هذا النصب الصخرى فى صدر محراب المسجد . وتبدو قمته على شكل قبة ، وقاعدته على شكل طوبة مربعة ، مما يرمز الى ان السماء مقببة والارض مربعة حسب تصور قدامى الصينيين لهما . واطراف النصب مزخرفة بأشكال النباتات ، واعالى وجه النصب مزخرفة بنقوش من ازهار اللوطس مكونة من كلمات " بسم الله الرحمن الرحيم " ، واواسطه مزخرفة بنقوش على شكل البدر مكونة من " والهكم اله واحد لا اله الا هو

الرحمن الرحيم " (سورة البقرة — آية ١٦٣) ، فأجزاء هذه الآية القرآنية المخطوطة جيدا موزعة فى اطار " البدر" توزعا متناسقا . ويلى اواسط وجه النصب اطار على شكل " معين " يتكون من الكتابات العربية الكوفية الطراز ، وهى تشتمل على كلمتى " فاسجدوا " و" فاعبدوا " . ولا تتجلى مزايا هذا النصب فى نقوشه الدقيقة ورسومه البديعة فحسب ، بل تتمثل فى كتاباته المتنوعة المشوقة ، من ذلك ان ازهار اللوطس مكونة من الكتابات القوية ، وان البدر مكون من الكتابات المنسقة الجميلة ، وان اطار المعين مكون من الكتابات الكلاسيكية . وحيث ان ازهار اللوطس غالبا ما تنمو فى الوحل الملوث على شدة جمالها ونقاوتها فان الصينيين يرون انها علامة لمناعة الصالحين ضد الفساد فى اى ظرف من الظروف . ان نقش هذا النوع من الازهار على المحراب يدل على ان التراث الاسلامى فى الصين لا يخلو من تأثيرات الحضارة الصينية . وبالاضافة الى هذا النوع من الانصاب الصخرية تنتشر اللفائف والالواح الخشبية واللافتات التى ترى عليها الكتابات العربية فى المساجد وبيوت المسلمين بمختلف المناطق ، وهى تسر الناظرين الى حد كبير بصفتها من الفنون الاسلامية الجميلة .

٣ — الفنون الصناعية

لقد دخلت الاعمال اليدوية العربية والفارسية الرائعة الى الصين منذ زمن يعود الى عهد اسرتى تانغ وسونغ (٦١٨ — ١٢٧٩) ، وهى محببة الى الصينيين . اما الاوعية الزجاجية البيضاء ومثيلاتها العادية المذكورة فى «تاريخ داشى» من «تاريخ سونغ» فهى من الاعمال اليدوية البديعة ، وكذلك حال الزجاجيات المقصبة الوارد ذكرها فى كتاب «لينغواى دايدا» والتى تعتبر من اعمال " داشى" الفنية او اعمال هوى هوى الفنية .

ومن بين الآثار المتبقية من عهد اسرة يوان (١٢٧١ — ١٣٦٨) مزهرية خزفية مصنوعة فى " داشى " ، وهى رقيقة الجدران ومزخرفة بالكتابات العربية والشراريب ، وتبدو جميلة وانيقة جدا . وقد اثنى عليها الشاعر وو يوان ينغ قائلا بأنها كنز خاص بالبلاط الامبراطورى ، وان صنعها فوق طاقة البشرية .

لقد قدم المسلمون الصينيون فى عهد اسرة مينغ (١٣٦٨ — ١٦٤٤) اسهاماتهم فى سبك الاوانى البرونزية وصناعة الاوانى الخزفية . اما المواد الخام الرئيسية لصناعة مباخر " شيوان ده " (جميع المباخر النحاسية والاوانى المماثلة التى سبكت فى عهد حكم الامبراطور شيوان ده الممتد من سنة ١٤٢٦ الى سنة ١٤٣٥) فتشتمل على ملح النشادر من بلاد العرب والجمشت من سانفوجى والنحاس من سيام . والطريف ان هذه الاوانى النحاسية غالبا ما تزخرف على اوجهها بالكتابات العربية المسبوكة . وهذه الكتابات قدمها المسلمون دون سواهم . وكان من بين المواد الخام الرئيسية لصناعة الخزفيات البيضاء — الزرقاء نوع من التربة المنتجة فى بلاد العرب سماها الصينيون " هوى تشينغ " بعد ان نقلت الى الصين فى عهد حكم الامبراطور تشنغ هوا (١٤٦٥ — ١٤٨٧) . لذلك فان اغلبية الخزفيات البيضاء — الزرقاء المنتجة فى اتون وانغده الخزفى آنذاك كانت من المنتجات الممتازة . زد على ذلك ان تربة " هوى تشينغ " قد حلت فى عهد حكم الامبراطور جيا جينغ (١٥٢٢ — ١٥٦٧) محل التربة الحمراء لنقصانها الشديد . وبذلك اجتاز القطاع الخزفى الصينى آنذاك ازمته ، واستعاد حيويته . ومن بين الخزفيات البيضاء — الزرقاء المنتجة فى عهد اسرة مينغ كثير من النماذج المميزة بـ " رسوم هوى هوى " مثل " ازهار هوى هوى " و " فواكه هوى هوى " و " الزخارف المباركة المربوطة بأشرطة هوى هوى " . . الخ . وهناك نماذج من الخزفيات البيضاء — الزرقاء تجمع بصورة وثيقة بين رسوم هوى هوى ورسوم الصين التقليدية

التى تدور موضوعاتها حول التنانين والعنقاوات واشجار الصنوبر وشجيرات البامبو والبرقوق الدالة على الخير والبركة .

اما الاعمال اليدوية للمسلمين الويغوريين فتتحلى بسماتها القومية القوية . من ذلك ان سكاكين " ينغجيشا " مبعث فخر للويغوريين . وهى تحظى باستحسان السائحين الصينيين والاجانب بأشكالها الرائعة وزخارفها الجميلة ونصالها الحادة .

اما حرير " ادلاس " الشائع فى كافة انحاء منطقة شينجيانغ فيجرى انتاجه باستخدام فن صبغ اسدية النسيج المربوطة اجزاؤه ببعضها بعضا ؛ وهو فن صبغ قديم فى الصين . وهذا النوع من الحرير ينال الاعجاب برسومه الفريدة والرومانسية وألوانه المركبة بين السواد والبياض او بين الحمرة والخضرة خير تركيب ، فيبدو كسحابة ملونة جميلة . وهو يسر الناظرين بتصاميمه الانسجامية والايقاعية ويحدث فى نفوسهم احساسا بأن الربيع قد اقبل بدفئه ورونقه ورائحته الطيبة .

ويحظى القماش المقصب الشعبى المصبوغ لدى الويغوريين بشعبية واسعة بما يتميز به من الزخرفات والسمات المحلية القوية . ويجرى صبغ هذا النوع من القماش اما بواسطة الاختام المتعددة الالوان واما بواسطة الكليشيهات الفردية اللون . وتشتمل موضوعات الرسوم على القماش المقصب على الازهار والاعشاب والحاجات اليومية والرسوم الهندسية ، كما تشتمل على الرسوم المحببة الى اهل قومية هان مثل رسوم كلمات " هوى" (العودة) و" شو" (العمر المديد) و" وان" (عشرة آلاف) وازهار اللوطس وعود الصليب والسحابيات والمباخر والزهريات وادوات الطرب والشطرنج .. الخ . ويعتبر هذا النوع من القماش المقصب من المصنوعات الفنية الويغورية البحتة من حيث فن صباغته واسلوب رسومه على حد سواء .

اما القبعات الويغورية المطرزة الصغيرة فهى من الصناعات اليدوية العملية والزخرفية فى آن واحد ، شأنها شأن القماش المقصب السالف الذكر . ويجرى تطريز هذه القبعات بمختلف الاساليب مثل التطريز الانبساطى بالخيوط الحريرية ، والتطريز المعقد بالخيوط المماثلة ، والتطريز بنظم اللآلئ فى الخيوط الحريرية ، والتطريز المقلم بخطوط متقاطعة على زوايا قائمة ، والتطريز الالتفافى بالخيوط الذهبية والفضية اللون ، والتطريز بالدروز المتصالبة ، والتطريز بالابر المعقوفة ، والتطريز على القماش المخملى المربوطة اجزاؤه ببعضها بعضا ، والتطريز الحاوى على عمليات الدرز والربط والنظم واللف . وتنقسم القبعات الويغورية الى قبعات مشجرة رباعية الاضلاع وخماسية الاضلاع وطاقيات ممتازة بأزرار فولاذية وطاقيات بيضاء من حيث اشكالها ، وتشتمل على قبعات بسيطة الرسوم وقبعات مزخرفة بالرسوم فى كل اجزائها ، وقبعات مزخرفة بعروق الخشب وبالخطوط المتصالبة من حيث رسومها . وتختلف انواع القبعات باختلاف المناطق ، فترى فى كاشغر مثلا قبعات بادام الرجالية المزخرفة والقبعات النسائية المطرزة بالخيوط الذهبية والفضية اللون تطريزا التفافيا . واكثر ما يعم منطقة خوتان هو القبعات النسائية المقلمة بالخطوط المتقاطعة على الزوايا القائمة . وتكثر فى منطقة كوتشار القبعات النسائية المطرزة بنظم اللآلئ ، والقبعات المدنتلة والطبلية الشكل ، مما يظهر روعتها الفنية . ان القبعات المشجرة الشائعة فى منطقة توربان تبهر الابصار بألوانها الزاهية القوية ، وتثير فى النفوس احساسا بالجمال المفرح ، شأنها شأن تيجان الازهار . واما القبعات للمشجرة بمنطقة ايلى فهى فى غاية الروعة بفضل قلة عمقها وشدة استدارتها ولطف ألوانها وانسجامها . وحيث ان القبعات المشجرة فى منطقة هامى شديدة التأثر بالرسوم الزخرفية لقومية هان ، فان رسومها تبدو معقدة ودقيقة ، والوانها زاهية وصاخبة . وهناك قبعات مزخرفة

صغيرة تعم يويتيان ومينفنغ وتسله وتشيموه وغيرها ، ويقل قطر محيطها عن ١٠ سم ، وتبدو كأنها فراشة مبرقشة او زهرة متفتحة ، وهى تتربع على مناديل فوق رؤوس اصحابها . زد على ذلك ان القبعات المشجرة فى شينجيانغ مختلفة باختلاف اعمار اصحابها وجنسهم ومهنهم . فهناك قبعات اطفال وقبعات شباب وقبعات نساء وقبعات شيوخ وقبعات ائمة . وهذه القبعات الويغورية المتنوعة تبعث فى النفس متعة كبيرة . والفضل كل الفضل فى ذلك يعزد طبعا الى صانعاتها الويغوريات البارعات .

وللمسلمات الصينيات من مختلف القوميات ولع خاص بفن التطريز . فمن عادة نساء قومية سالار المسلمة ان يطرزن رسوم الازهار والاطيار على الوسادات واسافل الجوارب وفرعات الاحذية والفوط . وتتميز اعمالهن بخطوطها الدقيقة المتساوية وألوانها الفاتحة للبهيجة . وكان هناك فن تطريز يدعى " داتسيهوا " ، وهو شائع وسط نساء قومية دونغشيانغ منذ زمن بعيد ، ولكنهن عدلن عن هذا الفن الى فن التطريز التفريقى والتطريز الانبساطى متأثرات بفن التطريز عند قومية هان . وتنبض اعمالهن بالسمات الحياتية القوية . ولا تخلو نساء قومية هوى المسلمة من بارعات فى التطريز ، فمن ذلك ان السيدة جين جينغ فن (١٨٨٥ — ١٩٧٠) من مواليد مدينة سوتشو كانت عاملة تطريز انبثقت منهن . وكانت الامبراطورة الارملة تسى شى (١٨٣٥ — ١٩٠٨) شديدة الاعجاب بتطريزاتها مثل « بوذا العمر المديد » و« صورة ٨ خالدين يقدمون اطعمة العمر المديد » حتى انها بالغت فى اطرائها ، واصفة اعمالها بأنها منقطعة النظير فى الماضى والحاضر والمستقبل . اما تطريزاتها « صورة نابليون » و« صورة الحسان » و« صورة الدواجن » و« صورة كلبين » فقد فازت بميدالية برونزية وشهادة استحقاق فى معرض بلدان المحيط الهادى المقام فى بناما . وتظهر « صورة تشيوى يوان » التى طرزتها السيدة جين جينغ

فن معنويات هذا الشاعر الوطنى العظيم الذى كان قلقا على مصير بلده وشعبه اظهارا حقيقيا ، مما زاد من شهرتها فى العالم . ومما يستحق الذكر بصورة خاصة ان « ١٢ امرأة » التى طرزتها السيدة جين جينغ فن بكل جهدها تبرز بصورة حية ١٢ امرأة مختلفة الامزجة ، من بينهن الآنسة لين داى يوى الحزينة والاخت الثالثة يو المتدفقة العاطفة والسيدة شى شيانغ يون الجامحة والسيدة جيا يوان تشون المتأدبة المتأنقة . وتطريزات السيد جين جينغ فن هذه التى بلغت اوجها فى تصوير مزايا كل من اولئك الحسان تعد من اروع اعمالها ، ولقد اثارت اهتمام الفنانين ، وحظيت باستحسان المختصين برواية « حلم القصور الحمراء » .

٤ ــ الالحان والاوبرا

جلب المسلمون فى عهد اسرة يوان (١٢٧١ ــ ١٣٦٨) مجموعة من ألحان هوى هوى الى الصين . وتفيدنا التدوينات التاريخية ان الالحان التى كانت شائعة آنذاك مثل «كانغلى » و« ماخيمو دانغدانغ » و« تشينغتشيوان دانغدانغ» وغيرها هى من ألحان هوى هوى .

لقد شهدت الصين عددا من الملحنين من هوى هوى فى عهد اسرة يوان . وكان من مشاهيرهم ما جيو قاو ، وقوان يون شى ويوى يوان دينغ ، وعلى يويه تشينغ ، وعلى شى ينغ ، ومو تشونغ يى ، ودينغ يه فو ، ولان تشو فانغ وجى تشنغ فو . وكانوا معروفين جدا بألحانهم المطربة . وكانت لأعمالهم شهرة كبيرة فى ذلك العهد . من ذلك ان اعمال ما جيو قاو تحرك العواطف بألحانها الجميلة ، ونغماتها المتدفقة قوة وجبروتا وتفوق المألوف فى تصوير ما بداخل قلبه من الحزن والغضب والسخرية من التصرفات البغيضة . وكانت الالحان التى خلفها ما جيو قاو تحتل المرتبة الثامنة من حيث الكمية وسط

الالحان الشائعة فى عهد اسرة يوان . ولا تنسى انه كان يشار اليه بالبنان بفضل منجزاته الفنية . اما قوان يون شى فهو ملحن ويغورى ، لقبه شياو يون شيهاييا ، وكنيته لينغ تشاى ولو هوا داو رن . وقد انتشرت ألحانه هنا وهناك بجهود السيد يانغ من مواليد قانبو بمقاطعة تشجيانغ . واطلق عليها اسم " نغمة هاييان " ، ومنها انبثقت اوبرا "كونتشيانغ" فى عهد اسرة مينغ (١٣٦٨ — ١٦٤٤) . وكان جى تشنغ فو من هوى هوى فى المنطقة الغربية شديد الالمام بألحان يوان حتى قيل انه " نجمة فى سماء الالحان قدمت من المنطقة الغربية ولمعت فى الصين . "

ومنذ عهد اسرة يوان بدأ يظهر من بين المسلمين الصينيين عدد كبير من الموسيقيين والممثلين .

وكانت فى قصر يوان الامبراطورى فرقة موسيقية عرفت فى بادئ الامر باسم « قسم قوانقو» ، ثم غير هذا الاسم الى « ديوان الانسجام الدائم » عند ترقيته من الدرجة التاسعة الى الدرجة السادسة . وكان هذا الديوان متخصصا برعاية الموسيقيين من هوى هوى ، وقد شكلوا اول مجموعة من الممثلين من هوى هوى فى الصين . وبالاضافة الى ذلك ظهر عدد من الممثلين الفولكلوريين من هوى هوى فى ذلك الزمان . وتفيدنا التدوينات التاريخية فى عهد اسرة يوان انه كانت هناك ممثلة من هوى هوى تدعى مليحة " لها صوت رخيم يأخذ بألباب المستمعين . وانها لم تكن جميلة الا انها بارعة فى تمثيل دور البطلة فى المسرحيات . "

وفى اواخر عهد اسرة مينغ (١٣٦٨ — ١٦٤٤) عرف الفنان التمثيلى ما جين من مواليد نانجينغ ببراعته فى تأدية دور يان سونغ رئيس الوزراء الخائن بطل مسرحية « العنقاء المغردة » الاسطورية ، وقد كسب شهرة عالية بنجاحه فى تصوير هذا الخائن المتسلط الشرير .

وكان فى البلاط الامبراطورى لأسرة تشينغ (١٦٤٤ — ١٩١١) جماعة من الفنانين من هوى هوى ، من بينهم ٨ عازفين واثنان من الراقصين الرئيسيين واثنان من الراقصين الثانويين و ٤ بهلوانيين كبار واثنان من البهلوانيين الصغار . وكان الراقصان الرئيسيان يرقصان اولا على الالحان الموسيقية ، ثم يتبعهما نظيراهما الثانويان . واثر ذلك يظهر البهلوانيون لتقديم برامجهم . ويعتبر ذلك عرضا فنيا مشتركا بين الراقصين والبهلوانيين . وكانوا اما يغنون واما يرقصون او يتشقلبون ، مرتدين الازياء الحريرية الزاهية الالوان ، معتمرين الطواقى المبرقشة ، فيبدون كأنهم باقات ازهار متراقصة .

ومنذ القرن العشرين ، وخاصة بعد تأسيس الصين الجديدة ، ظهر عدد كبير من مشاهير ممثلى الاوبرا . منهم السيد هو شى روى البارع فى تأدية دور تساو تساو — عاهل مملكة وى فى التاريخ ، والسيد ما ليان ليانغ مؤسس مذهب " ما " لأوبرا بكين ، والسيدة شيويه يان تشين المماثلة لمى لان فانغ (كوكب اوبرا بكين) . وقد جرت العادة على تسمية الممثلين الثلاثة المذكورين آنفا " النوابغ الثلاثة من قومية هوى فى بستان الكمثرى" * ، وقد وقفوا كل طاقاتهم على فن اوبرا بكين . فدفعوا هذا الفن الى مرحلة جديدة بفضل تمثيلهم الرائع ، واعدوا كثيرا من الممثلين الناشئين خلا تمثيلهم فى مختلف انحاء الصين . زد على ذلك ان ممثل " التحاور الفكاهى" السيد ما سان لى ، والممثل السينمائى السيد لى موه ران ، وممثل اوبرا " بينغجيوى" السيد ما تاى ، وقائد الجوقة الموسيقية لى ده لون ، والراقصة آية الله والمغنى السيد كريم ، والمغنية السيدة دلبار يونس ، والممثل السينمائى السيد دا شى تشانغ ، وممثل اوبرا بكين السيد قوان يون هوا ، وممثلى " التحاور الفكاهى" السيد وانغ تشى تاو والسيد فنغ جينغ شون ، وممثل " بينغشو" (سرد الرواية)

* " بستان الكمثرى" اى " عالم ممثلى الاوبرا " .

السيد وانغ قانغ والمغنيين السيد ما تاى شيوان والسيدة دان هوى تشن ، كلهم من مشاهير الفنانين فى الصين . اما المسرحية الراقصة «منصور» التى اخرجتها منطقة نينغشيا الذاتية الحكم لقومية هوى ، ومسرحية «الانتقام فى بحر من الازهار» — وهى مسرحية غنائية معروفة باسم "هوا — أر" — التى اخرجتها ولاية لينشيا الذاتية الحكم لقومية هوى ، وفيلم «آنارهان» الويغورى وفيلم «ضيف قادم من اعماق الجبل الثلجى» .. الخ ، فتحظى بشعبية واسعة فى كافة انحاء الصين ، وان اغلبية الممثلين المشتركين فى اعدادها من المسلمين .

٥ — الموسيقى

قدم المسلمون الصينيون اسهامات فى الميدان الموسيقى الصينى تتلخص فى نقطتين : احداها هى جلب كثير من آلات هوى هوى الموسيقية ، والاخرى ابداع «١٢ مقاما» ، وهى مسرحية موسيقية ويغورية كبيرة الحجم .

(١) آلات هوى هوى الموسيقية

يشير «تاريخ يوان» الى انه كان هناك ٢٢ نوعا من الآلات الموسيقية يعزف عليها خلال المآدب فى بلاط اباطرة اسرة يوان ، من بينها ٤ انواع من الآلات الموسيقية لها علاقة بالقوميات المسلمة خارج الصين وهى "شينغلونغشنغ" و"ديانتينغشنغ" و"هوبوس" و"هوتشين" .

وقد اشار الموسيقار اليابانى شيقو كيشيبى الى ان "شينغلونغشنغ" هو نوع من المزامير التى كانت شائعة فى اوربا فى القرن الثالث عشر ، ثم نقل الى بلاط اسرة يوان على ايدى العرب وليس على يد الاوربيين . ونعرف من «تاريخ يوان» ان "شينغلونغشنغ" كان من الاتاوات التى قدمتها احدى البلدان الاسلامية الى بلاط اسرة يوان فى عهد حكم الامبراطور تشونغ تونغ

(١٢٦٠ — ١٢٦٣) . ولما كان للعرب فى القرون الوسطى معرفة واسعة بالمزامير العاملة بفعل الضغط الريحى والمائى ، فقد نقلوها الى الاوربيين الذين حولوها بدورهم الى آلات موسيقية مجهزة بلوحات للمفاتيح كما نراها اليوم ، وهى فى حد ذاتها اقدم الآلات لعزف الالحان الهارمونية . ومما يؤسف له ان الصينيين آنذاك لم يدخلوا ايما تحسين على " شينغلونغشنغ " خلال استعمالها فى البلاط الامبراطورى ، وذلك بسبب افتقارهم الى المعرفة الخاصة بآلية المزامير . ومع انهم صنعوا فى عهد الامبراطور يان يو (١٣١٤ — ١٣٢١) ١٠ انواع من المزامير المعروفة باسم " ديانتينغشنغ " على اساس "شينغلونغشنغ "، الا انها احتجبت عن النظر حتى فى الايام الاخيرة من حكم اسرة يوان (١٢٧١ — ١٣٦٨) .

اما " هوبوس " او " هونبوس " فهى آلة موسيقية تشبه " بيبا " شكلا . فهى طويلة العنق ، وعلى بدنها اخدود لا ترى عليه فتحات للنفخ ، ويبدو بدنها كنصف غطاء زجاجة ، ويكسى بقطعة من الجلد ، وعلى سطحه تمتد ٤ اوتار . وتعتبر " هوبوس " من آلات الطرب النقرية الفارسية . واذا طرح وتران من اوتارها الاربعة سميت " هوتشين " ، وهى اقدم آلة طرب وترية شهدتها الصين . ان ظهور هذا النوع من الآلات الموسيقية فى الصين يقدم دليلا على ان طريقة العزف بالقوس قد دخلت اليها فى ذلك الوقت بالذات . وقد اشار الموسيقار اليابانى شيقو كيشيبى فى كتابه «انتقال الموسيقى الى الغرب اى من خراسان الى اوربا» الى ان " هوبوس " و" هوتشين " من آلات الطرب الاسلامية التى انتقلت الى الصين . وقد قيل ان " بيبا " هى اهم آلات الطرب الوترية الشائعة فى الصين فى عهد اسرة تانغ (٦١٨ — ٩٠٧) والفترة اللاحقة له . اما فى عهد اسرة يوان (١٢٧١ — ١٣٦٨) فقد حل محل " بيبا " بالتدريج نوعان من آلات الطرب الاسلامية ، وهما " هوبوس "

و" هوتشين" ، علما ان هذه الاخيرة كانت قد دخلت الى مصاف آلات الطرب الوترية لقوميتى منغوليا وناشى . وفى عهد اسرة مينغ (١٣٦٨ - ١٦٤٤) ظهرت الى حيز الوجود "سانشيان" (آلة الطرب الثلاثية الاوتار) . ومنذ عهد اسرة تشينغ استعملت "سانشيان" و"هوتشين" فى عزف المقطوعات الموسيقية للاوبرات الصينية على نطاق واسع ، مما ترك اثرا عميقا فى الموسيقى الصينية .

وبعد ان قمع الامبراطور تشيان لونغ انتفاضة هوى هوى انتقلت آلاتهم الموسيقية الى مناطق الصين الداخلية . وهى تشتمل ، حسب ما ورد فى « مسودات تاريخ تشينغ» ، على آلات الطرب الجلدية مثل "داب" و"النقرة" ، وعلى آلات الطرب الوترية مثل "هارزاك" و"كارناى" و"ستار" و"قباب" ، وعلى آلات الطرب الخشبية مثل "بارام" و"سورنا" (صونا) . وجدير بالذكر ان "قباب" من بينها هى رباب - آلة الطرب الوترية النموذجية فى العالم الاسلامى ، كما انها الشكل السابق على الكمنجة التى ظهرت فيما بعد . وقد سميت "رباب" بـ "ربيك" بعد انتقالها الى اوربا ، ولكنها ظلت تحمل اسمها الاصلى بعد انتقالها الى جنوب شرقى آسيا . وقد تركت اثرها الكبير فى الالحان الموسيقية الهندية والسلم الموسيقى البورمى والتايلاندى والاندونيسى . وقد اطلق عليها اسم "رواف" بعد ان عمت شينجيانغ ، ودخلت فى مصاف آلات الطرب المحببة الى الويغوريين .

وبالاضافة الى ذلك هناك عدة انواع من آلات الطرب تنتشر وسط المسلمين فى شينجيانغ ومنها "دوتار" و"دبور" و"كارون" و"دونبولا" و"سابائى" .. الخ . وهى من قبيل آلات الطرب الاسلامية مبدئيا . اما "دبور" و"دونبولا" فقد تمخضت عنهما آلات الطرب النقرية الاسلامية . والويغوريون يحبون "دبور" بينما القازاقيون يفضلون "دونبولا" . ومما يستحق الذكر ان لكل

قومية من القوميات الاسلامية آلات طرب خاصة بها . فلقومية الويغور مثلا آلة طرب وترية تدعى "هوشيتار" ، ولقومية القازاق آلة طرب وترية تدعى "كوبوز" ، ومزمار رباعى الفتحات يدعى "سبوسغ" ، ولقومية القرغيز آلة طرب نقرية تحمل اسم "اوزكاموز" (آلة الطرب الثلاثية الاوتار) ، ولقومية الطاجيك مزمار معروف باسم "الصقر" . وقد ظهرت هذه الآلات الموسيقية وتكاملت بالتدريج على ايدى مسلمى شينجيانغ بمختلف قومياتهم الذين استمدوا من مزايا روائع آلات الطرب القديمة فى المنطقة الغربية ، وتأثروا بآلات الطرب الصينية والاجنبية .

(٢) «١٢ مقاما»

تشكل الـ «١٢ مقاما» مجموعة كبيرة من المقطوعات الموسيقية ، اسهم بها المسلمون الويغوريون اسهاما عظيما فى حقل الموسيقى الصينية ، وهذه المقطوعات الموسيقية قد ظهرت فى اوج الازدهار الحضارى للمسلمين الويغوريين فى القرن الثانى عشر ، ثم انتقلت فى القرن الثالث عشر الى بلاد الفرس والمناطق الاخرى فى آسيا الوسطى . ومنذ القرن الخامس عشر جرت العادة على تسميتها «المقامات» — عنوان عام ، علما ان لكل مقطوعة منها عنوانا عربيا او فارسيا . ومع ذلك فان مزاياها الويغورية الاساسية لم تتغير ابدا مما جعلها اكثر قربا الى نفوس الويغوريين . ولما قام كبار الموسيقيين بتنقية هذه المقطوعات واصلاحها واعادة تأليفها فى النصف الثانى من القرن السادس عشر ، ادرجت فى الكنز الثقافى للأمة الصينية باسم «المقامات» . وفى السبعينات من القرن الثامن عشر جرت غربلة هذه المقطوعات الموسيقية ، فبقى منها ١٢ مقاما فى نهاية الامر ، يستغرق تقديم كل "مقام" منها ساعتين على الاغلب . وهناك بالاضافة الى الـ «١٢ مقاما» التى تشكل العمود الفقرى للموسيقى الويغورية سلسلة من "المقامات" الاقليمية التى نشأت

على اساس المقامات الاثنى عشر ، منها « مقامات هامى» و« مقامات خوتان » و« مقامات دولانغ» و« مقامات ايلى » .. الخ .

ان الـ « ١٢ مقاما » هى كنز فنى يجمع بين اللحن والغناء والرقص الشعبى لدى ابناء قومية الويغور . وتشتمل الـ « ١٢ مقاما » على ٣٤٠ اغنية من الاغانى الروائية الكلاسيكية والاغانى الروائية الفولكلورية والالحان الموسيقية المصاحبة للرقص والالحان الموسيقية الاخرى . ويتكون كل "مقام" من هذه "المقامات" من ٣ اجزاء هى "ناقمان" (الالحان الرئيسية) و" داستان " (الاشعار الروائية) و"مشرف" (الغناء والرقص) . اما ايقاع الالحان والاغانى فى هذه "المقامات" فيرتقى من الاستهلال الموسيقى الى السرعة الوسطى ثم الى السرعة الكبيرة . وتتجلى روعة هذه "المقامات" فى تصويرها مختلف انواع الموضوعات بايقاعاتها المعقدة وألحانها الغنية فوق العادة . كما تتجلى فيما ليس له مثيل من حيث حيوية صورها ولغتها الموسيقية ، وعمق معانى الاغانى الروائية الكلاسيكية البطيئة ايقاعيا وبهجة ألحانها الموسيقية الشعبية وانسيابية مجموعات اغانيها الجميلة . وعلى الرغم من ان الـ « ١٢ مقاما » ظلت باقية على كر العصور ، الا انها لم تدون قبل تأسيس الصين الجديدة . اما فى الفترة ما بين سنة ١٩٥١ و١٩٥٤ فقد تم وضع النوتة " للمقامات" حسب غناء الفنان الويغورى المخضرم توردى اهوند ، كما تم تسجيل صوته فى مجرى غنائه . وعبر تنقية هذه التسجيلات انجز تأليف الـ « ١٢ مقاما » ، وطبع فى جزأين سنة ١٩٦٠ . ويعتبر ذلك انجازا خالدا فى تاريخ الموسيقى الصينية .

الفصل الرابع

سائر اسهامات المسلمين فى ميدان الحضارة

١ ـ علم التاريخ

هناك عدد كبير من المؤرخين المسلمين من قومية هوى قد اسهموا فى تأليف الكتب التاريخية الصينية الرسمية . من بينهم ما تسى تشيانغ من قومية هوى الذى ولد فى تونغتشو بمقاطعة شنشى فى عهد اسرة مينغ . وقد شارك فى تأليف «سيرة الامبراطور شى تسونغ لأسرة مينغ» . وتشانغ روى من قومية هوى ، وهو من مواليد لينتشينغ بمقاطعة شاندونغ فى عهد اسرة تشينغ ، وقد شارك فى الاشراف على تأليف «تاريخ مينغ» ، كما عمل نائبا لرئيس تحرير «سيرة الامبراطور تاى تسونغ لأسرة تشينغ» .

ان «مشاهداتى فيما وراء البحار» بقلم ما هوان من قومية هوى فى عهد اسرة مينغ و«مشاهداتى فى الابحار» بقلم فى شين من قومية هوى فى نفس العهد ، و«على الطريق الى بيت الله» بقلم ما ده شين من قومية هوى فى عهد اسرة تشينغ و«٩ سنوات فى مصر» بقلم بانغ شى تشيان من ابناء قومية هوى المعاصرين ، هذه الكتب كلها من الوثائق التاريخية القيمة لدراسة تاريخ المواصلات فيما وراء البحار وتاريخ القوميات الصينية والاجنبية .

وقد نذر المؤرخ جيان بوه تشان من قومية الويغور والمؤرخ باى شو يى من قومية هوى نفسيهما لدراسة تاريخ الصين ، وحظيا بالاحترام والتقدير على منجزاتهما العلمية الخالدة .

واسهم المؤرخون من المسلمين الصينيين فى دراسة تاريخ الاسلام فى الصين وتاريخ القوميات الاسلامية الصينية العشر ، فقد ألفوا مجموعة كبيرة

من الكتب الخاصة بتاريخ الاسلام وتاريخ مختلف القوميات الاسلامية الصينية . من اهمها « مفتاح المشاكل فى الكتب المتنوعة » بقلم تشان ينغ بنغ من قومية هوى فى اواخر عهد اسرة مينغ ، وهو توضيح لتاريخ الاسلام وتعريف بالمسلمين والمساجد والاحكام الدينية وبلاد العرب . و« ابحاث حول الاسلام » بقلم تشانغ شين من قومية هوى فى اواخر عهد اسرة مينغ ، وهو من اقدم الكتب التى يعتمد عليها المسلمون الصينيون فى معرفة تاريخ الاسلام و« سيرة خاتم الانبياء » (فى ٢٠ مجلدا) بقلم ليو تشى من قومية هوى فى عهد اسرة تشينغ ، وهو يسجل سيرة النبى عليه السلام بصورة شاملة ويشمل ١٦ ملحقا ، وفيها « مائة كلمة كتبها الامبراطور قاو هوانغ دى لأسرة مينغ تمجيدا للنبى» و« امر من الامبراطور تاى تسونغ لأسرة مينغ» و« تعليقات الامبراطور وو تسونغ لأسرة مينغ (على مختلف الاديان) » و« عبارة امبراطورية الى تاى شى من هوى هوى» .. الخ . وهناك بالاضافة الى ذلك كثير من التآليف والتراجم انجزها المسلمون الصينيون مثل « ابحاث حول الاسلام » بقلم باى مينغ آن و« ابحاث حول الاسلام » بقلم سون كه آن و« مختصر البحث العام حول هوى هوى» بقلم ليو جينغ شينغ واصحابه و« ابحاث حول تاريخ الاسلام العالمى» بقلم شوى تسى لى ، و« تاريخ الحضارة العربية » من ترجمة لى يو ليانغ و« ابحاث حول تاريخ الاسلام » بقلم ما ليانغ جيون و« فجر الاسلام » من ترجمة نا تشونغ و« موجز سيرة محمد » من تأليف وترجمة ما تشى تشنغ و« تاريخ التشريع الاسلامى» من ترجمة محمد تواضع بانغ شى تشيان و« تاريخ العرب العام » و« تاريخ التعليم الاسلامى» و« تاريخ علم الكلام » من ترجمة محمد مكين و« تاريخ الاسلام الصينى» بقلم ما يى يوى و« دراسات خاصة بتاريخ الاسلام الصينى» بقلم جين جى تانغ و« تاريخ الاسلام الصينى» بقلم فو تونغ شيان و« موجز تاريخ الاسلام

الصينى» بقلم باى شو يى و«مسودات تاريخ الاسلام الصينى» و«سير شخصيات من قومية هوى (فى اسرة يوان)» و«موجز تاريخ قومية هوى» التى تم تأليفها تحت رئاسة باى شو يى .

اما المؤرخون المسلمون فى شينجيانغ فقد خلفوا وراءهم كثيرا من المؤلفات ، من بينها «تاريخ رشيد» (اى تاريخ المنغول فى آسيا الوسطى) بقلم ميرزان محمد هدار و«ملحق تاريخ رشيد» بقلم ميرزان شاه محمود جراس و«تاريخ عماد» و«تاريخ آننينغ» بقلم الخوجه موسى سالم عيسى و«التواريخ الخمسة فى الشرق» بقلم قربان الخالد و«سيرة الخوجه» بقلم محمد صادق الكاشغرى . زد على ذلك ان هناك اعدادا كبيرة من الكتب التاريخية الخاصة بالخوجات والائمة والمقابر القديمة . وتعتبر المؤلفات المذكورة اكمالا هاما للوثائق التاريخية الخاصة بالاسلام والمدونة بلغة هان فى الفترة ما بين القرن الثالث عشر والقرن التاسع عشر . ولهذه المؤلفات اهميتها القصوى فى دراسة تاريخ القوميات المسلمة وتاريخ الاسلام فى شينجيانغ .

وتأثرا بالحضارة الصينية العريقة وضع المسلمون من مختلف القوميات ، لاسيما المسلمون من ابناء قومية هوى المنتشرون فى مختلف انحاء البلاد ، كثيرا من سلاسل النسب ، ودبجوا العبارات المنقوشة على الانصاب الصخرية وتواريخ المساجد والجوامع ، مما قدم كثيرا من المعلومات القيمة التى لا غنى عنها لسبر غور تاريخ الاسلام الصينى وتواريخ القوميات المسلمة وتاريخ التعاليم الدينى وتواريخ السلالات الاقطاعية . ومما يؤسف له ان هذه المعلومات ظلت مهملة فى زاوية النسيان ردحا طويلا من الزمن علما انها عظيمة الفائدة . فقد تم تأليف كتاب «قصة ابو شوقى» بقلم البروفيسور لوه شيانغ لين الاختصاصى بدراسة سلاسل الانساب استنادا الى احدى شجرات النسب المسلمة تحت عنوان «شجرة نسب بو» . ولـ «شجرة نسب ما فى هواينينغ»

قيمة تاريخية كبيرة لأنها تعتبر تاريخا كاملا لأسرة ما منذ مجيء سلفها الشيخ ما يى تسه من بلاد الروم الى الصين سنة ٩٦١ حتى زمننا هذا . اما « تاريخ التعليم الدينى » فقد سجل مآثر الشيخ هو دنغ تشو (١٥٢٢ — ١٥٩٧) الذى عاش فى عهد اسرة مينغ فى استهلال التعليم الاسلامى فى الصين واسهامات اتباعه واتباع اتباعه من مختلف العصور فى نشر التعاليم الاسلامية ، كما سجل الحكايات عنهم . وتعتبر هذه التدوينات من المعلومات الاولية الخاصة بتاريخ التعليم الاسلامى الصينى وتواريخ العلماء التربويين بين الشيخ هو دنغ تشو والشيخ شه يون شان . واما « النقوش الصخرية الدينية فى تشيوانتشو » و « النقوش الصخرية الاسلامية فى تشيوانتشو » اللذان نشر احدهما فى الخمسينات من القرن الجارى والآخر فى الثمانينات من نفس القرن ، فهما موضع اهتمام العلماء الصينيين والاجانب لما بين دفتى كل منهما من الصور الفوتوغرافية الكثيرة الخاصة بالشواهد المكتشفة فى تشيوانتشو . وهناك اعداد كبيرة من المؤلفات التاريخية القيمة كتبها المؤرخان الصينيان تشن يوان وباى شو يى وزميلهما السيد كووا هارا اليابانى استنادا الى الكتابات المنقوشة على الانصاب الصخرية القائمة فى مختلف المساجد الصينية . وقد دبج السيد جين جى تانغ مقالة بعنوان « مرور خمسة قرون على المسجد الامبراطورى » وضح فيها تاريخ مسجد دونغسى ببكين وتحفه المعدنية والصخرية وتاريخ سلالة الشيخ ما وسيرة تشن يو وسيرة تشاو رونغ وغيرهما من المسلمين الذين كان المسجد يهمهم . ولهذه المقالة قيمتها الوثائقية الكبيرة . ويرى فى الجامع الجنوبى بمدينة جينان نصب صخرى نقشت عليه كتابات توضيحية لأصول الاسلام من وجهة نظر الفيلسوف المادى تشانغ تساى فى عهد اسرة سونغ . وفى مسجد قرية فنغجيالاو بمحافظة لينغشيان فى مقاطعة شاندونغ نصب صخرى ظهر سنة ١٨٩٦ بعد ترميمه مباشرة ، وتضم الكتابات المنقوشة

عليه قرارات تبناها اهالى القرية قاطبة ، ومن بينها لوائح خاصة بضرورة استقدام ائمة المسجد من خارج القرية وتحريم استخدام النواقيس والطبول وآلات الطرب فى القرية . . الخ . ويلاحظ فى المسجد الغربى بمدينة باودينغ نصب صخرى اقيم خصيصا لتحديد المهور . وفى مسجد جيانتشنجياو بمدينة جياشينغ نصب صخرى اقيم سنة ١٦٠٢ ترمى الكتابات المنقوشة عليه الى نقد الجهلاء من المسلمين الذين " حادوا عن الحق بحجة التمسك بالعادات التقليدية " و " اتخذوا غير المسلمين اجمعين اعداء لهم ، وتجادلوا كأنهم امام القاضى ولو من اجل شىء تافه " . وهذه النقوش الصخرية كلها تساعد على معرفة احوال المسلمين فى كل زمان ومكان معرفة تامة ، وهى معلومات قيمة غير متوفرة فى الكتب التاريخية الرسمية ابدا .

ويقال ان آداب "آكين" القازاقية وملاحم القرغيز البطولية لا تخلو من سلاسل لأنساب القبائل ، وهى ذات قيمة ادبية وتاريخية على حد سواء ، وتقدم معلومات هامة لدراسة تاريخ القوميات المسلمة والاسلام فى شينجيانغ .

٢ ــ قاموس اللغة التركية

بين المسلمين الصينيين عدد من اللغويين ، اشهرهم هو الشيخ محمود بن حسين بن محمد الكاشغرى (حوالى ١٠٠٨ ــ ١١٠٥) . وهو من مواليد قرية آزك بناحية اوبار التابعة لكاشغر عاصمة سلالة قراخان . وقد التحق بالكتاب الدينى فى بلده اوبار منذ طفولته ، ثم انتقل الى مدرسة الشامدية ومدرسة الشازية فى مدينة كاشغر على التوالى ، مما اتاح له ان يتعلم بصورة مبرمجة علم التوحيد وعلم الاحكام الشرعية والتاريخ والجغرافيا والمنطق والفلك والطب واللغة . ولما قتل ابوه حسين فى انقلاب سنة ١٠٥٨ اضطر محمود الكاشغرى الى مغادرة بلده ، وراح يتشرد من مكان الى آخر لا يجد مكانا

يأوى اليه . وفى غضون ذلك ترك آثار قدميه فى جنوب شينجيانغ وجميع المناطق المأهولة بالاتراك فى آسيا الوسطى حتى وصل الى بغداد مركز الحضارة الاسلامية فى عام ١٠٧٢ . وفى فترة تشرده التى امتدت ١٤ سنة قام باستقصاء مفصل لمزايا اللغة التركية بين مختلف القبائل ، كما اطلع على حضارة الاتراك . وفى بغداد ركز جهوده على تعلم اللغتين العربية والفارسية . وبفضل تعمقه فى اللغة التركية وسعة اطلاعه تم له تأليف قاموس اللغة التركية وقدمه الى الخليفة العباسى المقتدر سنة ١٠٧٦ .

وكان هذا القاموس يدعى فى الاصل « ديوان اللغة التركية » . وهو معجم لغوى عظيم ، يضم بين دفتيه اصطلاحات تاريخية وفلكية وجغرافية وزراعية وادبية وطبية ومنطقية الى جانب اكثر من مائتى قول مأثور واعداد كبيرة من الامثال والاغانى الشعبية . لذلك يجوز لنا القول بأنه موسوعة كبيرة نادرة فى اوساط اللغات العالمية .

وفى حديث لليو تشى شياو — مؤلف « تاريخ قومية الويغور » — عن الخلفية التاريخية لظهور « قاموس اللغة التركية » ودوافع تأليفه قال : فى عهد حكم سلالة قراخان المستمر للمناطق الواقعة فى جنوب حوض تاريم ولمناطق ختشونغ طرأت على اللغة الويغورية تغيرات هائلة وعميقة . وذلك تمثل فى نقطتين : احداهما انه بعد القرن الحادى عشر فصاعدا تحولت اللغة الويغورية الى لغة سائدة فى المناطق تحت سيطرة سلالة قراخان بعد ان كانت لغة قبائلية . وفى الوقت نفسه واجه الويغوريون المحليون حاجز اللغة بينهم وبين ابناء القوميات الاخرى هناك . وفى ظل تطور الاقتصاد الاجتماعى المطرد وازدياد الاتصالات الشعبية والتبادلات الثقافية اكثر فأكثر اصبحت ازالة حاجز اللغة مهمة ملحة فى ذلك الزمن . وثانيتهما انه بعد انتقال الويغوريين الى مناطق ختشونغ امتزجت حضارتهم والحضارة العربية والفارسية السائدة

فيها فى تيار واحد . وقد دخلت اعداد كبيرة من المفردات العربية والفارسية الى اللغة الويغورية . الامر الذى اثار قلقا عميقا فى نفس محمود المحب لحضارة قوميته حبا جما . فأخذ على عاتقه تطوير مزايا لغة قوميته وحماية اصالتها عن طريق تأليف قاموس لها . وهذا ما دفعه الى انجاز تلك المهمة العظيمة فى تاريخ الثقافة الويغورية ، وان كان امله فى حماية اصالة لغة قوميته يخالف قانون تطور اللغات المطرد فى مجرى امتزاجها ببعضها بعضا.

ينقسم قاموس اللغة التركية الى جزأين . وجزؤه الاول مقدمة تركز على التوزع الجغرافى للقوميات الناطقة باللغة التركية وعلى ميزات هذه اللغة واللغة الويغورية القديمة واللغة الويغورية السائدة فى منطقة كاشغر وكيفية امتزاج لغات السكان الاصليين فى جنوب شينجيانغ . . الخ . والحقيقة ان هذه المقدمة تعتبر بحد ذاتها اول بحث لغوى فى تاريخ قومية الويغور . واما جزؤه الثانى فيشتمل على اسماء وافعال باللغة العربية مفسرة بالاقوال المأثورة والامثال الشائعة فى جنوب شينجيانغ . ولذلك يعتبر هذا القاموس كتابا عظيما لا مثيل له فى دراسة لغة قومية الويغور بالاضافة الى كونه موسوعة يرجع اليها فى دراسة ميزات لغات القوميات الصينية الناطقة باللغة التركية وتاريخها وآدابها وفنونها .

بعد ان دخل الاسلام الى الصين تركت اللغتان العربية والفارسية اثرهما فى لغات المسلمين الصينيين من مختلف القوميات ، سواء المنطوقة منها والمكتوبة . وكان ابناء القوميات الناطقة باللغة التركية قد بادروا الى الاستفادة من الحروف العربية فى تهجية حروفهم . وجدير بالذكر ان اللغة الويغورية تأثرت باللغتين العربية والفارسية الى ابعد حد من حيث اللفظ والنحو والمفردات .

وقد تركت اللغتان العربية والفارسية اثرهما بدرجات متفاوتة فى لغات القوميات المسلمة التسع الاخرى فى الصين ، لاسيما لغات قوميات سالار

والقازاق ودونغشيانغ الناطقة باللغة التركية . فخير لنا ان نقول بأن ذلك مفيد لهذه اللغات من ان نقول انه ضار بها ، اذ شهدت بذلك تطورا متواصلا على اساس امتزاجها فى اللغتين العربية والفارسية .

٣ — فن الطهو الاسلامى فى الصين

يعود فن الطهو الصينى فى تاريخه الى زمن بعيد . وهو تراث ثقافى صينى هام للأمة الصينية . هذا وان اطعمة المسلمين الصينيين ومأكولاتهم الخفيفة تشكل جزءا من هذا التراث الثقافى .

ان الاطعمة الاسلامية الصينية هى سلسلة هامة من سلاسل الاطعمة الصينية ، تكونت من اطعمة المسلمين من مختلف القوميات فى كافة انحاء الصين ، وتشكلت على اساس الالتزام التام بالاحكام الاسلامية الخاصة بالمأكولات ، وتطورت على اساس اقتباس ما هو مفيد من روائع فنون الطهو لدى مختلف القوميات . ولذلك فانها ليست متميزة بسمات الاطعمة الاسلامية فحسب بل تتحلى بمزايا الاطعمة الصينية المثيرة للاعجاب بألوانها وروائحها ومذاقاتها واشكالها الجميلة .

(١) تاريخ تطور الاطعمة الاسلامية

يعود تاريخ الاطعمة الاسلامية فى الصين الى عهد اسرتى تانغ وسونغ (٦١٨ — ١٢٧٩) . يومها كانت عادات المسلمين العرب والفرس ، بما فيها عادات اكلهم وشربهم ، قد انتقلت الى الصين خلال ابحارهم اليها . وقد سجل ليو شيون فى اواخر عهد اسرة تانغ فى كتابه « لينغبياو لويى » كيف نزل فى بيت احد المسلمين ضيفا ، ووصف تمر بلاد الفرس الذى اكله خلال ذلك بقوله : " انه يشبه السكر الحبيبى لونا ، لبه لين ، وله طعم تمر محترق على النار ومنضج على البخار فى آن واحد . " اما قو يان وو فى

عهد اسرة تشينغ (١٦٤٤ — ١٩١١) فقد اورد فى كتابه « جامع الادوية من كل انحاء البلاد » ما سجل فى مقالة « تو هوانغ لو » بقلم فانغ تشيان لى فى عهد اسرة تانغ من اقوال : "كان من عادة الجاليات الاجنبية فى قوانغتشو ان تقدم حلويات واسماكا فى اغلب الاحيان ، ولذلك فان رائحة الحلويات الجميلة ورائحة الاسماك الكريهة تمتزجان فى بعضها بعضا بطبيعة الحال ." وقد تحدث تشوانغ جى يوى فى عهد اسرة سونغ (٩٦٠ — ١٢٧٩) فى مقالته « ضلوع الدجاج» عن اكل الجاليات الفارسية فى قوانغتشو للاريقة ، بينما قال لوه دا جينغ فى كتاب « خه لين يوى لو» : " اهل لينغنان (جنوب الجبال الخمسة فى قوانغدونغ) يحلون الاريقة محل الشاى بحجة انه دواء للعفونة " . وهذا يدل على ان الاريقة المستوردة من الخارج قد اصبحت ضمن مأكولات الصينيين . وفى عهد اسرتى تانغ وسونغ كان هناك عدد من الصينيين يعرفون ميزات طعام المسلمين وشرابهم . من ذلك ان دو هوان فى عهد اسرة تانغ اشار فى كتابه « جينغ شينغ جى» الى ان المسلمين فى داشى (اى بلاد العرب) " يأكلون اللحوم فى سحورهم " و" يمتنعون عن الخمر" و" يأكلون الرز والدقيق شأنهم شأن الصينيين " . اما دو يو فقد قال فى «تونغ ديان» : "حسب شريعة ' داشى' (اى الشريعة الاسلامية) يحرم على المرء اكل لحوم الخنزير والكلب والحمار والخيل . . الخ" وقال تشو يوى فى عهد اسرة سونغ فى كتاب « احاديث فى بينغتشو» : " ان المسلمين فى قوانغتشو يشبهون الصينيين فى المأكولات والمشروبات" و" لكنهم لا يأكلون لحم الخنزير" و" لا يأكلون لحوم الحيوانات غير المذبوحة " و" لكنهم يأكلون الاسماك والسلاحف الحية منها والميتة " . وفيما كان يويه كه فى نفس العهد يتحدث فى « تاريخ تينغ» عما رآه فى طفولته من الجاليات الاسلامية قال : انهم لا يستخدمون ادوات الاكل ، و" يطبخون

السمك مع الرز فى قدور معدنية مستطيلة ويرشون عليها ماء الورد . " وقد عرفنا من التدوينات التاريخية السالفة الذكر ان عادات المسلمين فى الاكل قد دخلت الى الصين ، وتركت اثرها فى الاطعمة الاسلامية الصينية الى اليوم .

وكان فى قائمة اطعمة البلاط الامبراطورى فى عهد اسرة يوان اطعمة اسلامية ، مما قدم دليلا على انها كانت موضع اهتمام الحكام آنذاك . كما كانت لهذه الاطعمة شعبية لدى الجماهير . ففى مسرحية « الراهب باو تسى يستعيد حياته الدنيا تلقائيا » التى هى جزء من « اغانى تشنغتشاى الروائية » اغنية يقول بعض كلماتها : " هناك لحوم خروف كثيرة الشحم لدى اللحام شياو ليو ، ورؤوس او حوافر اغنام رخيصة . . . وكعكات كبيرة لدى ما هوى هوى ، واطعمة رخوة طيبة الطعم عند البائع الغريب (المسلم) . . . " ونعرف من ذلك ان " اللحام شياو ليو" و" ما هوى هوى" و" البائع الغريب" فى هذه الاغنية هم من المسلمين . وتعتبر هذه الاغنية انعكاسا لحظوة الاطعمة الاسلامية بالاستحسان بسبب جودة نوعيتها ورخص ثمنها ، فى ذلك الزمان .

وفى عهد اسرتى مينغ وتشينغ (١٣٦٨ — ١٩١١) لم تزدد انواع الاطعمة الاسلامية فحسب ، بل امتازت بأسلوبها الخاص . وكانت وليمة " الخروف الكامل " التى ظهرت فى عهد اسرة تشينغ موضع الاعجاب بصورة خاصة . فلا غرو ان يمتدح الشاعر يوان مى فى عهد اسرة تشينغ هذه الوليمة مشيرا الى ان اعدادها يتطلب مهارة ترويض التنين (اى مهارة خارقة) ، وان هذه الوليمة تشتمل على ٧٢ نوعا من الاطعمة مطبوخة كلها بلحم الخروف ، ولكن لكل نوع من هذه الاطعمة مذاقه الخاص . وكفى بذلك دليلا على مدى ارتفاع مستوى فن الطهو بالنسبة للاطعمة الاسلامية آنذاك .

وليس هناك تدوينات تاريخية خاصة بالاطعمة الاسلامية بسبب تخلف ثقافة المسلمين . ويعزى السبب فى بقاء الاطعمة الاسلامية حتى يومنا هذا الى توارث اساليب الطبخ الاسلامى بين الطباخين المسلمين جيلا عن جيل . وهذا الوضع المؤسف لم يتغير جذريا الا بعد تأسيس الصين الجديدة . ومنذ سنة ١٩٥٢ حتى الآن تم تأليف ونشر عشرات الانواع من قوائم الاطعمة الاسلامية ، من ضمنها « قائمة الاطعمة الاسلامية فى الصين » و« قائمة اطعمة ابناء قومية هوى» و« وليمة الخروف الكامل » و« الاطعمة الفاخرة المعدة من لحم الخروف الكامل » و« المأكولات الخفيفة عند ابناء قومية هوى ببكين » و« جدول الاطعمة الاسلامية المبوبة فى منطقة بكين » . وهذه الكتب قد تم تأليفها على ايدى مشاهير الطباخين من المسلمين فى مختلف انحاء البلاد ، وتعد نافذة على الاطعمة التقليدية الشهيرة والاطعمة المستحدثة الرائعة . ان تأليف هذه الكتب ونشرها يرمز الى ان فن الطهو الاسلامى فى الصين قد دخل مرحلة جديدة كل الجدة ، وهذا اعب دورا كبيرا فى اغناء حياة القوميات الصينية المختلفة وتنمية التبادلات الثقافية فيما بينها .

(٢) ميزات الاطعمة الاسلامية

تتجلى ميزات الاطعمة الاسلامية الصينية فيما يلى :

حسب الاحكام الاسلامية الخاصة بالمأكولات يحرم اعداد الاطعمة الاسلامية باستخدام لحم الخنزير ولحوم الوحوش والدم واعضاء التناسل تحريما تاما . والاحياء المائية التى تستخدم فى اعداد هذه الاطعمة مقصورة على الاسماك الجميلة والانيسة ذات الاشواك والزعانف والحراشف والافواه الخالية من الاسنان . وجدير بالذكر ان لحوم الابقار والاغنام هى المادة الرئيسية التى لا غنى عنها فى اعداد الاطعمة الاسلامية فى الصين .

ومن عادة الطهاة ان يهتموا بالتوابل اهتماما بالغا خلال اعدادهم الاطعمة الاسلامية . لذلك تجدها لذيذة الطعم ذكية الرائحة كثيرة الزيت جميلة المنظر سواء أكانت حلوة ام مالحة . واشد ما يدعو الى الاعجاب هو ان اطباقها الدسمة منعشة ، والقليلة الدسم حسنة المذاق ، والطرية منها خالية من رائحة اللحم ، والسريعة النضج طيبة الطعم .

ولا تتمثل روعة الاطعمة الاسلامية فى جمال ألوانها وجودة رائحتها ولذة مذاقها وحسن اشكالها وشدة نظافتها فحسب ، بل تنعكس فى تميز بعضها بالفعالية فى العلاج . فان « يوميات السيد ما » فى عهد اسرة مينغ تشير الى ان هناك نوعا من الخميرة المصنوعة من فول هوى هوى على " شكل ثمار البندق ، وهى لذيذة الطعم . وبعد ان يطحن هذا الفول يخلط مع الدقيق ، مما يزيد من لذته ، وله فعالية فى ازالة البثور على الوجوه " . اما « وصفات الاطعمة الطبية » من « موسوعة المأكولات والمشروبات» بقلم هو سى هوى فى عهد اسرة يوان فتضم انواعا من الاطعمة الطبية المطبوخة من لحوم الابقار والاغنام مثل « عجائن لحم الخروف» و« صدور البقر» . . الخ .

ان الاطعمة الاسلامية تسر الخاص والعام بكثرة اصنافها ودقة طهوها ورخص ثمنها وجودة موادها . وهناك اساليب شتى لطبخ الاطعمة الاسلامية كالتسبيك والتحمير والقلى السريع والقلى بالتحريك المتواصل والتحمير بالزيت والشى والغلى الخاطف والغلى البطىء والتدميس فى قدر مقفلة والتدميس فى الماء المغلى والتبخير . . الخ . اما اساليب طبخ الاطعمة الاسلامية من الدقيق فتتلخص فى ٥ اصناف هى : التبخير والسلق والشى والتحميص والتحمير بالزيت . ويمكن للطهاة المهرة ان يلجأوا الى اساليب الطهو المختلفة ويستفيدوا من اعضاء الخروف المختلفة فى اعداد " وليمة الخروف الكامل " التى تشتمل على اطباق الاطعمة الكبيرة القطع ومثيلاتها المدمسة والمقلية بالتحريك ومثيلاتها

الباردة ومثيلاتها الحلوة والحساء . . الخ ، وهى مشهية جدا .

ولبعض الاطعمة الاسلامية اسماء بسيطة واضحة ، منها : " لحم الخروف المسلوق الفورى" و" لحم الخروف المشوى" . . الخ . ولكن لبعضها الآخر اسماء مشوقة مثل : " تغطية رأس تشيلين* " المطبوخ من رأس الخروف الابيض ، و" التاج الذهبى المسبك " المطبوخ من اللحم الكائن على مؤخر رأس الخروف الابيض المسلوق ، و" السحابة المدمسة " المطبوخ من دماغ الخروف النئ ، و" آذان الخبازى" المطبوخ من آذان الخروف المطهوة ، و" مينغكاى يخه " (الانفتاح نهارا والانغلاق ليلا) المطبوخ من جفون الخروف ولحومه النيئة ، و" الغنودرمه الملونة " المطبوخ من انوف الخروف المطهوة والفطر المعلب ، و "كاتيون القصب" المطبوخ من امعاء الخروف المطهوة ، و" خيار البحر وازهار الخوخ" المطبوخ من لحوم الخروف النيئة القليلة الشحم ، و"كرات اذن البحر" المطبوخ من لحوم فخذ الخروف والجمبرى ، و" اسلاك ازهار الاقحوان الثلاثية الالوان " المطبوخ من لحوم فخذ الخروف القليلة الشحم والاصباغ الملونة الصالحة للاكل . ان هذه الاسماء الجميلة ممتعة مشوقة . ولو فكرت فى معانيها مليا لوجدتها فى غاية الحيوية والروعة . انها لا تعكس مواهب الطهاة فحسب ، بل تبرز الى حد ما وجهة نظر عامة المسلمين الى الجمالية .

وحيث ان المسلمين الصينيين ينتشرون فى كافة انحاء البلاد ، فان للاطعمة الاسلامية فى كل مكان ميزتها الخاصة بذلك المكان .

فمن بين الاطعمة الاسلامية فى شينجيانغ الرز الدفين والكباب والخبز اللحمى والعجين المحشو باللحم والخضر ونظيره المشوى وشرائح الدقيق والخروف المشوى الكامل ولحم الخروف المسلوق ومرق الدكتور . ومن

---

* تشيلين : حيوان خرافى .

عادة اهل شينجيانغ ان يأكلوا الية الخروف والبصل والجزر والفلفل والطماطم ، وان يأكلوا الاطعمة الكثيرة الزيوت والشديدة الملوحة . وجدير بالذكر ان الاطعمة المصنوعة من لحم الخروف على ايدى مسلمى شينجيانغ لذيذة الطعم وخالية من الرائحة غير المرغوب فيها ، فلا غرو انها محببة الى المسلمين وغير المسلمين .

وفى بكين انواع شتى من الاطعمة الاسلامية المعروفة . من بينها لحم الخروف المسلوق الفورى فى مطعم دونغلايشون ولحوم الخروف والبقر المحمرة فى معمل يويشنغتشاى للاطعمة الغذائية والاطعمة المعمولة بكامل الخروف فى مطعم هونغبينلو ، واللحوم المشوية فى مطعمى كاورويوان وكاوروجى ، والسلور المشوى فى مطعم شياولو بمحافظة تونغشيان . زد على ذلك ان هناك مأكولات خفيفة ذات نكهات محلية ، منها تحمير اللحوم السريع وتحمير الكرش السريع و " الاطواق المقلية " فى الزيت و " التاسم " و " المفتولات العجينية المقلية " وفطائر اللحم وحلوى " أيووهوه " والكعك على شكل ورقة اللوطس والفطير المسلوق والكعك القمحى المحمص الحلو والخبز الصينى المتفتح والحلوى الممزوجة بالعسل والكعك اللولبى الشكل وجبن الفاصوليا الهلامى الشكل .. الخ . اما معمل يويشنغتشاى المعروف باعداد لحوم البقر المحمرة والمتبلة فقد تأسس منذ مائتى سنة . وقد ادرجت مبيعاته فى جدول الاطعمة الامبراطورية . ونظرا الى ان هذا المعمل يهتم بالغ الاهتمام باختيار المواد واستخدام التوابل ، ويعالج اللحوم باتباع سلسلة من العمليات الدقيقة ، ويضيف شيئا من مرق اللحوم المتبقى من القديم الى اللحوم التى تكون قيد الاعداد ، فان اللحوم المتبلة على هذا النحو لذيذة وهشة للغاية بفضل طراوة المواد الخام وروعة طعم التوابل المستعملة فى معالجتها . هذا وقد نظم احد الشعراء فى عهد اسرة تشينغ (١٦٤٤ - ١٩١١) قصيدة جاء فيها :

ليس هناك لحوم خروف افضل مما هو فى العاصمة ،
يصطبغ مرقها بالحمرة بعد تتبيلها فى المياه الصافية .
وتعرض للتحمير فى الهاجرة لكى تكون صالحة للأكل ،
يا لها من طعام شهى لأن رائحتها مستساغة .

اما مدينة شنيانغ فتتوفر فيها مطاعم اسلامية ضخمة باستطاعتها طهو الاطعمة بكامل الخروف واعداد ولائم العرس . ومنها مطعم تشينغشيانلو ومطعم اسرة يوى وفرع مطعم بيشيتشانغ الاسلامى ومطعم تشيوانيانغلو . وهناك بالاضافة الى ذلك كثير من باعة الاطعمة الاسلامية المنتشرين فى مختلف انحاء المدينة . ان لحوم البقر المسبكة التى ظهرت اول ما ظهرت فى قرية هويهويينغ بضاحية شنيانغ لذيذة المرق ظاهرة الطعم ، وهى من الاطعمة الاسلامية المثالية فى المدينة . وجدير بالذكر ان مرق لحوم الخروف واللفات المفتولة المطبوخة على البخار والرز المخلوط باللحوم الطرية فى مطعم اسرة ما والفطائر المحشوة باللحم فى مطعم اسرة تيه والكعك المحشو باللحم فى مطعم اسرة يوى ، والشعيرية الممدودة بالايدى فى مطعم اسرة باى ، والكعك القمحى الزيتى الهش وجبن الفاصوليا لدى السيد تشو قوانغ جين . . الخ ، يتميز كل منها بميزته الخاصة به ، ويحظى بترحاب الجميع .

وتحتل الاطعمة الاسلامية مكانة هامة فى مقاطعة خنان . وقد عرف المسلمون المحليون ببراعتهم فى اعداد انواع شتى من المأكولات الخفيفة اللذيذة الطعم والجميلة الالوان ، وهى تحظى بشعبية واسعة فى مقاطعة خنان منذ القدم . اما دجاج ما يوى شينغ المشوى فى مدينة كايفنغ فغالبا ما يذكر مع بط بكين المشوى فى آن واحد . وقيل ان هذا النوع من الاطعمة الاسلامية المحلية يعود تاريخه الى عهد اسرة سونغ الشمالية (٩٦٠ — ١١٢٧) . وفى

مدينة كايفنغ مطعمان اسلاميان ، يحمل احدهما اسم تشونغشبنغلو ، والآخر اسم شينشنغ . وقد اشتهر الاول بشعيريته المحمصة مع الشبوط ولحم الخروف المسلوق الفورى ، بينما اشتهر الثانى بالخبز المنقوع فى مرق لحوم الخروف والفطائر المحشوة باللحم المطبوخة فى الاوعية البخارية الصغيرة . كما ان لحوم البقر المالحة لدى اسرة هونغ فى مدينة فانتشنغ التابعة لمحافظة لينينغ ولحوم الخروف المصنعة فى ناحية ليتشياو لقومية هوى بمحافظة شينتساى هى من الاطعمة الممتازة على مستوى المقاطعة .

وفى مدينة تشنجيانغ ثلاثة انواع من الاطعمة : " هوميان " و" الخل العطرى" و" اللحم المتبل " . وقد جرت العادة على تسميتها " اطعمة تشنجيانغ الثلاثة العجيبة " ، وذلك ان الخل العطرى لا يتعفن ابدا على مرور الزمن ، واللحم المتبل من قبيل المنعشات وهوميان يمكن ان يحل محل غطاء القدر . اما هوميان المباع فى المطاعم الاسلامية فيمثل اكثر من ٥٠٪ مما يباع فى المدينة كلها . من ذلك ان مطعم بانغ دا تشانغ الاسلامى الخاص بهوميان فى شارع اسد تشونغهوا دائما ما يغص بالزبائن بسبب جودة هذا الطبق واتقان صنعه . ولا تفوتنا الاشارة الى ان المنعشات التى يجرى انتاجها وتسويقها فى دكاكين المنعشات الاسلامية : وويونتشاى وتشونشنغخه وفولوتشيوان وجيجى كلها محببة الى الزبائن . ومن بين مبيعات هذه الدكاكين نوع من المنعشات يسمى جينغجيانغتشى ، ويبدو على شكل سداسى الاضلاع ، وينقسم الى صنفين حلو ومالح . ولهذه المنعشات شهرة فائقة ، ذلك انه ليس لذيذا ورخيصا ومشبعا فحسب بل يرمز الى السعادة والبركة ، اذ ان لفظ " تشى" من " جينغجيانغتشى" مبارك فى نظر اهل المدينة . وهذا ما دفعهم الى تناوله تبركا به . وللنوع المالح منه شعبية اوسع من نظيره الحلو لأنه صالح للنقع فى مرق لحم البقر او الدجاج . ولو اخذت هذا الطعام من المرق بعودى

الاكل لبدا على شكل زهرة سوسن تسر الناظرين الى ابعد حد . ومن عادة اهل تشنجيانغ ان يكرموا ضيوفهم بفناجين من "جينغجيانغتشى" المالح تبجيلا لهم . وقد عرف كل من دكان الاخوين تان سن خه الاسلامى للمخللات ودكان تان وان خه الاسلامى المماثل باتساع نطاقه وعراقة تاريخه وكثرة منتجاته وجودة نوعيتها ، ولذلك فانهما من دكاكين المخللات المحلية الاكثر ازدهارا . ومنتجاتهما ليست رائجة فى مدينة تشنجيانغ فحسب بل تسوق فى شانغهاى ونانجينغ وغيرهما ايضا .

وهناك بالاضافة الى ذلك اطعمة اسلامية اخرى مثل الخبز المنقوع فى مرق لحم الخروف ، ولحوم البقر والخروف المملحة فى مدينة شيآن ، والبط المحمر فى مدينة نانجينغ ، وكرش الخروف وقوانص الدجاج المقلية وشعيرية الكرش المقلية فى مدينة جينان ، والشعيرية بلحم الخروف فى مدينة تشنغتشو ، والشعيرية الممدودة فى مرق لحم البقر فى مدينة لانتشو ، ولحم الدجاج المقطع فى مقاطعة قانسو ، والشعيرية المقلية فى مرق لحم الخروف ، ولحم الحمل مع الفلفل الاحمر وصلصة الفلفل البرى ، والاطباق العشرة الريفية وما الى ذلك فى نينغشيا ، ولحم الخروف المقطع المسلوق فى مقاطعة تشينغهاى الى جانب بيض الدجاج المحمر ولحم الخروف المحمر فى مدينة شنيانغ . ولكل من هذه الاطعمة نكهتها الخاصة ومذاقها الطيب .

٤ — تقاليد المسلمين العريقة فى العاب ووشو وابطالهم المتعاقبون فى هذا الحقل

ان ووشو من الالعاب الفريدة الخاصة بالصين . وقد انتشرت من موطنها الى كثير من البلدان الآسيوية ، ثم انتقلت منها الى البلدان الاخرى فى سائر القارات . وقد دخلت الى مصاف الالعاب الرياضية المحببة الى شعوب

العالم . اما المسلمون الصينيون الذين عرفوا بقوة ابدانهم وشجاعتهم وتضامنهم فقد كرسوا مواهبهم وجهودهم لتطوير هذه الالعاب الصينية .

وتشتمل العاب ووشو لدى المسلمين الصينيين على عشرات الانواع من الالعاب ، منها المصارعة الحرة والمصارعة القريبة والمصارعة البعيدة والملاكمة والتمرينات المتقابلة والملاكمة بمساعدة الاسلحة .. الخ . ولهذه الالعاب مزاياها المرتبطة بعادات قومية هوى الى جانب ما فيها من نقاط مشتركة بينها وبين العاب ووشو الصينية .

اما الاسلحة المستعملة فى العاب ووشو لدى المسلمين فتضم الساطور والرمح والسيف و " الجى " (سلاح قديم مجهز بحربة فى رأسه وبحد هلالى الشكل فى جانبه) والهراوة والسوط والمطرقة والخطاف والمجرفة والفأس .. الخ ، كما تحتوى على السوط بالهراوة ، والهراوة المصفرة وشوكة الحرب وعكاز " الصدر " وخطاف مخلب التنين والهراوة " ووهو تشيونيانغ " والسيف المدعو " ذو الفقار " وساطور " جامر " ورمح " جامر " وغير ذلك من الاسلحة الشائعة وسط اللاعبين المسلمين . ولكنها نادرا ما ترى وسط لاعبى ووشو من قومية هان . فأما السوط بالهراوة فيسمى "سوط المنطقة الغربية" وهى هراوة بطول ٥ر١ م ، واحد طرفيها مربوط بحبل مجهز بسلاح مدبب وزنه ٧٥٠ غراما . وقد قيل ان لنشوء السوط بالهراوة هذا علاقة بالرعاة المسلمين ، شأنه شأن الهراوة " ووهو تشيونيانغ " لأنهما قد تطورا على اساس اسواط رعى الخيول وقضبان رعى الاغنام . واما " ذو الفقار " فهو ذو سنين مدببتين ، ولكل منهما حدان . والغريب ان كلا سنيه اكثر من مقبضه عرضا . وعلى جانبى بدن السيف كلمة " ذو الفقار " باللغة العربية اشارة الى ان هذا النوع من السيوف هو طبق الاصل لسيف على رضى الله عنه . واما خطاف مخلب التنين فقد تطور على اساس الخطاف المستعمل فى المجزر الاسلامى فى الصين .

ومن العاب ووشو الشائعة وسط اللاعبين المسلمين ملاكمة " جامر" وملاكمة " تانتوى" وملاكمة " تويتشيوان " وملاكمة " هواتشيوان " وملاكمة " هونغتشيوان " وملاكمة " باوتشيوان " وملاكمة " الصفارية " وملاكمة " ليوجياوشى" وملاكمة الـ ٢٤ حركة وملاكمة " لاوجيا " وملاكمة " باجى" وملاكمة " شينيبى ليوخه " (الانسجام النفسى فى النواحى الست) . ويستأثر المسلمون من قومية هوى بعشرة اساليب من ملاكمة " جامر" وثلاثة اساليب من ملاكمة " تويتشيوان " وعشرة اساليب من ملاكمة " تانتوى" وملاكمة " شينيبى ليوخه ". لذلك عرفت باسم " ملاكمات هوى هوى" و" الملاكمات الاسلامية " . وهناك قول : " ما من احد لعب ملاكمة ' تانتوى' فى طول الصين وعرضها إلا تعلمها من اللاعبين المسلمين " . اما ملاكمة " جامر" فقد ظهرت الى حيز الوجود فى اواسط عهد اسرة مينغ (١٣٦٨ — ١٦٤٤) ، وتطورت حتى تكاملت فى اواخر عهد اسرة تشينغ (١٦٤٤ — ١٩١١) . وتعتبر هذه الملاكمة نموذجا لألعاب ووشو الخاصة بقومية هوى المسلمة لأن نشوءها يتفق مع تاريخ هذه الالعاب تماما . ولملاكمة " جامر" حركات جميلة وحلقات مرتبطة ببعضها بعضا ، وهى تتخذ ملاكمة " تانتوى" محورا لها . ولذلك يجوز لنا القول بأن كل شوط من هذه الملاكمة هو نوع مستقل من الملاكمة ما دام يتميز بحركات كثيرة . والحقيقة ان كل اسلوب من ملاكمة " جامر" لا يخلو من حركات الجرى والمشى والطيران وانزال الضربات ، حتى ليقال ان عشرة اساليب من ملاكمة " جامر" قد تنقسم الى ٥٠ اسلوبا لكثرة تغير حركاتها وشدة فعاليتها فى القتال . هذا وتعتبر من اروع العاب ووشو الصينية . وهناك بالاضافة الى ذلك العاب اخرى ابتكرها ابناء قومية هوى، منها ملاكمة " باجى" وملاكمة " تونغبى بيياو" وملاكمة " قواندونغ" الى جانب ملاكمة " شيياتشو" وملاكمة " تانغبينغ" السباعية الاساليب .

وقد تم تعميم هذه الالعاب وسط اللاعبين من مختلف القوميات الصينية بفضل عمق تأثيرها وروعة حركاتها وجمال اسلوبها .

وبعد ظهور ملاكمة المسلمين من قومية هوى فى اواسط عهد اسرة مينغ تكاملت بالتدريج حتى اصبحت على ما هى عليه اليوم ، وذلك بعد ان تطورت عبر مئات السنين .

وفى اواخر عهد اسرة يوان (١٢٧١ — ١٣٦٨) هبت جحافل انتفاضة الفلاحين بزعامة تشو يوان تشانغ لمعارضة الحكم القائم آنذاك . وكان بين جموع المنتفضين عشرة قواد من المسلمين ابلوا فى القتال بلاء حسنا ، مما ساعد زعيم الفلاحين تشو يوان تشانغ على تأسيس حكم اسرة مينغ (١٣٦٨ — ١٦٤٤) فى نهاية المطاف . لذلك جرت العادة على تسميتهم " ابطال هوى هوى العشرة فى الدفاع عن الوطن الام " . وهؤلاء لم يكونوا مهرة فى القتال فحسب ، بل برعوا فى الملاكمة ايضا . فأرجح الظنُ انهم من مؤسسى ملاكمة هوى هوى الشائعة حاليا ، ولكنهم لم ينسبوا ملاكمتهم الى هوى هوى .

وفى اواسط عهد اسرة مينغ ظهرت ملاكمة هوى هوى رسميا ، وقد سميت ملاكمة " جامر " نسبة الى جامر مؤسس هذه الملاكمة الذى كان شابا قوى الارادة من مواليد شينجيانغ . وفى اواسط عهد اسرة مينغ غادر موطنه الى شرقى الصين للمقاومة ضد الغزاة الغاشمين تلبية لأمر الامبراطور . وفيما كان يمر بقرية تشانغين فى محافظة قوانشيان بمقاطعة شاندونغ اصيب بالتيفوئيد ، فلم يجد بدا من ان يبيت فى منزل احد المسلمين حيث حظى بالعلاج الجيد والعناية البالغة . ولما استعاد نشاطه درب اهل البيت على فن ملاكمته تعبيرا عن جزيل شكره لهم . ثم اطلق اسم جامر على هذه الملاكمة تخليدا لذكرى صاحبها . ومنذئذ اخذ المسلمون المحليون يتوارثون هذه

الملاكمة ، كما قاموا بتعميمها وسط اخوتهم من المسلمين فى اماكن اخرى. ومن جراء ذلك اصبحت محافظة قوانشيان وطنا لملاكمة " جامر " .

وفى اواخر عهد اسرة مينغ عممت الملاكمات الاخرى الى جانب ملاكمة " جامر " وسط المسلمين من قومية هوى ، واصبح لها اسلوبها الخاص . وعندما كان لى تشى تشنغ زعيم الفلاحين يطرق مدينة تشنتشو سنة ١٦٤٢ كان من انصاره معسكر مكون من ٣٠٠ ملاكم مسلم برئاسة امام مسجد . وكانت هناك بالاضافة الى ذلك فصيلة من ابناء قومية هوى بزعامة ما شو ينغ المعروف بلقب " لاو هوى هوى " (اى اهل هوى هوى) انضمت الى قوات انتفاضة الفلاحين ضد اسرة يوان حسب ما ورد فى « تاريخ اسرة مينغ » . وهذا يدل على ان الملاكمات قد اصبحت شائعة وسط المسلمين من قومية هوى فى ذلك الزمن . وقد قال بعض الملاكمين ان " ملاكمة الحركات الحيوانية العشر " التى تمخضت عن ملاكمة " شينيى ليوخه " فيما بعد قد ظهرت الى حيز الوجود وانتشرت على نطاق واسع فى اواخر عهد اسرة مينغ .

وفى عهد اسرة تشينغ (١٦٤٤ — ١٩١١) تعرض المسلمون الصينيون للاهانة والاضطهاد والقمع الدموى الشديد ، فاضطروا الى القيام بانتفاضات مسلحة ضد حكم اسرة تشينغ . وفى الوقت ذاته ادركوا ان الدفاع عن قوميتهم ودينهم الحنيف يتوقف على قوة ابدانهم ، الامر الذى ادى الى تكوين سجاياهم القومية المتمثلة فى البطولة والتضامن والصمود ضد الجور والطغيان . وفى ظل ذلك فتحت المساجد فى كافة انحاء البلاد ملاعب لتدريب المسلمين على العاب ووشو بعد صلاة الفجر وصلاة المغرب . لهذا شهد ابناء قومية هوى تطورا كبيرا فى العاب ووشو ، وتوفر لهم جيل بعد جيل من كبار الملاكمين واللاعبين .

كان وو تشونغ من مواليد قرية منغتسون فى تسانغتشو بمقاطعة خبى

مدربا عظيما فى الملاكمة ، لمع اسمه فى عهد حكم الامبراطور يونغ تشنغ (١٧٢٣ – ١٧٣٥) لأسرة تشينغ باعتباره " مبتكرا لثمانية انواع من الملاكمة فى شمال الصين" بعد ان ابدع ملاكمة "باجى" القوية . وفى شيخرخته قام بتدريب ملاكمين ناشئين فى بيته ، وانتهى به الامر الى اعداد ١٤٥ ملاكما مشهورا . ومن جراء ذلك عرفت قريته منغتسون بأنها موطن لملاكمة "باجى" . وعلاوة على ذلك فان وو تشونغ مشهور فى لعب الرمح الكبير ، وعرف مع اللاعبين الشهيرين لى تشانغ وكانغ دا لى فى ميدان ووشو بأنهم " ابطال ووشو الثلاثة " وقتذاك . وفى سنة ١٧٣٥ فاز هذا المدرب العظيم على رهبان معبد شاولين فى مباريات ووشو ثلاث مرات ، فأهدوا اليه بيرقا كتب عليه " الى وو تشونغ الذى ليس له مثيل فى لعب الرمح" اعجابا بكفاءته الفائقة فى هذا الفن . كما سبق له ان تبارى فى العاب ووشو مع يون تى الابن الرابع عشر للامبراطور كانغ شى (١٦٦٢ – ١٧٢٢) ، وكان بارعا فى هجومه على خصمه حتى انه جعل رمحه يلامس حاجب عينيه مرتين وخصمه فى غفلة عن هجومه الخاطف . هذا وقد اطلق عليه لقب " لاعب الرمح الساحر" .

اما ملاكمة الحركات الحيوانية العشر التى ظهرت فى اواخر عهد اسرة مينغ واوائل عهد اسرة تشينغ فقد ادخلت عليها التحسينات فى فترات لاحقة حتى تكاملت فى مطلع القرن العشرين ، وهى معروفة باسم " ملاكمة شينيى ليوخه " . واثر ذلك قام الملاكم المسلم ماى مو تو من مقاطعة خنان — وهو ملقب بـ " لاعب هذه الملاكمة الكبير" — بتبسيط هذا النوع من الملاكمة . وبفضل نجاحه فى ذلك ذكر مع الملاكمين الكبيرين قوه يون شن وتشه يى تشاى بأنهم ثلاثة نوابغ فى هذه الملاكمة . وقد زعم بأنه قادر على امساك الطيور او الفراشات اينما كانت ، حتى ليقال انه كان يستطيع ان يطير

كيلومترا او كيلومترين مع الفراشة التى تقع فى قبضته .

وبالاضافة الى ذلك ابتكرت ملاكمة " تونغبى بيياو " على يد لاعب ووشو يدعى ما فنغ تو من قومية هوى فى اواخر عهد اسرة تشينغ .

وهناك حكاية حول الملاكم المسلم الشهير جين شياو تينغ الذى تغلب على رهبان معبد شاولين ثلاث مرات ، وانزل الضربات القاصمة بالطاغية وانغ سى فى بكين . وهى شائعة وسط المسلمين فى كايفنغ وتشوشيانتشن حتى زمننا هذا .

ولما تكاملت ملاكمة " جامر " فى اواخر عهد اسرة تشينغ شاعت وسط المسلمين من قومية هوى فى كافة انحاء الصين . وليس هذا فقط بل انقسمت الى مذهبين ، جنوبى وشمالى ، فى مقاطعة خبى . ولم يكتف الملاكم الكبير تشانغ شى يان من قومية هوى ، قبل اكثر من ١١٠ سنوات ، بتدريب تلامذته فى قرية تشانغين بمحافظة قوانشيان (موطن ملاكمة " جامر ") على عشرة اساليب من ملاكمة " جامر " وعشرة اساليب من ملاكمة " تانتوى " ، بل قام بتدريبهم على ثلاثة اساليب من ملاكمة " تويتشيوان " وثلاثة اساليب من ملاكمة " هواتشيوان " وعشرة اساليب من ملاكمة " هونغتشيوان " وثلاثة — ستة — تسعة اساليب من ملاكمة " باوتشيوان " . واما الملاكم الكبير ليو باو روى فى شمال شرقى الصين فقد سبق له ان تتلمذ على كثير من كبار الملاكمين من قومية هوى . وكان من بين الجموع الغفيرة من اساتذته وانغ بياو شى من مقاطعة شاندونغ المعروف بكفاءته فى العاب ووشو وبراعته فى ملاكمة " جامر " الى جانب اهليته للانواع الاخرى من الملاكمات ، والشيخ شا الذى لجأ الى معبد بوذى فى مقاطعة خنان بعد ان غير اسمه نتيجة لانضمامه الى انتفاضة قومية هوى الفاشلة فى شمال غربى الصين ، وكان يفوق العادة فى العاب ووشو ويتقن ملاكمة " تانتوى " وملاكمة " جامر "

وينفرد بفن استخدام الخطافين مع حركات دحرجة الجسم مما يثير الاعجاب في كل مكان ، وشن فو تشن الذى كان يعمل خفيرا فى البلاط الامبراطورى بفضل براعته فى ملاكمة " تايجى " وملاكمة " باقوا " وملاكمة " جامر " وملاكمة " شاولين " . . الخ ، وتشاو شى تشوان الذى كان يعمل فى احد مساجد بلدة شاخه التابعة لمدينة آندونغ (داندونغ اليوم) . وقد اعتلى خشبة المسرح حيث تحدى اثنين من اليابانيين اصحاب القوة الفائقة وهزمهما بسهولة ، وكان ماهرا جدا فى الملاكمة الراكضة وملاكمة " تانتوى " خلال الجرى والتلويح بالخطاف والشوكة والحزام والمعول والسيف والمصارعة وغيرها من الالعاب . ولا تفوتنا الاشارة الى ان ملاكمة " تانتوى " خلال الجرى جاءت نتاجا لدراسته ملاكمة " جامر " على مدار عشرات السنين ، وتتجلى روعتها فى تغير حركاتها بسرعة تبهر الابصار . وبفضل حظوة ليو باو روى برعاية كبار الملاكمين هؤلاء وتدربه الجاد على مهنته مدة عشرات السنين قطع شوطا كبيرا فى كل انواع الملاكمات التى تشتمل على " تايجى " و " باقوا " و " شينغيى " و " تشوجياو " و " فانتسى " و " باجى " و " تايتسو " و " يانتشينغ " و " تانغلانغ " و " شاولين " . ولم يكن يبدو خفيفا خفة السنونو ومتينا متانة الحجارة فحسب ، بل كان يستأثر بفن معجز يتمثل فى الصاق بدنه بالجدار بمجرد قفزته اليه . وقد استوعب ليو باو روى ملاكمة " تانتوى " خلال الجرى لدى تشاو شى تشوان وفن استخدام الخطافين مع حركات دحرجة الجسم لدى الشيخ شا ، وتعلم من شن فو تشن ١٠٨ اساليب من ملاكمة " تايجى " و٢٤ اسلوبا من ملاكمة " جامر " من لدن استاذه يانغ . وعلى هذا الاساس مزج ليو باو روى كافة انواع الملاكمات فى ملاكمة " جامر " ، مما ادى الى تطويرها وتشكيل ملاكمة جديدة معروفة باسم " ملاكمة شنيانغ الجامرية " . ومنذ ذلك الحين لمع اسم

ليو باو روى فى كافة انحاء الصين بالتدريج .

وقد ظهر بالاضافة الى ليو باو روى عدد كبير من مشاهير الملاكمين من قومية هوى فى عهد الجمهورية الصينية (١٩١٢ — ١٩٤٩) . من ذلك انه كان ممن يشار اليهم بالبنان الملاكم المسلم تشانغ تشن فانغ الذى ولد فى قرية تشانغين السالفة الذكر ، ونشأ فيها ، ثم هاجر الى مقاطعة خنان . وقد انتشر تلامذته فى مقاطعة شانشى وخبى وشاندونغ وخنان وشنشى وقانسو ونانجينغ وشانغهاى . ومن بينهم تشانغ ون قوانغ وتشانغ شى تاى رخه تشن تشيوان وما تشن بانغ وغيرهم من مشاهير الملاكمين المعاصرين . وكان هناك بالاضافة الى ذلك ملاكم كبير من مواليد خبى يدعى وانغ تسى بينغ ، ولقبه " وانغ وو صاحب الساطور" . وكان صديقا حميما للسيد تان تسى تونغ الذى عرف بوصفه احد " الابطال الستة فى الحركة الاصلاحية عام ١٨٩٨ " والذى كان شديد الاعجاب بأريحية صديقه هذا . وهناك ملاكم كبير من قومية هوى فى بلدة هوايديان بمحافظة شنتشيو بمقاطعة خنان يدعى وانغ شياو رونغ . وقد قدم هذا بالاضافة الى براعته فى الملاكمة العادية اسهامات هامة فى وراثة وتطوير ملاكمة " شينييى" . وبعد ان هزم روسيا متغطرسا فائق القوة فى اوائل الاربعينات من القرن الجارى اصبح مثار الاعجاب فى حقل الملاكمة ، وانعم عليه بلقب "بطل تشونغيوان" * . زد على ذلك انه كان هناك كثير من كبار الملاكمين من قومية هوى ، وهم معروفون للدانى والقاصى بمهاراتهم الخاصة .

وبعد تأسيس الصين الجديدة انتعشت تقاليد قومية هوى فى العاب ووشو وتطورت . من ذلك ان عددا من اهل قومية هوى فى مقاطعة شاندونغ وخبى والمناطق الاخرى اسسوا هيئات دراسية لألعاب ووشو لقومية هوى

* اسم قديم لمقاطعة خنان اليوم والاماكن المجاورة لها .

وجمعيات العاب ووشو فى المساجد منذ الخمسينات من القرن الجارى ، مما هيأ الظروف الصالحة لممارسة النشاطات الجماهيرية الخاصة بألعاب ووشو واكتشاف فنون الملاكمة التقليدية التى كادت تتلاشى وتنقيتها ، كما اتاح للجيل الناشئ من قومية هوى ان يتعلم من اللاعبين القدامى انواعا شتى من الالعاب بما فى ذلك ملاكمة " باقوا " وملاكمة " بيقوا " وملاكمة " جامر " وملاكمة " هواتشيوان " وملاكمة " أرلانغ " وملاكمة " تانتوى " .. الخ . وعلى هذا النحو ظهرت مجموعة من النجوم الجديدة المتألقة فى سماء العاب ووشو ، وفازوا بجوائز مختلفة فى مباريات العاب ووشو على مستوى البلاد والمقاطعات والاقاليم والمدن والمحافظات . وقد احرز اولاد واحفاد اللاعب المرموق ليو باو روى فى شنيانغ نجاحات عظيمة فى مباريات العاب ووشو على مختلف المستويات ، مما يدل على انهم خير ورثة له . واما تلامذته المنتشرون فى مختلف انحاء مقاطعة لياونينغ اليوم فلم يخيبوا آمال استاذهم فيهم ، بل احتلوا مراتب الصدارة فى مباريات العاب ووشو الوطنية .

واشد ما يدعو الى الغبطة ان العاب ووشو للمسلمين الصينيين قد شهدت وضعا جديدا لم يكن له مثيل ابدا فى التاريخ . فقد تأسس كثير من منظمات المسلمين الخاصة بألعاب ووشو على مختلف المستويات فى مدن مقاطعة شاندونغ وارياقها ، مما اثر فى رفع مستوى اللاعبين القدامى رفعا مستمرا واعداد اللاعبين الناشئين بسرعة . وعلى سبيل المثال فان الشيخ وو قوى شيانغ امام المسجد فى بلدة تشانغتشيو بمحافظة يانغقو عرف بوصفه لاعبا مخضرما بحيث اسس مدرسة رياضية للهواة الناشئين فى المسجد تحت رعايته . وقد ارتفع عدد الملتحقين بها من ٢٠ فردا الى اكثر من مائة فرد . كما اسس اللاعب تسوى ون تشين من قومية هوى صفا لألعاب ووشو فى قرية ليانغتشوانغ بمنطقة ختسه ، وازداد عدد الملتحقين به اليوم الى اكثر

من ٥٠ فردا . والطريف ان مسلمى بلدة تشانغلو المعروفة باسم "موطن العاب ووشو" فى محافظة شينشيان ظلوا يجمعون بين العاب ووشو ونشاطات الميليشيا التدريبية مما يأتى بفوائد جيدة . بينما كان اخوتهم فى محافظة بيدو قد اسسوا معهدا دراسيا لألعاب ووشو منذ الخمسينات احرز نجاحات عظيمة فى تدريب الثانويين المحليين على هذه الالعاب . اما دار الرياضة البدنية القومية التقليدية فى مدينة جينان فقد استدعت اللاعب المرموق تشو تسى خه من قومية هوى الذى فاز بالبطولة فى مباريات العاب ووشو الوطنية سنة ١٩٣٣ ليعمل مدربا فيها . وهذا ما جعل عدد الملتحقين بها يربو على ٤٠٠ فرد فى فترة من الفترات . ومنذ اسست المدرسة وانغ لى من قومية هوى صفا لألعاب ووشو فى مدرستها سنة ١٩٨٢ ظلت تركز على تدريب الطلاب على المهارات الاساسية ، مما حقق النتائج المرجوة . ونشاطات المسلمين الجماهيرية لألعاب ووشو ليست مقصورة طبعا على مقاطعة شاندونغ وحدها ، فالواقع ان المسلمين من قومية هوى فى مختلف انحاء الصين ، رجالا ونساء ، كبارا وصغارا ، متحمسون لوراثة العاب ووشو التقليدية وتطويرها . ولا تفوتنا الاشارة الى ان السيد ما مينغ دا ، الاستاذ المساعد فى جامعة لانتشو ، قد ألف كتابا حول تاريخ ومذاهب العاب ووشو لقومية هوى المسلمة .

وتتلخص مزايا العاب ووشو للمسلمين الصينيين فيما يلى :

(١) ولعهم بالالعاب الرياضية منذ القدم ، فقد انبثق منهم لاعبون افذاذ متعاقبون على كر العصور ، مما اسهم بقسط كبير فى تنمية العاب ووشو الصينية .

(٢) نشأت العابهم هذه فى عهد اسرة مينغ (١٣٦٨ – ١٦٤٤) ، وشهدت تطورا فى عهد اسرة تشينغ (١٦٤٤ – ١٩١١) ، وهى وسيلة للذود عن قوميتهم فى ظل معاناتها من وطأة الحكم الديكتاتورى الاقطاعى والاضطهاد

القومى . هذا وقد تركت تأثيرات ايجابية فى تقوية اجسامهم وتكوين سجاياهم القومية المتمثلة فى تحمل المشقات والاناة والتضامن والمساعدة المتبادلة وعدم الخوف من الطغيان والسخاء فى سبيل الخير والوقوف بجانب العدل .

(٣) لألعابهم هذه محتويات غنية ومذاهب كثيرة . وهى تشتمل على كافة فنون الملاكمة ، وتستفيد من جميع الاسلحة التى لا غنى عنها للالعاب العامة . ولها برامج تقليدية تظهر فى العاب وشو الصينية وبرامج مميزة بالسمات القومية . وهذا يدل على انها تشكلت واغتنت وتطورت بالتدريج بعد ان اقتبست ما هو مفيد لها من روائع العاب وشو لدى مختلف القوميات ، واستوعبت كافة انواع العاب وشو الصينية ، واستلهمت من تطبيقات المسلمين الحياتية الاجتماعية ، وبعد دراستها الجادة وتطبيقها الدائب على ايدى الاجيال العديدة من المسلمين .

(٤) دخلت العابهم هذه مرحلة تطور جديدة كل الجدة ، اذ تحولت من الالعاب الرامية الى الذود عن القومية والدين والدفاع الذاتى الى نشاطات رياضية طبيعية من شأنها تقوية الاجسام وتنمية التضامن القومى .

ان ممارسة النشاطات الجماهيرية الخاصة بألعاب ووشو وسط المسلمين على نطاق واسع وقيام الاختصاصيين بألعاب ووشو بتأليف الكتب حول العاب ووشو لقومية هوى يشيران الى ان هذه الالعاب قد ارتقت الى شأو جديد منقطع النظير . وتمشيا مع اتساع التبادلات الثقافية ستحظى العاب ووشو لقومية هوى باستحسان شعوب العالم ، شأنها شأن العاب ووشو الصينية .

الباب الخامس

التعليم المسجدى لدى المسلمين الصينيين

ان التعليم المسجدى للمسلمين الصينيين هو فى حد ذاته التعليم الاسلامى فى الصين . وقد سمى بذلك لأنه يمارس فى حرم المساجد . وكان من عادة ائمة المساجد ان يقبلوا عددا معينا من طلاب العلم يعلمونهم علوم الدين المتنوعة لاعدادهم دينيا بالشكل الذى ينسجم مع الحياة الاجتماعية للمسلمين الصينيين . ويحتل هذا النوع من التعليم مكانة خاصة فى تاريخ تطور الاسلام فى الصين وتاريخ قومية هوى . وقد ترك تأثيرا فعالا فى نشر علوم الدين الاسلامى . وهو برغم ما له من علاقة بالتعليم الاسلامى الاقدم الذى نشأ فى بلاد العرب يتميز بمزايا التعليم الصينى .

الفصل الاول

تاريخ التعليم المسجدى

ظهر التعليم المسجدى للمسلمين الصينيين فى القرن السادس عشر . ففى عهد اسرتى تانغ وسونغ (٦١٨ — ١٢٧٩) تقاطر عدد من المسلمين

العرب والفرس على قوانغتشو وتشيوانتشو وهانغتشو ويانغتشو وغيرها من المدن الساحلية الصينية واستوطنوها ، حيث بنوا اقدم مجموعة من المساجد فى الصين . يومها كان الائمة والخطباء فى هذه المساجد من العرب او الفرس . وحيث ان الجاليات الاسلامية الاجنبية آنذاك من التجار الرائحين والغادين بين الصين من جهة وبلاد العرب والفرس من جهة اخرى ، فقد كان من السهل ان يأتوا برجال الدين من بلادهم الى الصين ، وهذا يجعلهم بغنى عن اعداد الرجال المطلوبين لهذه الغاية .

وفى عهد اسرة يوان (١٢٧١ — ١٣٦٨) تواردت اعداد كبيرة من هوى هوى الى الصين ، واستقروا فى مختلف المناطق منها ، حيث بنوا مساجد تيسيرا لممارسة عباداتهم . وكان من بينهم عدد كبير من علماء الاسلام القادرين على رعاية الشؤون الدينية . ونظرا الى قيامهم بتعليم ابنائهم علوم الدين وقيام الابناء بتعليم الاحفاد ، وهلم جرا ، كانت المساجد القائمة فى الصين لا تفتقر الى علماء الاسلام المؤهلين لمعالجة شؤونها الدينية . وخير دليل على ذلك هو ان الشيخ برهان الدين (وهو من الجاليات الاسلامية) كان يشرف على شؤون مسجد تشينغجينغ بمدينة تشيوانتشو ، ولكن ابنه شيا تشى واحفاده شيا يان قاو وشيا دونغ شنغ وشيا رى يوى قد حلوا محله بصورة متعاقبة بعد وفاته . وقد استمر هذا الوضع ردحا طويلا من الزمن . فلم يظهر التعليم المسجدى الذى نحن بصدده الى حيز الوجود الا فى اواخر عهد اسرة مينغ (١٣٦٨ — ١٦٤٤) .

وفى عهد اسرة مينغ ازداد عدد ابناء هوى هوى وتوزعوا بصورة مبعثرة اكثر من ذى قبل . وفى ظل هذا الوضع ظهرت اعداد كبيرة من المساجد الجديدة فى كافة انحاء الصين . فلم يكن هناك عدد كاف من علماء الاسلام لرعاية الشؤون الدينية فى المساجد الحديثة البناء . ومما زاد الامر تعقيدا ان

المواصلات بين الصين وما وراء البحار لم تكن مفتوحة ابدا بسبب ممارسة حكومة اسرة مينغ سياسة الانغلاق التام . ولذا بات من الصعوبة بمكان استقدام علماء الاسلام مما وراء البحار او ايفاد طلاب العلم الصينيين الى بلاد العرب لدراسة علوم الدين . ونتيجة لذلك ظهرت ازمة نقصان علماء الاسلام فى الصين ، واخذت تشتد يوما فيوما . وفى الوقت الذى تشكلت فيه قومية هوى المسلمة اصبحت لغة هان (اى اللغة الصينية) لغة مشتركة لأهلها ، واصبحت اللغة العربية واللغة الفارسية واللغات الاخرى مهجورة باعتبارها من " اللغات الاجنبية " . وليس هذا فقط بل اقبلوا على دراسة الحضارة الصينية . والانكى من ذلك ان معظم المسلمين ضعفت معرفتهم بمعانى القرآن الكريم وبشريعة الاسلام . فاذا جوبهوا بالاسئلة حول الاسلام لاذوا بالصمت فى اغلب الاحيان . ولتغيير هذا الوضع المؤسف كان المسلمون الصينيون فى امس الحاجة الى تطوير التعليم الاسلامى واعداد الاكفاء فى علوم الدين . وفى اواسط عهد اسرة مينغ شهد المسلمون من قومية هوى تطورا فى الاقتصاد ، مما ارسى اساسا اقتصاديا لاعداد رجال الدين فى المساجد . وعلى هذا النحو ظهر التعليم المسجدى فى الصين فورا .

وتشير المعلومات المتوفرة فى حوزتنا الى ان الشيخ هو دنغ تشو (١٥٢٢ – ١٥٩٧) هو مؤسس التعليم المسجدى الاسلامى فى الصين . ويحمل هذا العالم الكبير لقب " مينغ بو " ، وهو من مواليد بلدة ويتشنغ فى ضواحى مدينة شيانيانغ بمقاطعة شنشى ، وينتمى الى قومية هوى . وكانت عائلته اغنى عائلة فى بلده . وقد تعلم الكونفوشية فى طفولته ، ثم عدل عنها الى دراسة الكتب الاسلامية على يد الشيخ قاو . وفى اثناء ذلك راودته الرغبة فى ترجمة ما تعلمه من الكتب الدينية الى اللغة الصينية ، ولكنه لم يتكلل بالنجاح لقلة علمه . وفيما كان على عتبة العقد الخامس من عمره توجه الى بكين

حيث تتلمذ على احد مشاهير الكونفوشيين حتى قطع شوطا فى دراسة الحضارة الصينية . وذات يوم صادف عالما عربيا معمما يزور الصين ، فاتخذه استاذا له . ولما تعلم من ذلك العالم الزائر كتاب «المهمات» الذى لم ينتشر بين المسلمين آنذاك شهد تقدما ملحوظا فى الدراسة حتى اصبح عالما للحضارتين الاسلامية والكونفوشية . وكانت هناك مقولة ليس لها اساس من الصحة ، تفيدنا بأن الشيخ هو دنغ تشو قد عقد العزم على تأسيس مدرسة بعد عودته من اداء فريضة الحج . ولكن كتابات ما فنغ تشو المنقوشة على «النصب التذكارى لأستاذ الاساتذة» سنة ١٧١٨ ، والمعلومات الواردة فى «تاريخ التعليم المسجدى» الذى دونه الشيخ شه تشى لينغ سنة ١٦٩٧ تخلو من اى دليل على ان هذا العالم التربوى العظيم قد وطئت قدماه اراضى مكة المكرمة . وكل ما نعرفه من المعلومات المتوفرة لدينا هو انه غادر موطنه الى قاولان ، ثم سافر الى يونوو (تشوانغلانغوى) ، وبعد ان عبر نهر هيخه بلغ ممر جيايوى فى قانسو ، ثم تابع سيره باتجاه الغرب . ولكن هدف رحلته هذه كان تشييع استاذه العربى العائد فى طريقه الى بلده . ولما افترقا فى حدود الصين ، عاد الشيخ هو من حيث اتى تاركا استاذه يتابع سيره نحو الغرب . ومنذ ذلك الحين قبل عدة طلاب فى منزله لتعليمهم علوم الدين شخصيا ، وكان يزودهم جميعا بالطعام . وقد سماه المتأخرون "استاذ الاساتذة" تعظيما له . وعلى هذا النحو رفع الستار عن التعليم المسجدى الاسلامى فى الصين لأن المدرسة الصينية الطراز التى افتتحها الشيخ هو قد مهدت الطريق الى نشوء التعليم المسجدى فى الصين .

لم يمض على افتتاح مدرسة الشيخ هو الا وقت قصير حتى ازداد عدد الطلاب فيها الى اكثر من مائة طالب ، مما ترك تأثيرا عميقا . وكان من اشهر الطلاب العلماء الذين اكملوا دراساتهم فى هذه المدرسة المتواضعة

الشيخ فنغ والشيخ هاى با يا . وبعد مضى اكثر من مائة سنة من ظهورهما تطور التعليم المسجدى تطورا كبيرا ، مما ساعد على اعداد عدد كبير من العلماء والاكفاء فى علوم الدين . وفى الوقت الذى اسست فيه المدارس المسجدية على نطاق واسع ظهرت عدة مذاهب تعليمية فى مختلف الاماكن .

اما مذهب شنشى التعليمى فقد كان يمثله الشيخ هو دنغ تشو وتلامذته من الجيل الاول . وكان من عادتهم ان يركزوا على " الدقة والاختصاص " فى التعليم ، ويشددوا على ضرورة دراسة علم الكلام . وبفضل تعمق الشيخ هو دنغ تشو فى علم الكلام عامة وعلم الفقه خاصة عرف ببراعته فى تعليم الطلاب علم الفقه بالقياس والاجتهاد حسب التعاليم الحنفية . هذا وقد سمى " مساعد ابى حنيفة " فى الصين . اما الشيخ فنغ ، تلميذ الشيخ هو دنغ تشو ، ولقبه " البابا فنغ الثانى " ، فقد ألف كتابا باسم « مسائل الناجى» باللغة العربية ، وهو كتاب فقهى صيغ على هيئة اسئلة واجوبة . والغريب ان اعدادا من المدارس المسجدية من مذهب شنشى التعليمى كانت مختصة بعلم الكلام دون سواها ، ومعنى ذلك ان الطلاب الذين تخرجوا فى هذه المدارس لا بد لهم من ان ينتقلوا الى مدارس اخرى اذا ارادوا دراسة بقية العلوم .

واما مذهب شاندونغ التعليمى فقد كان يمثله تشانغ تشى مى (تشانغ يون هوا) ولى يونغ شو (لى يان لينغ) ، وقد عرفنا من « تاريخ الاسلام الصينى» بقلم جين جى تانغ ان الشيخ تشانغ تشى مى من مواليد سمرقند ، وعندما كان فى التاسعة من عمره وصل الى بكين مع عمه المكلف بمهمة ايصال اسد الى البلاط الامبراطورى ، وقد بقى فى شنشى فى طريق عودته من بكين حيث تتلمذ على احد تلامذة الشيخ هو دنغ تشو من الجيل الرابع . وبعد ان اكمل دراساته توجه الى مدينة جينينغ بمقاطعة شاندونغ حيث تزوج بفتاة

من عائلة تشانغ ، فضم نفسه الى عضويتها . ولكن ما ذكر فى «تاريخ التعليم المسجدى» بقلم شه تشى لينغ (التلميذ النجيب للشيخ تشانغ) يختلف عما سلف ذكره ، اذ يشير الى ان كلا الشيخ تشانغ تشى مى والشيخ لى يونغ شو من مواليد مدينة جينينغ ، وبينهما علاقة قرابة . وقد اخذا يدرسان الكتب الكونفوشية فى طفولتهما سوية ، ثم انصرفا الى دراسة الكتب الاسلامية معا . وقد امضيا فترة فى مدرسة الشيخ ما تشن وو – تلميذ الشيخ هو دنغ تشو من الجيل الرابع – ولعدم اعجابهما بتعليم الشيخ ما تشن وو انتقلا الى مدرسة الشيخ تشانغ شاو شان – تلميذ الشيخ هو دنغ تشو من الجيل الثالث ، حيث ركز تشانغ تشى مى على دراسة النحو وعلم البيان ، وركز زميله لى يونغ شو على دراسة الفقه . ولم يمض على ذلك سوى سنتين او اقل حتى حقق كل منهما النتائج المرجوة فى الدراسة . ولما عادا الى بلدهما سوية التجأا الى كهف جبلى ليتعلم احدها من الآخر ما لم يتعلمه بعد . وعلى هذا النحو ازداد افقهما العلمى اتساعا ، مما اتاح لهما ان يتوليا التدريس فيما بعد . وكان طلاب العلم الذين تتلمذوا عليهما يأتون من كل فج عميق . ومن الجدير بالذكر ان علماء الاسلام المعروفين ، شه تشى لينغ و وو تسون تشى وما مينغ قاو ومى وان جى وما بوه ليانغ ، كلهم من تلامذتهما . ونتيجة لذيوع صيتهما فى التدريس اصبحت مدينة جينينغ (مقر تدريسهما) مركزا جديدا للتعاليم المسجدى فى الصين . وكان الناس يخاطبون تشانغ تشى مى بـ "العالم المبجل تشانغ" و"الشيخ تشانغ" و"البابا تشانغ" تعظيما له . ويدعو مذهب شاندونغ التعليمى طلاب العلم الى استيعاب المزيد من المعارف بحذق ، كما يدعوهم الى دراسة اللغة الفارسية الى جانب اللغة العربية لكى يدرسوا كتب علوم الفقه والكلام والصوفية المؤلفة بكلتا اللغتين المذكورتين . ومن عادة اصحاب هذا المذهب التعليمى ان يلتزموا بمبدأ

التدرج والانتقال من دراسة المعارف البسيطة الى دراسة المعارف المعقدة . وقد خلف عدد من اصحاب هذا المذهب مؤلفات منها : « هواء المنهاج» بقلم الشيخ تشانغ تشى مى ، وهو كتاب للقواعد الفارسية استأثر باعجاب علماء الاسلام والصينيين ، وكان له اثره خارج الصين فى فترة من الفترات . و« توعية الضالين » المترجم على يد الشيخ شه تشى لينغ (من مواليد وينان وتلميذ الشيخ تشانغ) ، و« تاريخ التعليم المسجدى» المدون على يد تشاو تسان (تلميذ شه) حسب املاء الشيخ شه تشى لينغ ، وهذا الكتاب من فرائد التدوينات التاريخية الخاصة بالتعليم المسجدى الصينى ، و« موجز الاحكام الشرعية » بقلم مى وان جى من مواليد بكين (وقد وضع دينغ بنغ مقدمة لهذا الكتاب) ، و« مختصر الاحكام الشرعية » بقلم ما بوه ليانغ من مواليد مدينة جينينغ ، و« مدخل الى الاسلام » الذى ألفه وو تسون تشى من مواليد نانجينغ على اساس تراجمه ، و« المرصاد » المترجم على يد هذا العالم نفسه وشقيقه وو تسى تشى ، و« الفرائد » بقلم تشانغ جيه تلميذ تلميذ الشيخ تشانغ تشى مى . وبالاضافة الى ذلك نسخ الشيخ تشانغ جيه نسخة من « المعجم الفارسى العربى» فى ٣ مجلدات وهى محفوظة جيدا حتى الآن .

وهناك بالاضافة الى المذهبين المذكورين عدة مذاهب تعليمية مثل مذهب لانتشو ومذهب يوننان ومذهب جنوب الصين الشرقى ومذهب ختشو .. الخ .

وقد ترك التعليم المسجدى اثره فى اعداد الاكفاء فى علوم الدين ، ودفع تطور ثقافة قومية هوى . ولكنه لم يعد يواكب حاجة تطور ثقافة المسلمين ، خاصة بعد تأسيس الجمهورية الصينية سنة ١٩١١ . هذا وقد شكل تأسيس المدارس الاسلامية من طراز جديد اتجاها تاريخيا حتميا . وفى ظل ذلك اسس الشيخ وانغ كوان (١٨٤٨ — ١٩١٩) اول مدرسة ابتدائية اسلامية

ذات حلقتين فى مسجد نيوجيه ببكين فى عام ١٩٠٧ ، مما فتح صفحة جديدة فى تاريخ التعليم الاسلامى الصينى .

الفصل الثانى

جهاز التعليم المسجدى ومصادر نفقاته

سميت المدارس المسجدية بهذا الاسم لوقوعها فى المساجد . وتختلف احجامها ومستويات تعليمها باختلاف احجام المساجد التى تتبعها واوضاعها الاقتصادية وكفاءات المعلمين فيها . فالجوامع الغنية عادة ما كان يتوفر لها ائمة معلمون ذوو فضل وعلم ، يتولون التدريس فى مدارسها ، مما اجتذب عددا كبيرا من طلاب العلم . ولذلك فان المدارس التابعة لهذه الجوامع كبيرة الحجم على وجه العموم . اما المدارس التابعة للمساجد المتوسطة الحجم او الصغيرة فقد كانت متواضعة بطبيعة الحال . بيد ان جهاز المدارس المسجدية — سواء أ كان كبيرا ام صغيرا — يتكون من المعلمين والطلاب لا غير .

وقد جرت العادة على تسمية معلمى المدارس المسجدية " ائمة معلمين " . وكانوا من علماء الاسلام المستقدمين من خارج المناطق التى تقع فيها المدارس . من المفروض على الائمة المعلمين ان يتولوا التدريس لاعداد ورثة قضية الاسلام ، وان يؤموا المصلين ، وان يرعوا انواعا شتى من الشعائر الدينية ، الى جانب نشر المعارف الاسلامية وسط المسلمين . وكان تولى وظيفة الائمة المعلمين يرسو على الذين حصلوا على دبلومات رسمية (اى على الذين انعم عليهم بجبب حريرية خضراء باعتبارها ازياء شرف لهم ، ومنحوا رايات حريرية

باعتبارها دبلومات لهم ، وعليها كتابات تشير الى موجز سير من يستحقونها وشمائلهم وكفاءتهم فى علوم الدين ، وتعبر عن امل المسلمين فيهم) . اما علماء الاسلام الذين لم يحصلوا على الدبلومات السالفة الذكر فكانوا غير مؤهلين للعمل فى المساجد ذات المدارس المسجدية وان كانوا متبحرين فى علوم الدين . ولم يكن للائمة المعلمين مدة عمل معينة ، اذ انها كانت تتراوح بين عدة اشهر وبضع سنوات . وكان من عادتهم ان يتركوا وظيفتهم فى هذه المدرسة اذا تسلموا دعوة من مدرسة اخرى . بيد انه يجوز لهم ان يبقوا فى مراكزهم الاصلية فى حالة تسلم دعوة المدارس الاخرى اذا جدد المسؤولون عن المدارس الاصلية دعوتهم للبقاء فيها . اما فرص دعوتهم للتدريس فكانت متوقفة بصورة رئيسية على ما يتحلون به من شمائل ومعارف . فاذا كان دارسو علوم الدين متواضعين ومحترسين فى تحصيل العلم وجادين فى تهذيب نفوسهم حتى يتعمقوا فى علم الكلام او علم الفقه او نحو اللغة العربية واللغة الفارسية ، اصبحوا موضع الاحترام والتقدير فى اغلب الاحيان . وفى هذه الحالة تتاح لهم فرص تسلم دعوات الجوامع . وكان لا بد من اقامة مراسم احتفال للترحيب بقدوم هؤلاء المدعوين للعمل فى الجوامع قبل ان يبدأوا عملهم . وكان هناك ائمة معلمون لهم شعبية واسعة وسط المسلمين بفضل تفوقهم الاخلاقى وكفاءتهم العلمية ، فهم قد تصلهم دعوة من عدة جوامع فى آن واحد . وهناك ائمة معلمون عاديون فضلا وعلما ، فقلما توجه الدعوة اليهم ، او حتى لا تتاح لهم فرصة الدعوة .

يسمى طلاب المدارس المسجدية "الخلفاء" او "الملا" . ومن المفروض عليهم ان يدرسوا علوم الدين المتنوعة لكى يتقنوها جميعا . وعادة ما يغادرون ديارهم الى اماكن اخرى لتحصيل العلم . ويجوز لكل طالب منهم ان يكمل دراساته على احد المعلمين ، فلا يغادره فى هذه الحالة ،

ويسمح له بمغادرة مدرسته الى مدرسة اخرى لمتابعة دراساته على يد انسب معلم فى نظره ، كما يسمح له ان يتتلمذ على ايدى عدة معلمين فى آن واحد . وليست للمدارس المسجدية مدة دراسية محددة . ولكن طلاب هذا النوع من المدارس لا يمكن لهم ان يتخرجوا فيها الا بعد ان يدرسوا ٧ — ٨ سنوات على الاقل . فاذا كان احدهم صالحا للتخرج فى نظر استاذه ، اقيمت له حفلة تخرج فى الوقت المناسب . وبعد هذه الاجازة يصبح مؤهلا للامامة . وهذا يشير الى ان صلاحيتهم للتخرج تتوقف على الانطباعات التى تركوها فى نفوس اساتذتهم خلال دراستهم .

وليست فى المدارس المسجدية مواقيت تعليمية محددة . بيد ان المعلمين يبدأون إلقاء الدروس على الطلاب عادة بعد وقت وجيز من صلاة الفجر ، ويلقونها عليهم مرة اخرى بعد صلاة الظهر . وعلى الطلاب ان يسردوا ما فهموه من الدروس على اسماع المعلمين بعد صلاة العصر . ويسمى ذلك "ترديد الدروس" . ويمكن للطلاب ان يستذكروا الدروس وان يطالعوا الكتب الاخرى خارج اوقات الدروس . وكان التعليم فى هذه المدارس يجرى بصورة عشوائية بدلا من ان يعتمد على برامج محكمة . وليس هذا فقط ، بل كانت محتويات التعليم تتوقف على اختصاصات المعلمين . ولذلك فان نتائج الطلاب الدراسية وسرعة استيعابهم للمعارف تتوقف على مدى اجتهادهم. وكان هناك عدد من طلاب العلم اقيمت لهم حفلات تخرج بعد سنوات معدودة من التحاقهم بالمدارس المسجدية ، وهناك عدد منهم توقفوا عن الدراسة فى منتصف الطريق الى جانب عدد من الطلاب الذين لم يحالفهم التوفيق فى الدراسة ابدا ، فسموا "الملاوات التافهين" .

وتأتي نفقات المدارس المسجدية من تموينات المسلمين وصدقاتهم . ولما كانت المساجد الصينية مستقلا بعضها عن بعض — لا علاقة انتمائية

فيما بينها — والصين كانت وما تزال تخلو من صناديق الاوقاف الاسلامية الموحدة ، فقد بات من المتعذر على المساجد ان تقدم رواتب للائمة المعلمين . ولذلك كانت المدارس المسجدية تعتمد فى حل مشكلة الانارة والاسكان والوقود على تبرعات المحسنين من المسلمين . اما معاشات الائمة المعلمين والطلاب فيعتمد بعضها على اوقاف المساجد ، وبعضها الآخر على تموينات المسلمين . وفى عدد من المناطق كان المسلمون يقومون بالتناوب باطعام الائمة المعلمين والطلاب الغرباء . وكان يجوز لهم قبول الهدايا فى المآتم او فى حفلات الزفاف وغيرها من المناسبات . وكان ما يأخذونه من المعاشات والهدايا لا يكاد يكفى لسد رمقهم . ومع ذلك فقد كان من المفروض ان يقتطعوا من دخلهم الضئيل هذا قدرا معينا من المال لشراء المواد الدراسية والكتب المعنية وادوات الكتابة وغيرها . ونعرف من ذلك مدى مشقة حياة اولئك الطلاب . وجدير بالذكر ان الطلاب كانوا يبذلون كل جهدهم فى الدراسة ، فيواظبون على القراءة والكتابة آناء الليل واطراف النهار. وكانوا مطالبين الى جانب ذلك بتهذيب نفوسهم حتى يصبحوا متقين وقانتين وزاهدين فى الحياة الدنيا . وكان عدد الطلاب فى كل من المدارس المسجدية يتراوح غالبا بين ٢ — ٥ طلاب . اما المدارس المسجدية التى كان عدد الطلاب فى كل منها يربو على العشرة او العشرات فنادرة الوجود .

وجملة القول ان التعليم المسجدى نظام تعليم اسلامى صينى تشكل بعد اقتباسه شكل التعليم الصينى القديم الطراز . وتتمثل نواقص هذا النوع من التعليم فى عدم اكتمال اجهزته ، وتخلف وسائله التعليمية ، وطول مدته الدراسية المفرط ، وافتقاره الى التخطيط المحكم الدقيق فى التدريس ، وجمود حياته المدرسية ، وقلة عدد طلابه ، وعدم استقراره . اما مكملو الدراسة فى المدارس المسجدية فقد كان بوسعهم ممارسة العبادات وترتيل الآيات

القرآنية واستنساخ الكتب الدينية وشرح الاحكام الشرعية ومعالجة الشؤون الدينية الروتينية . ومما يؤسف له انهم كانوا لا يمتلكون الا قليلا من المعارف الاجتماعية لعدم تعلمهم اللغة الصينية غالبا . وجدير بالذكر ان العلاقة بين المعلمين والطلاب كانت متأثرة بالنزعة الكونفوشية التي تتلخص في عبارة " لا بد للتلميذ من احترام الاستاذ باعتباره ابا له مدى الحياة ولو علمه يوما واحدا " ونتيجة لذلك كان التلاميذ ــ مهما تعاظم شأنهم وذاع صيتهم فيما بعد ــ متواضعين كل التواضع امام اساتذتهم . ويعتبر ذلك من التقاليد الحميدة للتعليم المسجدي الصيني .

الفصل الثالث

المواد الدراسية

ينقسم التعليم المسجدي الصيني الى مرحلتين ابتدائية وعالية . فالمدارس من المرحلة الابتدائية تسمى " الكتاتيب " ، وهي تقوم بتعميم المعارف الاسلامية وسط الجيل الناشئ من ابناء المسلمين واعداد الطلاب الاحتياطيين المطلوبين للمدارس المسجدية العليا .

وكانت الكتاتيب تفتح ابوابها للاطفال في سن الدراسة . ويتولى الائمة المعلمون او مساعدوهم التدريس فيها . وكانت النشاطات التعليمية فيها تجري اتباعا لنظام التعليم الصيني القديم الطراز . وتشتمل المواد الدراسية فيها على « ابجدية اللغة العربية » و« الكلمة الطيبة » و« ختم القرآن الكريم » (مختارات من القرآن الكريم) و« سورة الكهف» والمعارف الاسلامية .

وليس لهذه الكتاتيب نظام ادارى صارم وصفرف ثابتة ومدة دراسية محددة ، بل تفتح ابوابها للاطفال فى كل وقت وتسمح لهم ان يلتحقوا بها ويغادروها بمحض اختيارهم . اما اكمال دراسة المواد التعليمية فى الكتاتيب فكان يستغرق ٣ ـ ٤ سنوات غالبا . ولا بد لليافعين من تلامذة الكتاتيب ان يمارسوا العبادات (الصلاة والصوم . . الخ) ، ولكن لا تتاح لهم الفرصة لحضور الجنائز وحفلات الزفاف والمناسبات الدينية الاخرى .

ويمكن لمكملى الدراسة الابتدائية الذين يراودهم الامل فى نذر انفسهم للقضية الاسلامية ويرجى لهم مستقبل فى هذا الصدد ، ان يرتقوا الى المدارس العليا تلقائيا ليتعمقوا فى دراسة علوم الدين . وعلى الرغم من ان الباقين منهم لا يتابعون دراسة علوم الدين ، الا انهم يصبحون مسلمين فاهمين للمعارف الاسلامية وقادرين على قراءة الآيات القرآنية عبر دراستهم فى الكتاتيب .

ويشار بالتعليم المسجدى الى مرحلته العليا بصورة رئيسية . وتستغرق المواد الدراسية فى هذه المرحلة اللغتين العربية والفارسية . وكان من عادة الطلاب ان يمضوا معظم اوقاتهم الدراسية فى دراسة الكتب الاسلامية العربية ويخصصوا البقية الباقية من اوقاتهم لدراسة الكتب الاسلامية الفارسية ، وهم يسمون ذلك " اجتياز حاجز الكتب الفارسية " . وهذا يدل على انهم كانوا يضعون الكتب العربية فى المقام الاول والكتب الفارسية فى المقام الثانى . والحقيقة ان الكتب الفارسية تشكل نسبة كبيرة بين المواد الدراسية للتعليم المسجدى الصينى .

وتنقسم المواد الدراسية للتعليم المسجدى الى قسمين : احدهما الدروس اللغوية التى تشتمل على علم النحو وعلم البيان وعلم المنطق للغة العربية الى جانب اساس علوم اللغة الفارسية . وطبعا لا يمكن للطلاب ان يحصلوا على المعارف الدينية من هذه الدروس . وجدير بالذكر ان حصولهم على المعارف الدينية

وتهذيب انفسهم على التقوى والاخلاق الحميدة خلال هذه المرحلة يعتمد بصورة رئيسية على ممارسة العبادات اليومية وعلى تأثرهم بالظروف الدينية المحيطة بهم . وثانيهما الدروس الدينية التى تشمل علم الكلام وعلم الفقه والحديث الشريف والمذاهب الصوفية والآداب الفارسية والقرآن الكريم .. الخ .

وتختلف المواد الدراسية للتعليم المسجدى باختلاف المناطق والمذاهب التعليمية . ولكن الكتب التى لا بد من دراستها فى المدارس المسجدية تبلغ ١٣ كتابا ، وقد ظلت شائعة الاستعمال فيها على مدار مئات السنين . وهى :

(١) « الكتاب الخماسى الاجزاء » ، ويتكون من « الصرف» و« المعزى» و« الزنجانى» و« مائة عامل» و« المصباح» وهو كتاب اساسى خاص بعلم الصرف والنحو للغة العربية .

(٢) « ضوء المصباح» ، وهو شرح لـ « المصباح» الذى هو الجزء الاخير من « الكتاب الخماسى الاجزاء» . وقد ألفه العالم الفارسى ابو الفتح ناصر بن عبد السيد بن المطرزى (١١٤٣ — ١٢١٣) ، وهو كتاب نحو واضح للغة العربية . وكانت هناك مقولة : "من استوعب محتويات « ضوء المصباح» استطاع مطالعة الكتب العربية دون مساعدة الآخرين ، ولولاه لاضطرب قلب المرء ازاء هذه الكتب ."

(٣) « ملا جامى» ، ويسمى « شرح الكافية » ايضا ، ويعتبر من افضل كتب النحو فى اللغة العربية ، وهو ذو شعبية واسعة فى المدارس المسجدية الصينية .

(٤) « البيان » ويسمى « تلخيص المفتاح» ، وهو كتاب معروف خاص بعلم البيان .

(٥) « عقائد الاسلام » ، وهو من افضل الكتب الخاصة بعلم الكلام .
وقد قام الشيخ يانغ تشونغ مينغ بترجمته الى اللغة الصينية ، وسماه « جراو شين جينغ» (كتاب قلب الدين) .

(٦) « شرح الرقاية » بقلم صدر الشريعة الاصغر المتوفى سنة ١٣٤٦ وهو كتاب فقهي حنفي . وقد قام الشيخ وانغ جينغ تشاى بنقله الى اللغة الصينية .

(٧) « الخطب» ، ويجمع بين دفتيه ٤٠ حديثا مشروحة باللغة الفارسية . وقد تم للشيخ لى يوى تشن ترجمته الى اللغة الصينية .

(٨) « الاربعون » ، وقد سمى بذلك لأنه يشتمل على ٤٠ حديثا ايضا . ويختلف عن كتاب « الخطب» السالف الذكر بأن حواشيه متأثرة بوجهة النظر الصوفية ، بينما حواشي « الخطب» متأثرة بوجهة النظر الباطنية .

(٩) « المرصاد » ، وهو كتاب فلسفى باللغة الفارسية ، خاص بعبادة الله وتهذيب النفس . وقد قام العالم وو تسزن تشى بترجمته الى اللغة الصينية .

(١٠) « اشعة اللمعات» ، وهو كتاب باللغة الفارسية ، يعتبر من افضل الكتب الخاصة بعلم التوحيد . وقد تم للشيخ بوه نا تشى (شه تشى لينغ) ترجمته الى اللغة الصينية .

(١١) « هواء المنهاج» ، وهو كتاب نحوى للغة الفارسية ألفه الشيخ الصيني تشانغ تشى مى .

(١٢) « كلستان » ، وهو عمل ادبى فارسى . وقد انتقل هذا الكتاب الى الصين منذ اكثر من ٦٠٠ سنة . وله تأثير كبير فى الصين بسبب توفر طلاب العلم عليه . وهناك ترجمتان لهذا الكتاب احداهما بقلم الشيخ وانغ جينغ تشاى ، والاخرى بقلم السيد شوى جيان فو .

(١٣) « القرآن الكريم » .

ونعرف من ذلك ان المواد الدراسية فى المدارس المسجدية تشتمل على الكتب العربية والفارسية معا ، علما بأن الكتب الفارسية تمثل نسبة كبيرة من هذه المواد الدراسية . ويعتبر ذلك من مزايا التعليم المسجدى الصينى .

الفصل الرابع
لغة "جينغتانغ"

معروف ان اللغة وسيلة للتفاهم بين الناس . وهناك كثير من البلدان لها لغات محلية وعامية وقومية ومهنية الى جانب لغاتها الرسمية الدارجة . وفيما كانت قومية هوى تتشكل ، والتعليم المسجدى يشهد تطورا فى مجرى تعممه ، ظهرت لغة استثنائية وسط المسلمين الصينيين الناطقين بلغة هان ، وهى لغة " جينغتانغ" التى تختلف عن اللغات المحلية او العامية .

ولغة " جينغتانغ" ثلاثة مصادر هى : اللغة العربية واللغة الفارسية واللغة الصينية . ولذلك تشمل مفرداتها كلمات عربية وفارسية وصينية واخرى مركبة من الكلمات العربية والفارسية او من الكلمات العربية والصينية او من الكلمات الصينية والفارسية .

تمثل الكلمات العربية والفارسية نسبة عظمى فى لغة "جينغتانغ" ، ذلك لأن تعابير المسلمين الصينيين فيما يختص بالايمان وبأسماء الكتب الدينية والعبادات مقتبسة كلها من اللغتين العربية والفارسية . ومن كلماتها العربية : " الله " و" الايمان " و" المسلم " و" الزكاة " و" الحج" و" الرسول " و" الامام " و" العالم " و" المعلم " و" الخليفة " .. الخ . ومن بين

كلماتها الفارسية : " هدى " (الرب) و " بامداد " (صلاة الفجر) و " بيشين " (صلاة الظهر) و " ديقر " (صلاة العصر) و " روزه " (الصوم) و " دوشمان " (العدو) و " دست " (الصديق) . . الخ .

اما الكلمات الصينية فى لغة " جينغتانغ " فهى معقدة جدا ، وتتلخص فيما يلى :

الكلمات المقتبسة من اللغة الصينية الدارجة دون ان تخالف معانيها الاصلية ، ومن ضمنها : " تشيان كون " (الكون) " تشاى بوه " (المال) و " وانغ رن " (الميت) و " جيوى قونغ " (الركوع) و " وانغ شيانغ " (الترجى) و " تشيوتشى " (الالتماس) . . الخ .

الكلمات المنقولة عن اللغتين العربية او الفارسية معنويا مثل : " تشيرين تشيتسى " (الرحمن الرحيم) و " داننغ " (القدير) و " شوراو " (الغفران) و " فنغ ين " (الختم) و " دويى " (الواحد) و " تشيقان " (الحمد) و " تيانمينغ " (الفريضة) و " جيويبان " (الشرك) و " تشاوشيانغ " (القبلة) و " كوهوان " (الاذن) و " باتشاى " (الصوم) . . الخ .

الكلمات المقتبسة من الاصطلاحات البوذية او الطاوية مثل " تشيانتشنغ " (الاخلاص) و " ووتشانغ " (الوفاة) و " تسانوو " (التذكر) و " داشيان " (الاجل) و " تساونيه " (ارتكاب الجرائم) و " بنتى " (الذات) و " شانباو " (حسن العاقبة) و " تساوهوا " (الخلق) . وقد اصبحت هذه الكلمات اصطلاحات اسلامية فى الصين ، وهى لا تختلف مدلولا عن مثيلاتها البوذية او الطاوية .

ولا تخلو لغة " جينغتانغ " من المفردات المركبة من الكلمات العربية والفارسية مثل " بيه نصيب " (غير محظوظ) ومن الكلمات العربية والصينية مثل " شيون رزق " (السعى وراء الرزق) ومن الكلمات الفارسية والصينية

مثل " با روزه " (الصوم) .

وليس هناك فرق بين تركيبات لغة " جينغتانغ " وتركيبات اللغة الصينية على وجه العموم . ولكن هناك اختلاف بسيط يتمثل فيما يلي :

(١) كثرة اشباه الجمل فى لغة " جينغتانغ " وخاصة فى حالة التفاهم التام بين المتكلم والمخاطب . ومن اشباه الجمل هذه : " بيمار لياو " (اى اصيب بمرض) و " بوشبوى دايتساى " (اياك والافتراء) .. الخ .

(٢) الكلمات العربية او الفارسية فى موضع المبتدأ والكلمات الصينية فى موضع الخبر مثل " الربا شى بوده " (اى الربا غير حلال) .

(٣) الكلمات الصينية فى موضع الفاعل والكلمات العربية او الفارسية فى موضع الفعل مثل " وه صوم " (اى اصوم) .

(٤) الكلمات الصينية فى موضع المضاف والكلمات العربية او الفارسية فى مرضع المضاف اليه مثل " القدر ده وان شى " (ليلة القدر) .

(٥) الكلمات العربية او الفارسية فى موضع المسند والكلمات الصينية فى موضع تتمة المسند مثل " شؤم ده خين " (مشؤوم جدا) و " وبال ده خين " (مسكين جدا) .. الخ .

(٦) وهناك اختلاف بين لغة " جينغتانغ " واللغة الصينية فى استعمال حروف الجر والافعال والصفات .

لقد مضى على تداول لغة " جينغتانغ " وسط المسلمين الصينيين مئات السنين . ويعزى السبب فى ذلك الى اعتزازهم بها بدافع من مشاعرهم الدينية والقومية ، كما يعزى الى امتيازها بكثير من الميزات . من ذلك انها انيقة ورزينة وبعيدة عن الفظاظة والابتذال وسليمة فى التعبير عن المعانى المطلوبة وشائعة وسط المسلمين من قومية هوى فى كافة انحاء الصين ، على الرغم من

انها لا تزيد عن مجموعة من الاصطلاحات الاسلامية التى نشأت فى المدارس المسجدية الصينية . وبما انها لا تختلف عن اللغة الصينية من حيث قواعدها اللغوية ، فلا يجوز اعتبارها لغة مستقلة خاصة بقومية هوى . ولكن وجودها حقيقة واقعية لا سبيل الى انكارها ، وذلك بفضل شيوعها وسط المسلمين الصينيين الناطقين باللغة الصينية مع العلم ان بعض كلماتها قد اصبح تعابير حياتية لهم . وليس من الغريب ان يبدى مسلم حماسته المتناهية لأخيه المسلم الذى كان لا يعرفه ، ما دام هذا الاخير يسلم عليه تسليما اسلاميا او يخاطبه بـ "دست" (كلمة فارسية بمعنى الصديق) . ولا نبالغ اذا قلنا ان ذلك من الظواهر الاجتماعية فى الصين . فلا بد لنا من ان نهتم بها ، ولا يمكننا ابدا ان نغض النظر عنها . ومما يستحق الذكر ان لغة "جينغتانغ" قد تركت اثرها فى تاريخ الاسلام الصينى وتاريخ قومية هوى . ولذلك علينا ان نتعمق فى دراسة تاريخ لغة "جينغتانغ" ودراسة مصادرها اللغوية ومحتوياتها وقوانينها النحوية ونطاق استعمالاتها ومزاياها .

الفصل الخامس

كتابات شياو أر جين

ظهرت كلمة "شياو أر جين" فى المعلومات العصرية الخاصة بتاريخ قومية هوى وتاريخ الاسلام الصينى . والحقيقة انه يجب تسميتها "شياو أر جينغ" (هاضم الكتب الدينية) . ومعنى ذلك ان هذا النوع من الكتابات يساعد على "هضم" محتويات الكتب الدينية . اما فى منطقة شينجيانغ

فتسمى الكتب العربية المحركة متونها بـ " الكتب الهضومة " . واما فى مناطق قانسو – نينغشيا – تشينغهاى فكان من عادة دارسى الكتب الاسلامية العربية ان يقوموا حين يصادفون كلمات او عبارات صعبة الفهم بشرحها بالالفاظ الصينية المهجاة بالحروف العربية او شرحها بالكلمات العربية المتجانسة ، مما يساعدهم على فهم هذه الكلمات او العبارات فى مجرى استذكارها . وتسمى هذه الشروح " شياو جينغ " (الكتابات الهاضمة) . وقيل بأنه يجب تسمية هذه الكتابات « شياو جينغ » (الكتب الصغيرة) لفصلها عن الكتب الكبيرة الحجم مثل القرآن الكريم . . الخ . وبما ان تلك الكتابات المهجاة بالحروف العربية ما هى الا وسيلة مساعدة للدراسة ، فلا يمكن وضعها بأية حال على قدم المساواة مع الكتب الرسمية . ونعرف من ذلك ان لفظ " شياو أر جين " بعيد عن الصحة . وارجح الظن انه لفظ مشوه لـ " شياو جينغ " او " شياو أر جينغ " . ومن المسلم به ان " شياو أر جينغ " هى اللغة الصينية المكتوبة بالحروف العربية والمشوبة بعدد معين من الكلمات العربية والفارسية مع العلم انه تظهر بين سطورها عدة مقاطع كتابية صينية فى بعض الاحيان .

وهناك مقولتان فيما يختص بنشوء " شياو أر جين " ، وتشير احداهما الى ان نشوءها يمت بصلة الى المسلمين العرب الذين جاءوا الى الصين فى عهد اسرتى تانغ وسونغ (٩٠٧ – ١٢٧١) ، ذلك انهم ربما قاموا بشرح الكلمات الصينية بالحروف الهجائية العربية فى مجرى دراستهم اياها . وعلى الرغم من انه ليس هناك معلومات تاريخية دالة على صحة هذه المقولة الا انه من المحتمل ان يكون الامر كذلك . وتفيدنا المقولة الثانية بأن " شياو أر جين " قد نشأت فى الوقت الذى ظهر فيه التعليم المسجدى . يومها كان دارسو الكتب الاسلامية العربية يستفيدون من الالفاظ الصينية المكتوبة بالحروف الهجائية العربية فى شرح متونها تيسيرا لحفظها واستيعابها وهضمها . وهناك

كميات من الحواشي والتدوينات والرسائل التي كتبها شيوخ الاسلام في عهد اسرتي مينغ وتشينغ (١٣٦٨ — ١٩١١) ، وهي تدل على صحة هذه المقولة .

ان الاستدلال بالآثار التاريخية المرئية اكثر اقناعا . فلو ذهبت الى مسجد زقاق شيويشى الكبير في مدينة شيآن ، لرأيت كتابات " شياو أر جين " على نصب صخرى ، وهي تفيدنا باسم كاتب العبارة على النصب واسماء المشرفين على بناء المسجد وترميمه واماكن ولادتهم وتاريخ تدبيج العبارة : سنة ٧٤٠ هـ وهي واقعة بين ٩ يوليو ١٣٣٩ م و٢٦ يونيو ١٣٤٠ م .

فيعتقد ان المسلمين من قومية هوى قد بدأوا يستفيدون من " شياو أر جين " في تسجيلاتهم منذ زمن يعود الى اواسط القرن الرابع عشر . وقد شهدت هذه الكتابات انتشارا وتطورا بعد قيام الشيخ هو دنغ تشو بتأسيس مدرسته في القرن السادس عشر .

وقد كانت " شياو أر جين " مستعملة في المجالات التالية :

(١) كانت الكتب الاسلامية باللغة الفارسية تشكل جزءا كبيرا من المواد الدراسية في المدارس المسجدية كما اسلفنا . وبما انها كتب دينية فانها لا تخلو من الاقتباسات العربية التي تشتمل على الآيات القرآنية والاحاديث النبوية والاصطلاحات الاسلامية ، علما ان معظم ما كتب على جوانب هذه الاقتباسات العربية بلغة " شياو أر جين " ترجمات لتلك الاقتباسات . وبالاضافة الى ذلك هناك مذكرات مدونة بـ " شياو أر جين " وجداول كلمات عربية او فارسية مفسرة بها . وجدير بالذكر ان كل هذه الكتب والمذكرات والجداول مخطوطة . وقد قال العالم فنغ تسنغ ليه من قومية هوى ان « ملا جامى» و« البيان » و« الوقاية » وغيرها من الكتب العربية قد ترجمت الى " شياو أر جين " وطبعت ايضا . وكل ذلك يقدم دليلا على ان " شياو أر جين " هي وسيلة مساعدة لدراسة الكتب العربية لدى دارسي علوم الدين

فى المدارس المسجدية . ومع انهم كانوا ينطقون باللغة الصينية الا انهم كانوا لا يعرفون قراءتها وكتابتها . وهذا ما حدا بهم الى الاستفادة من " شياو أر جين " فى شرح العبارات الصعبة الفهم فى مجرى دراستهم .

(٢) هناك عدد من الكتابات العربية والفارسية المنقوشة على الانصاب الصخرية يتخللها كثير من مفردات " شياو أر جين " . اما القراءات الدينية التى ظهرت منذ عهد اسرة تشينغ (١٦٤٤ - ١٩١١) فلا تخلو غالبا من مفردات " شياو أر جين " . ودليل ذلك اكتشاف كتاب ، فى مدينة شيآن ، ألفه احد الائمة بهذه اللغة فى عهد حكم الامبراطور شون تشى (١٦٤٤ - ١٦٦٠) ، كما طبع كتاب بعنوان « اسئلة واجوبة حول الاحكام الاسلامية » فى شانغهاى فى اغسطس ١٩٣٥ ، قد ذيلت متونه الصينية بشروح مكتوبة بلغة " شياو أر جين " . كما طبع كتاب بعنوان « اسئلة واجوبة حول الايمان » فى لينشيا سنة ١٩٥٤ ، وتحت متونه العربية ترجمات الى " شياو أر جين " . والطريف ان مؤلف الكتاب ومترجمه مستخدم فى مسجد جينغكو بمحافظة دونغشيانغ . وهناك كتاب بعنوان « قراءات لغة هوى » ، يجمع بين دفتيه معارف اسلامية اساسية باللغة الصينية ولغة " شياو أر جين " معا ، وهو شائع التداول فى مقاطعة تشينغهاى ومنطقة ليشيا بمقاطعة قانسو . ولا تفوتنا الاشارة الى ان هناك كتابا مدونا بـ " شياو أر جين " تحت عنوان « علم الصرف » ، وهو شائع وسط ائمة المساجد من قومية هوى فى منطقة شينجيانغ .

(٣) استعملت " شياو أر جين " فى الحياة الاجتماعية لأبناء قومية هوى على نطاق واسع ايضا . ويومها كانت وسيلة لهم فى دراسة اللغة الصينية والتدوين والمراسلة . وقد نشرت فى الجزء الثالث من الكتاب « انتفاضات قومية هوى » ، وقد تم تأليف هذا الجزء تحت اشراف البروفيسور باى شو يى ، نشرت صورة فوتوغرافية لقطعة من التدوينات التاريخية بلغة " شياو

أر جين" . ونرى فى كتاب «مشاهدات فى مصيبات شنشى» رسالة مكتوبة بـ "شياو أر جين" ، وهى مرسلة من مدينة شيآن الى الجبهة الامامية لجحافل المنتفضين من قومية هوى سنة ١٨٦٢ . اما «معجم اللغتين الصينية والعربية» الذى صدر فى شيآن فى الخمسينات ففيه تفاسير بـ "شياو أر جين" . وفيما كان الشيخ ليو تسونغ يون فى مدينة شيآن يقوم فى اغسطس ١٩٥٥ بزيارة لشمال شرقى الصين بصفته عضوا للوفد الزائر من ابناء قومية هوى فى شنشى وقانسو دون يومياته بـ "شياو أر جين" ، وهى من التدوينات التى تتحدث عن احوال الصين الجديدة بلغة "شياو أر جين" .

وتنقسم "شياو أر جين" الى نوعين : احدهما "شياو أر جين" التقليدية المكونة من الكلمات الصينية المهجاة بالحروف العربية ومن كميات كبيرة من الكلمات العربية والفارسية الى جانب عدد من الكلمات المبتكرة غير المقننة . وحيث انها تتميز بالاسلوب اللغوى الشائع فى المدارس المسجدية ، فانها ركيكة اللفظ صعبة الفهم والترجمة . والنوع الثانى هو "شياو أر جين" العصرية المكونة من كلمات صينية مهجاة بحروف عربية ولكنها خالية من الكلمات العربية والفارسية والكلمات المبتكرة غير المقننة . وليس هناك صعوبة فى تهجيتها بالحروف العربية بالنسبة الى كل من يعرف التهجية بهذا النوع من الحروف . وكفى بذلك دليلا على بساطتها الى حد ما .

ومع ذلك فان من الصعب على "شياو أر جين" العصرية ان تعبر عن المعانى بدقة ، شأنها شأن نظيرتها التقليدية . ويعتبر ذلك من اكبر نواقص "شياو أر جين" . وقد كان بعض المسلمين من قومية هوى يردد المقولة التالية : "شياو أر جين لا تؤدى الى المعانى ، لذلك يصعب فهمها حتى على الملائكة ."

هناك عدة اسباب لوجود نواقص فى "شياو أر جين" :

(١) تختلف لهجات الصينيين — من بينهم المسلمون — باختلاف مناطقهم ، الامر الذى سبب ارتباكا فى تهجية اقوالهم بالحروف العربية . ومع ان للغة الصينية لهجة نموذجية معترف بها فى كافة انحاء البلاد ، الا ان سكان مختلف المناطق غالبا ما كانوا يستخدمون لهجاتهم المحلية . ولذلك فان الكلمة الواحدة دائما ما يكون لها لفظان مختلفان اذا كانت تتردد على لسان شخصين من منطقتين مختلفتين . معنى ذلك ان " شياو أر جين " تختلف من مكان لآخر نتيجة تأثرها باللهجات المحلية .

(٢) ليس هناك مقاييس موحدة فى تهجية " شياو أر جين " ، اى ان المرء كان يقوم بالتهجية كما يريد . وبما ان اللغة العربية تختلف عن اللغة الصينية اختلافا تاما ، فقد كان من الصعب على الناس ان يتوصلوا الى اتفاق حول استخدام هذه الحروف العربية او تلك فى تهجية نفس الكلمة . ولذلك كان لكل امرئ الحرية فى اختيار ما يحلو له من الحروف العربية فى التهجية ، واقتباس ما هو محبب اليه من الكلمات العربية او الفارسية فى كتاباته ، وتلفيق ما هو غريب على غيره من الكلمات الجديدة . فلا غرو ان تستعصى كتابات هذا الشخص على فهم ذلك الشخص وان كانا من مواليد منطقة واحدة .

(٣) ان لكل مقطع صينى ٤ نغمات ، وكل نغمة من هذه النغمات تدل على معنى . بيد انه من المستحيل على المرء ان يميز هذه النغمة من تلك بالحروف العربية . فليس غريبا ان يلتبس مدلول هذه الكلمة بمدلول كلمة اخرى ، وان تختلط هذه المدلولات اختلاط الحابل بالنابل ، مما اضطر قراء " شياو أر جين " الى تقدير معنى كل كلمة من سياق الكلام .

(٤) فى مجرى تهجية الكلمات الصينية بحروف لاتينية او عربية يصعب تجنب ظهور ارتباكات فى مقاطعها اللفظية ، مما يؤدى الى تشويه

تلك الكلمات معنى ولفظا . وللحيلولة دون ذلك لا بد عند تهجية اللغة الصينية بالحروف من اضافة فواصل الى تلك الكلمات . وحيث ان " شياو أر جين " تخلو من هذا النوع من الفواصل ، فان الارتباكات التى ظهرت فى مجرى تهجية " شياو أر جين " دائما ما تبعث على الضحك .

(٥) هناك اختلافات فيما يختص بكتابة الحروف العربية فى تهجية " شياو أر جين " ، مما يسبب للقراء صعوبات فى قراءتها ايضا .

وعلى الرغم من ان " شياو أر جين " ذات عيوب قاتلة متمثلة فى الركاكة وصعوبة الفهم وعدم التكامل وعدم التقنين ، وافتقارها الى الممارسة فى زماننا ، الا انها تظل ذات قيمة تاريخية اكيدة لأنها من اقدم اللغات المهجاة فى الصين ، ولأنها جاءت نتاجا للتبادلات الثقافية بين الصين وبلاد العرب ، ولأن المسلمين من قومية هوى قد استفادوا منها فى فترة من فترات التاريخ . ويعتقد بأن اولئك المسلمين المغمورين كانوا قد اسهموا فى تاريخ تهجية اللغة الصينية بالحروف . فصح قول السيد فنغ تسنغ ليه : ان " شياو أر جين " " جديرة بأن تسجل فى كل من تاريخ تهجية اللغة الصينية بالحروف وتاريخ الاسلام الصينى وتاريخ التبادلات الثقافية بين الصين وبلاد العرب . "

كلمة عن المؤلف



ولد ابراهيم فنغ جين يوان من اسرة اسلامية فى بكين عام ١٩٤٤ . تعلم فى مدرسة ابتدائية تابعة لمسجد ببكين عام ١٩٤٩ . والتحق بمعهد القوميات المركزى ، حيث تعلم اللغة الويغورية فى كلية لغات وآداب القوميات ، وتخرج فى المعهد عام ١٩٦٦ .

منذ عام ١٩٧٨ والمؤلف يعمل فى الدراسات الاسلامية الصينية . وهو الآن باحث مساعد فى معهد البحوث للديانات العالمية بأكاديمية العلوم الاجتماعية ، وعضو فى مركز الدراسات الاسلامية الصينى وجمعية بحث تاريخ علاقات الصين مع بلدان ما وراء البحار وجمعية حضارة المسلمين ببكين .

فى السنوات الاخيرة ألف ونشر كتبا كثيرة منها « اسئلة واجوبة حول تاريخ الاسلام فى الصين » و« اسئلة واجوبة حول الحضارة الاسلامية الصينية » و« ملاحظاتى الشخصية حول مذاهب منهوان فى الصين » و« مزايا الحضارة الاسلامية الصينية المتمثلة فى اللافتات الصينية المكتوبة فى المساجد لدى قومية هوى» . . الخ .

مطبعة اللغات الاجنبية بكين
توزيع
الشركة الصينية العالمية لتجارة الكتب
٢١ شارع تشه قونغ تشوانغ الغربى ، بكين ، الصين
ص . ب ٣٩٩ بكين — الصين
الرمز البريدى ١٠٠٠٤٤

中国的伊斯兰教
伊卜拉辛·冯今原著
李华英译
*
外文出版社出版
（中国北京百万庄路24号）
邮政编码100037
北京外文印刷厂印刷
中国国际图书贸易总公司发行
（中国北京车公庄西路21号）
北京邮政信箱第399号 邮政编码100044
1991年（32开）第一版
（阿）
ISBN 7-119-01309-2/Z·508（外）
00650
17—A—2526P

« الاسلام فى الصين »

تعريف بالكتاب

دخل الاسلام من جزيرة العرب الى الصين منذ اكثر من الف سنة . ومن بين الـ ٥٦ قومية صينية ١٠ اقليات قومية اسلامية . ويربو عدد المسلمين فى الصين على ١٧ مليون نسمة ، كما يزيد عدد الجوامع والمساجد فيها عن ٢٤ر٠٠٠ مسجد . فما من مقاطعة وبلدية ومنطقة ذاتية الحكم فى الصين الا وتتردد فيها اصداء الآذان . ولا نبالغ اذا قلنا ان المسلمين الصينيين هم جزء هام من العالم الاسلامى ، وان دخول الاسلام الى الصين وتطوره فيها جاء نتاجا للصداقة بين الشعبين الصينى والعربى .

وفى هذا الكتاب يلقى مؤلفه ابراهيم فنغ جين يوان – عالم مسلم فى معهد البحوث الدينية التابع لأكاديمية العلوم الاجتماعية الصينية – اضواء على تاريخ دخول الاسلام الى الصين وتطوره فيها بما فى حوزته من المعلومات الموثوق بها ، مدفوعا بمشاعره العميقة نحو الدين الاسلامى الحنيف ، كما يتطرق فى كتابه الى اسهامات الحضارة الاسلامية فى الحضارة الصينية والى مزايا المسلمين الصينيين وعاداتهم وعباداتهم .

وبين دفتى هذا الكتاب حوالى ١٤٠ ألف مقطع صينى . ويتخلل صفحاته كثير من الصور الفوتوغرافية النفيسة الى جانب عدة خرائط توضيحية مثل « خريطة تبين دخول الاسلام الى الصين » و« خريطة لتوزع المساجد الرئيسية فى الصين » .

اما مقدمة الكتاب فقد دبجها الامام الحاج صالح آن شى وى نائب رئيس الجمعية الاسلامية الصينية وعضو مكتب التنسيق الآسيوى التابع ... الاسلامى .



ISBN 7—119—01309—2
17—A—2526P